النقد الاجتماعى

فى آثار

أبى العلاء المعرّى

الدكتور
يسرى محمد سلامه
أستاذ مساعد الأدب العربى
كلية الآداب - جامعة الاسكندرية

(الطبعة الثانيـة)

١٩٨٢



دار المعارف

النقد الاجتماعى

فى آثار
أبى العلاء المعرّى

الدكتور

يسرى محمد سلامة

أستاذ مساعد الأدب العربى ـ كلية الآداب

جامعة الاسكندرية

(الطبعة الثانية)

١٩٨٢



دار المعارف

إهـــــــداء

إلى أســـتاذى الدكتـور شـــوقى ضيـف

..... إلى زهــرتــى الحيـــاة ....

رحـــاب و محمــــد

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم الموضوع

أبو العلاء المعرى ، أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخى ، الشاعر الضرير معلم بارز من معالم أدبنا العربى الخالد ، وقمة لا تطاولها قمة إلا لسلفة العبقرى ذى الموقف الملتزم تجاه قضايا العروبة والإسلام وهو أبو الطيب المتنبى .

ولست بحاجة إلى تقديم هذا الرجل العظيم ، فكلنا أما صديق ملازم له فى لزومياته ، واما فنان منطلق فى جنة غفرانه ، أو مفكر سابح فى فصوله وغاياته ، أو منشىء متتامذ على رسائله ومكاتباته ، أو هاو للشعر الرقيق السامى مبتغ آماله فى سقط زنده .

وكنت أدرك — منذ بداية التفكير فى هذا البحث — أن أبا العلاء بحر واسع القرار ، وأن من يسبر أغواره يحتاج إلى أدوات لغوية وفنية وفلسفية يتخذها سلاحه الأولى فى فهم انتاجه الضخم من نثر وشعر .

كما كنت أدرك المشكلات الفلسفية والدينية التى أثارها الشاعر فى وجه دارسيه حديثا وقديما حتى أوجب على من يقرأ تراثه الاحتياط الكثير ، والالتزام بالحيدة الفكرية ، والوقوف طويلا قبل اصدار الأحكام .

واللافت للنظر حقا هو اختيارى لأبى العلاء موضوعا لدراستى ، على كثرة ماقال القائلون فيه ، وما كتب الكاتبون والدارسون ، وأعنى تلك الدراسة الرائدة للأستاذ الدكتور طه حسين ، كما أعنى ذلك السيل الذى لا ينقطع من المقالات والبحوث التى ألقيت فى مهرجانه الألفى بسورية . هذا بالاضافة إلى الدراسات القديمة فى كتب التراجم وما أضافه المستشرقون من أضواء وتحقيقات من أمثال مرجوليوث الذى نشر رسائل أبى العلاء وطبعتها اكسفورد منذ عام ١٨٩٨ .

غير أنى أرى أن دراستى لأبى العلاء المعرى ستكون ـــ بمشيئة الله ـــ إضافة جديدة لتلك البحوث المستفيضة . وذلك لأن ايمانى بتراثنا العربى العظيم ايمان غير محدود ، يحدونى إلى هذه العقيدة ما يجده الباحث المخلص من كثرة أعماله للفكر ، وتقليبه للأمور من نتائج ايجابية جديدة فى هذا التراث العظيم .

ولقد شجعنى على تناول أبى العلاء بالدراسة ، أنه سبق لى أن قدمت أطروحة الماجستير عن « حكمة أبى الطيب المتنبى » . وكما كان هذا الشاعر العظيم الذى ملأ الدنيا وشغل الناس يمثل تحديا صارخا لأدوات البحث الأولية التى كنت أملكها ، كما كانت الدراسات الواسعة التى تناولته من معاصرين له ولنا تبدو كأنها قد سدت الطريق أمام أى دراسة حديثة . غير أن الخط الفكرى الذى التزمت به فى دراستى لتراثنا القديم هو بيان الجانب التقدمى فيه ، وهو الجانب الذى يلتزم بقضايا الأمة وطبقات الناس ويقف مدافعا عنه بقلبه وشرف كلمته ولقد كانت قضية الدفاع عن كرامة الاسلام والعروبة ضـــد الغزو البيزنطى هى قضية عصر المتنبى ، وكانت الحاجة ماسة لوجود رجل عربى حازم قوى يصد السيل المسيحى الغازى ، وتمثلت صورة هذا الرجل فى الأمير العربى سيف الدولة الحمدانى فى حلب الشهباء . فوقف المتنبى غرر شعره على ذلك الرجل العظيم وتكاملت الصورة حين تحالف رب القلم مع رب السيف للدفاع عن حياض الاسلام . وكان المتنبى يبحث عن المثل الأعلى فى كل شىء ، فى الأخلاق ، والشجاعة ، والعدل ، والعروبة ولذلك مدح الناس بما فى نفسه من عظمة ، ولم يمدحهم بما هم فيه من واقع ، ورسم أمام عيونهم صورة لما ينبغى أن يكونوا عليه من جود ومبادرة واسهام فى القضايا المصيرية الهامة ، ولم يكن شاعرا مداحا يطرق الأبواب ، أو قرمطيا زائغا عن الاسلام ، أو متناقضا مع نفسه ومع الناس .

وكان المتنبى أستاذ أبى العلاء . أعجب به ، وأخذ عنه ، وشرح ديوانه فأسماه « معجز أحمد » واستشهد بشعره ، واتخذ منه قدوة فنية .

وأبو العلاء كان يعيش ظروفا اجتماعية غاية فى التناقض والاسفاف ، عاش فى

عصر امرة الأمراء فى بغداد ، حيث تغلب الـــترك والديلم على العنصر العربى الخالص ، وتوارى الخليفة العباسى أمير المؤمنين خلف السجف والاستار يلهو مع الغلمان والجوارى ويعب الخمر ، ويلعب النرد والشطرنج ، بينما الأمور يصرفها أمير الامراء أو السلطان أو ملك الملوك أو تلك الألقاب التى حفلت بها كتب التواريخ لأولئك الامراء الذين كانوا من عناصر غير عربية ، ومع ذلك كانوا يولون ويعزلون الخلفاء ، ويتحكمون فى ولاية العهد ، بل وفى رواتب القصر الخليفى.

وشهدت الامبراطورية الاسلامية المجاعات والفتن الدينية من قرامطة ينهشون أطراف الدولة ، ودرزية ينادون بألوهية الحاكم ، واسماعيلية يفرضون الارهاب والخوف ، وشيعية ينـادون فى بغداد معقل الخلافة السنية « ياحاكم يامنصور » فضلا عن جيوش البيزنطيين التى كانت تهدد أطراف الدولة الشمالية ، ولا تجد حاجزاً يمنعها من الاغارة والنهب والاحتلال بعد انتكاس آل حمدان وضعفهم فى حلب .

وكان أبو العلاء يرى كل هذا بروح الانسان المسلم العربى ، وبقلب الشاعر الصادق ، وبعقل الرجل المفكر الفيلسوف .

يرى الحكام يعيثون فى الارض فسادا ، يظلمون الرعية ، وينتهبون أموالها ، وينفقون على ملذاتهم الدنيئة بسخاء ، بينما يبخلون على البذل فى الجهاد واصلاح أحوال البلاد المحكومة . ويرى رجال الدين يتمرغون على أعتاب الحكام يبيعون لهم الفتاوى الشرعية بأبخس الأثمـــان ، ويؤولون كتاب الله وأحاديث رسوله حسب أهواء حكام لا دين ولا خلق لهم .

ونظر فى كل جوانب الحياة ليجد الفساد ضاربا فيها بجرانه ، متعمقا فى كل ناحية من نواحى المجتمع ، المرأة المسلمة أضحت متاعا رخيصا ، والـكتاب والشعراء باعوا أقلامهم للطغاة الظالمين ، والناس فى محنة حقيقية.

عاش أبو العلاء النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى والنصف الأول من

القرن الخامس الهجرى ليرى هذه الحقائق المروعة ، وليذوق هو أيضا مرارة الفقر ، وذل الحاجة التى اضطرته إلى الهجرة من المعرة إلى بغداد ليعود يجرجر ثوب الخيبة .

هذه الحقائق الموضوعية والذاتية جعلت أبا العلاء المعرى يتخذ موقفا ايجابيا من المجتمع، ولم يصبح رهين المحبسين بمعنى أنه فقد كل صلته بالحياة العامة، فلقد وفد عليه التلاميذ من كل أقطار الأرض وكانت له مكانته وكلمته الأولى فى مجتمعه الصغير فى معرة النعمان حتى ظنه « فنا خسرو » غنيا وجيها سيدا ، ولقد كان كذلك حقا لأنه كان محوطا بمدرسة كاملة من مريديه ، وبعطف واعجاب من مواطنيه .

درس الدارسون حياة أبى العلاء وعصره ، ومروا مرورا عابرا على دوره الايجابى تجاه قضايا ذلك العصر ، وينبغى لى أن أشير هنا إلى دراسة موجزة لزكى المحاسنى عن « أبو العلاء ناقد المجتمع » .

ولقد عولت فى دراستى هذه على تأمل تراث أبى العلاء شعراً ونثراً ، ولقد حظى تراثه بعناية الناشرين والمحققين ، ثم تناولت عصره بالدراسة التاريخية والعقيدية والفلسفية لبيان التأثر والتأثير بين الشاعر وأفكار مجتمعه .

هذه الدراسة الشاملة التى تجمع الدراسة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية فى نسيج واحد هى التى دفعتنى إلى خوض هذا البحر العميق ، وفى يدى تجربتى السابقة مع المتنبى ، وفى قلبى أولا وأخيراً إيمان بتوفيق الله الكريم .

الكتاب الأول

صورة المجتمع العربى فى حياة المعرى

الفصل الأول

الحياة الإقتصادية

أولا — الثروة

يؤدى الاقتصاد دورا رئيسيا فى حياة الجماعة ، وتتأثر الحركات الفكرية والفنية - بدورها - بالنظام المالى والتركيب الاقتصادى للمجتمع ، وكان الشاعر العربى ترجمانا صادقا يعكس صورة مجتمعه بما فيه ومن فيه ، فترى المتنبى - مثلا - ينقد المجتمع نقدا مرا لتسلط الأعاجم على مقدراته ، ونهبهم لثرواته ، ويتمنى لو عادت الأرض لأصحابها العرب ، وعادت الثروة بالتالى إلى أصحابها الحقيقيين « وما تفلح عرب ملوكها عجم » ، وهذه النظرة ليست نقدا للنظام السياسى فقط ، وإنما هى دعوة لاصلاح تركيب المجتمع ، وتوزيع الثروة توزيعا عادلا.

ويرتبط الاقتصاد بالسياسة إرتباطا عضويا متكاملا ، فاذا كانت الدولة تتمتع بالاستقرار السياسى اتجه حكامها إلى الاصلاحات الداخلية ، وتنمية الثروة، وإنشاء المشروعات العمرانية ، وأما إذا كانت تعيش فوق فوهة بركان فان الخراب والدمار يلحقان بكل مظاهر عيشها وحضارتها.

وقد قدمنا لدراستنا عن المعرى بهذا الفصل إدراكا لأهمية المال فى حياة الجماعة والفرد ، ودوره فى تهيئة الجو النفسى والثقافى والفكرى بجانب العوامل الأخرى التى سنذكرها بعد .

وينبغى أن نتتبع أولا البيئة الصغيرة التى عاشها المعرى ، وبالتحديد هذه القرية الصغيرة « معرة النعمان » التى شهدت أول مدارج طفولته وصباه .

اختلف المؤرخون فى وصف طبيعة معرة النعمان هذه بين واصف لجنانها وخيراتها وبين منكر لمظاهر العز والترف فيها .

وأقدم نص بين أيدينا يصف المعرة هو ما جاء فى كتاب « سفرنامة » لناصر خسرو [١] الذى يصف معرة النعمان بقوله :

(وفى يوم آخر، حينما سرنا ستة فراسخ ، وصلنا إلى مدينة « سرمين » وليس لها سور . وسرنا ستة فراسخ أخرى ، فكانت « معرة النعمان » ، ولها سور حجرى . وهى مدينة مكتظة بالسكان ، وعلى بابها رأيت أسطوانة من الحجر ، كتب عليها بخط غير عربى ، فسألت شخصا : ماهذا الشيء ، فقال: طلسم للعقارب، فلا تعيش فيها عقرب ، أو تأوى اليها ، وإذا جلبت من مكان آخر اليها وأطلقت فيها فانها تهرب ، وارتفاع هذه الأسطوانة عشر أذرع . ورأيت أسواقها كثيرة معمورة والمسجد الجامع بها أقيم على مرتفع فى وسط المدينة ، يرقى اليه بثلاث عشرة درجة والقمح أكثر غلات المعرة . وأشجار التين والزيتون والفستق والعنب كثيرة وفيرة ، وماء المدينة من الأمطار ، ومن بئر فيها .) [٢]

نستنتج من هذا النص نتيجتين هامتين: الأولى أن أهل المعرة كانوا يعتقدون فى الخرافات والطلسمات، إذ كانوا يحتمون من هجوم العقارب عليهم بهذه الاسطوانة الحجرية ، والثانية أن المعرة كانت ذات موارد طبيعية غنية من ناحية إنتاجها الزراعى ، وما نتج عن ذلك من عمران لأسواقها وكثرة مبانيها واتساعها ، ووفرة الماء من بئرها والأمطار التى تسقط عليها .

---

(١) هو أبو معين ناصر بن خسرو بن حارث ، شاعر فارسى ولد سنة ٣٩٤ هـ بمدينة قباذيان من أعمال بلخ ، ويلقبه المؤرخون بالعلوى ، يعنون أنه شيعى ، وكان أبوه من ذوى اليسار ، فتعلم العلوم ، وكان أول أمره لاهيا ، ثم ترك اللهو الى الجد ، وعزم على الرحلة الى مكة ومصر وغيرهما ، وتكلم فى رحلته على أحوال الممالك الاسلامية التى زارها . وكان يعمل على نشر المذهب الشيعى فى بلاده ولكن السلاجقة اضطهدوه فترك بلخ الى يومابان ، وأخذ يعمل على نشر مذهبه ، وله ديوان طبع فى طهران سنة ١٩٢٨ وأهم كتبه « سفرنامة » . ومن المحتمل أنه وقع فى أيدى أهل السنة فحرفوا فيه . أنظر دائرة المعارف الاسلامية ـ النسخة الانجليزية (تعريف القدماء ص ٤٦١).

(٢) تعريف القدماء ص ٥٨١ ، ٥٨٢ .

وأغلب الظن أن ناصر خسرو الداعية الشيعي القادم من هضبة ايران الفقيرة القاحلة كان يرى في معرة النعمان الخصوبة والثراء إذا قارن بين طبيعتها وطبيعة بلاده . وقد قام ناصر خسرو العلوى بزيارتها في حياة أبي العلاء سنة ٤٣٨ هـ [١]. ولا شك عندى أنه يقارن بين البيئتين فيجد بونا شاسعا بينهما .

ويتفق الرحالة ابن جبير [٢] (٥٤٠ هـ - ٦١٤ هـ) مع ناصر خسرو في ثراء المعرة « وهى من أخصب بلاد الله وأكثرها ارزاقا » [٣] .

ويهتم ياقوت في معجم البلدان (٥٧٤ - ٦٢٦ هـ) ببيان المعنى اللغوى لكلمة « معرة » فيقول : قال ابن الاعرابى : المعرة : الشدة ، والمعرة : كوكب في السماء دون المجرة ، والمعرة : الدية ، والمعرة : قتال الجيش دون إذن الأمير ، والمعرة : تلون الوجه من الغضب . وقال ابن هانئ : المعرة في الآية [٤] أى جناية كجناية العر ، وهو الجرب ، وقال محمد بن اسحاق : المعرة العزم [٥].

والمعنى اللفظى لكلمة «معرة» يعطى ظلالا قاتمة لهذه البلدة على خلاف ماقيل عن غناها وثرواتها ، وما أورده ياقوت نفسه في وصف معرة النعمان بأنها «مدينة كبيرة قديمة مشهوره ، من أعمال حمص ، بين حلب وحماة ، ماؤهم من الآبار ، وعندهم الزيتون الكثير والتين » [٦].

---

(١) عبد العزيز الميمنى الراجكوتى : ابو العلاء وما اليه ص ١٥ .

(٢) هو أبو الحسين محمد بن احمد بن جبير الكنانى اندلسى شاطبى بلنسى ، مولده ببلنسية ، وكان فقيها محدثا صاحب مشاركة (تعريف القدماء ص ٥٨٣) .

(٣) تعريف القدماء ص ٥٨٣ .

(٤) يشير الى قوله تعالى : (فتصيبكم منهم معرة بغير علم) من الآية ٢٥ في سورة الفتح .

(٥) تعريف القدماء ص ٥٨٤ .

(٦) التعريف ص ٥٨٥ .

ويعطى ابن العديم فى كتابة بغية الطلب صورة واضحة للمعرة وأهلها، وما كان فيها من خير عميم كثير ، فيقول :

« فوصلت معرة النعمان فوجدتها واسعة الأسواق ، كثيرة الأرفاق ، صحيحة الهواء واسعة الفضاء ، مياهها غزيرة ، وفواكهها كثيرة ، وأهليها يميلون الى الخير والتعفف ويعيشون بالقناعة والتعفف ، وفيهم بعض الحمية ، وشىء من العصبية ، ولهم مع هذا معرفة بالشر والخصومة ، وعادة السعاية والنميمية ، غير أن ذلك فيما بينهم لايتعداهم ، ولا يتجاوزهم إلى أحد سواهم »[1]

غير أن أبا العلاء يختلف فى وصفه المعرة إختلافا بيناعن هؤلاء الذين وصفوها بالثراء ، ووفرة الارزاق ، وكثرة المياه فيقول : وهو فى قوله أكثر قدرة على التعبير الصحيح عن أحوال معرة النعمان التى أجمل صفاتها فى قوله :

« وهذه جمل من صفة المعرة هى ضد ماقال الله عز وجل مثل الجنة التى وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن الآية اسمها طيره . وعند الله ترجى الخيرة . المورد بها محتبس . وظاهر ترابها فى الصيف يبس . ليس لها ماء جار . ولاتغرس بها غرائب الأشجار . وإذا أبرز لأهلها ذبح . يؤمل به لديهم الربح . تحسبه صبغ بخطر . فكأنما يرمق به هلال الفطر . وقد يجيئها وقت يكون فيها جدى المعز فى العزة كجدى الفرقد . ومثل حمل الكواكب حمل النقد . ويبكر فقيرها على الهداية . قبل أبى الفرخين بن داية حتى يقف ببائع الرسل فكأنما وقف برضوان يستوهبه ماء الحيوان . فان سبقه ضياء الفجر فانه يرجع خائبا . ولايجد سهمه صائبا . فما الظن بمحله لاتسمح بدر المنحزاب . لو نزلها ابن حنزابه لما قدر على الحنزاب ، نابت طاب بجاجه . وهاتف نشر دواجه . أما النابت فاذا نبذ عند غيرنا بالعبر . حسب هاهنا سبائك التبر . وأما الصائح فاذا طلب لعليل عدم كعدم الخليل . وترائك المنقضات كنفائس الدر المعترضات[2].

---

(١) تعريف القدماء ص ٥٨٩ ، ٥٩٠ .

(٢) رسائل «ابو العلاء» ط مرجوليوث ص ٥٥ .

والمعرى يصف بلدته بأنها فقيرة النبت،قليلة الزرع والماء ، ذات رزق قليل، وأهلها فقراء لايجدون الذبيحة ، قد يبكر الواحد منهم فى التماس الرزق فيعود صفر اليدين خائب الرجاء ، فهى محلة فقيرة قد استحكمت فيها الأزمة الاقتصادية فشملت كل مرافق حياتها .

ووصف المعرى البيئة يختلف كثيرا عن وصف ناصر خسرو لها ولعل ذلك يرجع إلى بيئة صاحب سفر نامة الفقيرة الجرداء هذا بالاضافة الى الظروف السيئة التى كانت تحيط ببلاد الشام جملة .

وربما كانت الهزات السياسية التى تعرضت لها المعرة سببا فى قلة الموارد،وفقر الأهالى ، إذ أن الجيوش المتناحرة اكتسحتها مرات عديدة ، وخربت عمارتها ، وأحرقت زراعتها ، وقتلت أهلها .

فالمعرة لم تسلم من عبث القرامطة وتدميرهم لها وإذا تتبعنا المراحل التاريخية قبل عصر أبى العلاء ، وذهبنا إلى القرن الثالث وأوائل الرابع لوجدنا هجمات متتالية من القرامطة على المعرة .

(وفى سنة ٢٩٠ اشتدت شوكة القرامطة فهزموا جيش طغج امير دمشق وكان قائدهم أحمد ففتح حمص وحماة وتسمى بالمهدى أمير المؤمنين ، وعهد إلى ابن عمه عبد الله ولقبه المدثر ، وزعم أنه المدثر الذى فى القرآن، وأخذ أهل حمص وحماة يخطبون له على المنابر ، ثم سار إلى معرة النعمان ، وقتل أهلها حتى الاطفال والنساء ، ولما اشتد أمر القرمطى (صاحب الشامة أحمد) خرج المكتفى من بغداد ونزل الرقة وأرسل اليه الجيوش : قال ابن المهذب المعرى : أن القرمطى قتل بمعرة النعمان بضعة عشر ألفا وأقام بها ينهب ويحرق ويقتل مدة خمسة عشر يوما[1]).

---

(١) معرة النعمان فى غابرها وحاضرها : خالد حبكة الحراكى ص ٩ .

ولم تسلم أيضا من عبث الروم بها ، وهدمهم لبناياتها وتخريبهم لمساجدها ودورها .

(وفى سنة ٣٣٣ هـ تقدم اخشيد حاكم مصر لمحاربة سيف الدولة حتى وصل إلى المعرة فأخذها . وفى سنة ٣٥٧ استولى نقفور ملك الروم على المعرة وخرب جامعها الذى كان له محراب بنى من الرخام والفصوص والجص فى عام ٣٣٣ هـ [١]) .

ويدل خبر تادرس النصرانى على مدى الظلم والحيف والبطش الذى تعرض له أهل معرة النعمان وضواحيها ، يقول ابن العديم عن هذه الحادثة :

(وكان وزير صالح [٢] تادرس بن الحسن النصرانى، فأخذ فى الوقعة وصلب وكان هذا النصرانى متمكنا عند صالح ، وكان صاحب السيف والقلم).

وقيل : إنه كان يترجل له ـ لعنة الله ـ الولاة والقضاة ، فمن دونهم إلا القاضى أبا يعلى عبد المنعم بن عبد الكريم بن سنان قاضى حلب ، والشيخ أبا الحسن المهذب بن على بن المهذب فإنه أراد أن يترجل له فحلف أن لا يفعل .

وقيل : إن أهل حاس ـ قرية بمعرة النعمان ـ قتلوا حماء، وكان يقال له الخورى وكان من أهل تلمنس ، لأذيته لهم ، فحين سمع تادرس بقتل حميه الخورى ، خرج فى عسكر حلب ، وطلب أهل حاس فى الجبال والضياع وهرب القاتلون إلى افاميه ، فلحقهم فسلمهم اليه واليها . فكتب إلى صالح يستأذنه فى قتلهم ، فأذن له فقتلهم ، وصلبهم ، فلما أنزلوا عن الخشب ليصلى عليهم ويدفنوا صلى عليهم خلق عظيم .. »[٣] .

---

(١) معرة النعمان فى غابرها وحاضرها : خالد حبكة الحراكى ص ١٠ .

(٢) صالح بن مرداس مؤسس الدولة المرداسية فى حلب .

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب من تاريخ حلب ص ٢٣٢ .

نستخلص من هذا النص أن المعرة وضواحيها تعرضت لعسف النصارى من وزراء صالح بن مرداس ، وكان تاذرس النصرانى يتمتع بنفوذ قوى يفرضه على رجال الدولة وقضاتها ، ويستطيع بما أوتى من سيطرة أن يبطش بالكثيرين لأنهم اتهموا بقتل حميه دون اجراء تحقيق لمعرفة القاتل وعقابه .

إن الظروف المادية لمعرة النعمان ، وضيق مواردها ، وقلة رزقها وعسف الحكام بها كانت من أهم الأسباب التى دفعت أبا العلاء للهجرة إلى بغداد بحثا عن الرزق الوفير ، والعلم الغزير .

فقد كانت بغداد حاضرة الاسلام وداره منذ انشئت . يقصدها العلماء ليستزيدوا علما .

والطلاب لينهلوا من مكتباتها وشيوخها ، ليعودوا بعد الرحلة إلى عواصم الامبراطورية الاسلامية العربية حاملين بين ظهرانيهم أصداء ماتعلموه من دار السلام :

« وكان لفظ مدينة السلام إذ أطلق مثل فى نفوس الناس صورا مختلفة هى المثل العليا للرقى عندهم ، فهو يمثل فى نفس التاجر أرقى مدن التجارة ثروة ، وأحسنها نظاما وأكثرها امنا ، وفى نفس العالم أرقى مدن العلم درسا ، وأكثرها عدد علماء نابهين وأوفرها كتبا » .

وأبو العلاء المعرى فى الخامسة والثلاثين من عمره يرنو إلى هذه الحاضرة بقلبه ومشاعره ، يود الرحيل اليها ليلتقى بأمنيتين عزيزتين هما : الرزق الموفور الذى يكفل له الأمان من غوائل الدهر . والعلم المخزون الذى يعده بزاده الذهبى ليفيد ويستفيد .

وعندما كان القرن الرابع الهجرى يوشك على النهاية (٣٩٨ هـ) ودع أبو العلاء المعرة ، وفى صدره يزهو الأمل بلقاء بغداد وأهلها ، ويعتد بنفسه اعتدادا قويا . ويحث ناقته على الاسراع إلى بغداد .

يا ناق جدى فقد أفنت أناتك بى ... صبرى وعمرى وأحلامى وأنساعى

ويصف اندفاع القافلة وصفا يبين عن هذه النفس التى ترقب الوصول إلى غايتها بلهفه وشوق:

سارت فزارت بنا الأنبار سالمة ... تزجى وتدفع فى موج ودفاع

وهو فى هجرته تلك يبحث عن الرجال ، والرجولة عند المعرى تعنى مزيجا من الكرم وحسن العشرة ، وإيواء الغريب :

وبالعراق رجال قربهم شرف ... هاجرت فى حبهم رهطى وأشياعى

على سنين تقضت عنـــد غيرهم ... أسفت لا بل على الأيام والساع

وهنا نتساءل عن الدوافع التى أدت بالمعرى إلى اختيار العراق بالذات لهذه الهجرة فالأسباب الظاهرة التى يتناولها الدارسون له تركز على سببين رئيسيين هما: المال والعلم ذلك لأن حياته بالمعرة كانت قلقة ، بسبب ضيق ذات اليـــد ، وانقطاع رزقه.

(ويظهر لنا أن حياة أبى العلاء فى المعرة لم تكن مترفة على الرغم من وجاهة أهله وثروة أبيه وثروة أمه ، اذ أن تينك الثروتين كانتا فى طريق النفاد . وظل عبء الحياة على عاتق أبى العلاء خفيفا حتى توفى أبوه ، فألحت عليه حينئذ الحـــاجة .) (١)

فقد ضاقت المعرة بساكنيها . وسارع الهزال إلى جسوم ابنائها ، وافتقروا إلى النعال فساروا حفاة ، وهم فى هذا الصقع كأسنان المسارح ، فقد أدمى الخف وطء القف وذهب الحارب بذى الغارب ، (٢) .

---

(١) د. عمر فروخ : حكيم المعرة ص ١٦ .
(٢) رسائل المعرى : ط اكسفورد ص ١٠ .

ويصف أبو العلا ما حل بأهل المعرة فى رسالته إلى أبي القاسم المغربى المسماة « رسالة المنيح » من طغيان فى ضلالهم حتى دب اليأس فى نفوس المصلحين ، وحتى أن الفصيح يصمت من هول ما يرى ، فيقول :

« وقد نزلت بهم خلة من خلال الأشقياء والكفار ، وانما غرقوا فى لج التبانة فصمتوا ، وسمعوا صواعق الابانة فخفتوا ، فقلم كاتبهم عود الناكت ، وجواب بليغهم حيرة الساكت » (١) .

وان ظاهرة الحنين إلى العراق التى تغلب على شعره بعد عودته منها تدل على قسوة الحياة فى المعرة وذلك فى قوله .

ألم يأتكم أنى تفردت بعدكم   عن الانس من يشرب من العد ينقع
نعم حبذ اقيظ العراق وإن غدا   يبث جماراً فى مقيل ومضجع
أخف لذكراء واحفظ غيبه   وأنهض فعل الناسك المتخشع
لقد نصحتنى فى المقام بأرضكم   رجال ولكن رب نصح مضيع

ونلمح فى البيت الاخير ندمه على مفارقه العراق ، ورجوعه إلى المعرة رغم قيظ العراق وما لاقاه فيها من عنت ومشقة ، ويظهر هذا الندم أيضا فى رسالته إلى عبد السلام البصرى التى يقول فيها (٢) .

« ومستقرى معرة النعمان ، والفتنة عندنا صماء ، طعان بالمران ورماء ، انما يجىء الصيف ، وقد سل السيف ، ولو قدرت لم أمدح إلا بمرخ ، ولاسكنت بلدا غير الكرخ ، ولكن تضوى معقول ، فرحم الله لبيدا حيث يقول :

لما رأى لبد النسور تطايرت   رفع القوادم كالفقير الاعزل

(١) رسائل المعرى : ط اكسفورد ص ١٠ .
(٢) رسائل المعرى : « ص ٤٧ .

فهو يشكو من كثرة الاضطرابات التي تقلق باله ، وتشل تفكيره ، وتجعله يأنس إلى العزلة ويفضلها ، وينقطع رهين المحبسين ، يرى فى عزلته منجاة من هذا الشر المسيطر الذى حاق بالمعرة وأهلها .

ويرد الذهبى أسباب رحيل المعرى عن معرة النعمان إلى ظلم لحق به من صاحب حلب الذى جار على وقف صغير له كان يقتات منه ، فذهب إلى بغداد شاكيا ، فى وقت كانت الخلافة العباسية فيه لا تملك حق التصرف فى حدود قصر الخلافة ! يقول الذهبى [١] واصفا حياة أبى العلاء فى المعرة

« وكان أكله العدس ، وحلاوته التين ، ولباسه القطن ، وفراشه لبادا ، وحصيره برديه » [٢] . ثم يقول فى سبب رحلته البغدادية :

« واتفق أنه عورض فى الوقف المذكور من جهة أمير حلب فسافر إلى بغداد متظلما منه ، فى سنة تسع وتسعين وثلاثمائة » [٣] وهذه الشكاية يشك فى أمرها مرجوليوث [٤] والدكتور طه حسين الذى يرى أن ضيق الحياة فى المعرة ، وحبه للشهرة هما اللذان دفعاه إلى طلب النجعة والارتزاق الأدبى والمادى فى بغداد .

« والظاهر أن هذه الحياة التى احتملها أبو العلاء فى المعرة ، قد ثقلت عليه قلبا ، ورأى أنها لا تصلح له ، وأن نفسه لا تستطيع أن تطمئن إلى عيش ملوّه

---

(١) هو أبو عبدالله شمس الدين محمد بن عثمان بن قايماز التركمانى ، له تصانيف كثيرة نافعة منها « تذكرة الحفاظ » « وميزان الاعتدال » « والمشتبه » وغيرها . وللذهبى أيضا كتاب مختصر فى التاريخ يسمى «دول الاسلام» طبع فى الهند سنة ١٣٣٧ فى مجلدين وكان من كبار المحدثين سمع بدمشق وبعلبك وحمص وحماة وحلب وطرابلس ونابلس والرملة وبلبيس والقاهرة والاسكندرية والحجاز والقدس . وقد أضر قبل موته بأربع سنين أو أكثر (تعريف القدماء ـ ص ١٨٩) .

(٢) تعريف القدماء ص ١٩٠ .

(٣) المصدر السابق ص ١٩٠ .

(٤) Margoliouth—Biography of Abul Ala P. 20 ed. Oxford.

الخمول وقلة العمل ، وأن المعرة لا تحتوى من العلم على ما يحتاج اليه ، وكذلك مدن الشام ، وأن بغداد هى دار العلم وموطن الأدب والفلسفة »[١] .

وترجع دائرة المعارف الاسلامية هذه الرحلة إلى أسباب مجهولة . غير أنها تقع فى التناقض حين تعللها بضيق الحياة الريفية ونزوع الشاعر إلى حياة المدينة التى تحتضن مواهبه الشابة .

« وظل أبو العلاء فى المعرة إلى عام ٤٠١ ﻫ (١٠١٠م) حتى رغب — لاسباب مجهولة — أن يعيش فى بغداد . وليس من العجيب إذا أن يشعر فى شبابه بقيود الحياة الريفية وينزع إلى ميدان أوسع تقدر فيه مواهبه »[٢] .

وتذهب الدكتورة عائشة عبد الرحمن بعيدا فترجع أسباب هذه الرحلة إلى رغبة كامنة فى الشاعر لاثبات شخصيته ، وفرض عبقريته على المجتمع :

« خرج يؤيد نضاله على الدنيا وانتصاره عليها . خرج يعلن الناس بمكانه ويفرض نفسه عليهم ، ويدفعهم إلى الاعتراف به ويعرض طبيعته الممتازة وذكاءه النادر ، ليثبت أن الأيام لم تهزمه ، وأن محنته لا تحول دون تفوقه وامتيازه »[٣] .

وهذا التعليل تمحل لا لزوم له ، وأقرب التعليلات هو ما كان قريبا من النفس البشرية مواكبا لمطالبها الذاتية والمعاشية . وقد كانت المعرة كما بينا قرية صغيرة قليلة الزرع والنبت ضيقة الرزق ، تبخل على بنيها بالحياة الرغدة السعيدة ، وكان من الطبيعى أن تكون بهذا الوصف بيئة طاردة لبنيها ، يهاجرون منها بحثا عن الرزق الحلال ، وقد كان أبناء الشام — ولا يزالون حتى الآن — يحبون الهجرة والسعى وراء الرزق .

---

(١) الدكتور طه حسين : تجديد ذكرى أبى العلاء ص ١٢٩ .

(٢) نيكلسون : دائرة المعارف الاسلامية (مادة — أبو العلاء) ص ٣٨٠ — ١ .

(٣) د. عائشة عبد الرحمن : الحياة الانسانية عند أبى العلاء ص ٥٠ .

ولايثنينا فى هذا التعليل مايقوله أبو العلاء نفسه عن أسباب رحلته وعن نفى ذهابه إلى بغداد بهدف البحث عن الحياة المادية الكريمة ، اذا أنه بطبيعته أبى النفس ، وقد فهم خطأ أن السعى وراء الرزق ينـــال من كبريائه ، ويغض من مقامه أمام الناس ، ولذلك يقول :

وأحلف ماسافرت أستكثر من النشب . ولا أتكثر بلقاء الرجال .. (١)

وحاشا لله أن يكون أبو العلاء كاذبا فى هذا الحلف . ولكنى أقف أمـــام تفسيره لاسباب عودته من بغداد :

(وكنت ظننت أن الأيام تسمح لى بالاقامة هناك فإذا الضاربة أحجأ بعراقها (٢). والامة أبخل بضربتها . والعبد أشح بكراعة (٣) والغراب اضن بتمرته . ووجدت العلم ببغداد أكثر من الحصى عند جمرة العقبة وأرخص من الصيحانى بالجابرة وأمكن من الماء بخضارة . وأقرب من الجريد (٤) باليمامة . ولكن على كل خير مانع . ودون كل درة خرساء (٥) موحيه أو خضراء طامية .)(٦)

ويثبت هذا النص أن ضيق الحياة المادية فى بغداد هو الذى دفعه إلى كراهة الاقامة فيها بعد أن كان تخيله لرفاهه حياتها سببا دفعة إلى قصدها سلفا .

---

(١) رسائل أبى العلاء ص ٣٤ ، ٣٥ ط مرجوليوث .

(٢) الضاربة من الحيوانات كالأسد والذئب . وأحجأ أشدولها وتمسكا . وعراقها اللحم والعظم اللذان يتبقيان من فريستها .

(٣) والكراع مستدق الساق والعبارة مأخوذة من المثل أعطى العبد كراعا فطلب ذراعا .

(٤) الجريدة ـ ط مرجوليوث ص ٣٠ .

(٥) الخرساء : سحابة ليس فيها رعد ولا برق وهى تنم من التقاط الدر الموحية : المعجلة ـ الخضراء : اللجة ـ والطامية : المرتفعة .

(٦) رسائل أبى العلاء : ط شاهين عطية ص ٧٣ ، ٧٤ . ط مرجوليوث ص ٣٠ .

ولعل هذا هو مادفع الدكتورة عائشة عبد الرحمن إلى أن تراجع نفسها فى هذه المسألة وتعود إلى القول بأن أبا العــــلاء كان يبغى الوصول إلى المال لا كغاية ولـكن كوسيلة إلى غاية أكبر وأسمى :

ونحن لانبرىء أبا العلاء من الرغبة فى سعة العيش ، وإن كنا نصدقه فى قوله أنه لم يسافر استكثارا من النشب ، فليس ببعيد أن يكون قد رغب فى الثروة ولكن الثروة لم تكن غايته بل كانت وسيلته إلى غاية أخرى كان يرجوها فى بغداد..(١)

وليس يكفى هذا التعليل ليبرر أسباب الرحلة ، وأنها كانت سعيا وراء هدف خفى يقصد اليه الشاعر ، فما هو هذا الهدف الخفى ؟

نحن نعرف أن أبا العلاء لم يكن يجرى وراء تحقيق طموحه فى أمارة يملكها أو دعوة يعمل على نشرها كما كان يهدف استاذه أبو الطيب المتنبى الذى كان يرى المجد والمال صنوين لا يفترقان. (٢)

فلا مجد فى الدنيا لمن قل ماله ولا مـــال فى الدنيا لمن قل مجده

وما عهدنا أبا العلاء إلا زاهدا فى ملاذ العيش ، قانعا بزهادته عن التطلع نحو ترفها ، مكتفيا بثلاثين دينارا تأتيه يعيش منها هو وخادمه عيش الكفاف، ولم يكن يقول مثلما قال المتنبى : (٣)

وفى الناس من يرضى بميسور عيشه ومركوبه رجلاه والثوب جلده
ولـكن قلبـا بين جنبى مالـه مدى ينتهى بى فى مراد أحـده

اذا فأين هو الغرض الخفى الذى يسعى وراءه أبو العلاء ؟ وماذا كان يريد حين ترك المعرة قاصدا بغداد ؟ أن ما أسميته رحلة القلق لابى العلاء (٤). لا يكفى أن يكون سببا أيضا لتعليل خروج أبى العلاء من المعرة . وأغلب ظنى أن بيئة المعرة

(١) د. عائشة عبد الرحمن : الحياة الانسانية ص ٤٩.

(٢) ديوان المتنبى بشرح العكبرى جـ ٢ ص ٢٢ .

(٣) نفس المصدر السابق.

(٤) مقال لكاتب الرسالة فى مجلة الاقلام عدد ابريل سنة ١٩٦٩ بغداد.

الفقيرة كانت السبب المباشر لرحلته تلك . ولا يعني هـذا أن بغيته كانت التماس النشب في بغداد وإنما يعني أن فقر البيئة دعاه الى الرحلة الى بغداد حيث يوجد رجال العلم والدين والشعر ، وتسلط الاضواء عليهم نظرا لمكانة دار السلام في نفوس المسلمين منذحملت لواء النهضة الاسلامية، وشهدت ازدهار الشعر والاداب والعلوم ، وكان أبو العلاء يحدث نفسه منذ عهد الشباب الباكر في زيارتها :

كلفنـا بالعراق ونحن شرخ ... فلم نلمم به الا شيوخا

ولـكن الحياة كانت تؤخر تحقيق آماله دائما . فلم يستطع الذهاب الى بغداد الا بعدتوديعه لسن الفتوة النضرة . وكما اتفقت معظم الـكتب التي تحدثت عن معرة النعمان (١) على فقرها وضيق رزقها فانى اتفق معها في أنها لم تتح اقامة رخية لهذا الشاعر العبقرى .

ثانيا : سوء توزيع الثروة :

شهد القرنان الرابع والخامس الهجريان خللا اجتماعيا واضحا يتمثل في سوء توزيع الثروة بين عباد الله ، واستئثار الخلفاء وأمراء الجيوش بالضياع والثروات الطائلة، ينفقونها على امائهم وعبيدهم وخمورهم وزينتهم، ويضنون بالفلس الواحد على المشروعات العمرانية، او تقوية الجيوش وتسليحها. ويفصل الاستاذ الدكتور شوقي ضيف هذه المأساة قائلا .

« ونمضى الى القرن الرابع فيصل الاختلال الاجتماعي والسياسي أقصاه، وتقوم ثورات القرامطة والعراق ، وتنتشر الفتن في كل مكان ، وتسوء حياة الناس سوءا شديدا، فقد اضطرب حبل الأمن اضطرابا لم تشهده قبل ذلك البلاد العربية ، بل انها لم تعرف عصرا من عصورها الماضية يشبه هذا العصر وماساد فيه من فساد ،

---

(١) سفر نامة لناصر خسرو ـ معجم البلدان لياقوت ـ بغية الطلب لابن العديم ـ آثار البلاد واخبار العباد للقزويني ـ تحفة النظار لابن بطوطه ـ تاج العروس للزبيـــدى (تعريف القدماء ـ من ص ٥٨١ ـ ٥٩٩).

أشبه اللهب فهو يأتى على كل شىء فى الحياة ، ولايبقى ولايذر [١].

وكانت الدولة الاسلامية المفككة تعتمد فى دخلها على الضرائب التى تفرض على زراع الأرض . ورغم أن حياة المدن كانت رغدة إلا انها كانت تعتمد فى رفاهتها على استنزاف دماء طبقة الزراع الفقراء .

وكانت ضرائب الأطيان [٢] أساس داخل الخلافة رغم ازدهار حياة المدن لأن الشريعة الاسلامية والأفكار العامة تعارض أخذ الضرائب عن التجارة والصناعة ، ورغم ذلك كانت هذه الضرائب تؤخذ من كل الجهات [٣] فلم تقتصر الدولة على الضرائب التى تحصلها من الأرض الزراعية ، بل اتجهت إلى فرض الضرائب الباهظة أيضا على القوافل التجارية التى تقوم بنقل تجارة الهند إلى الغرب ، وكذلك اثقلت كاهل أصحاب الحرف الصغيرة بكافة الوان الضرائب الباهظة . ولم يقتصر الأمر على ذلك بل أن النظام الاقطاعى تضخم إلى درجة كبيرة ، وكان الخلفاء وكبار الأمراء والولاة يقطعون الاقطاعات الشاسعة إلى مواليهم واجنادهم . يقول بارتولد : [٤]

وأما العبودية المرتبطة بالارض (القن) فلعلها لم توجد فى مملكة من الممالك الاسلامية ، فانه لم يكن أحد يمنع المزارعين من ترك أراضيهم كما أن أصحاب الاطيان كانوا يستطيعون أن يأخذوا أطيانهم من مزارع ليأجروها مزارعا آخر يدفع أجراً أكثر ، ولكن . نظام اقطاع الأرض مكافأة أوهبة قد تزايدفى البلاد الاسلامية وانتشر كثيرا إلا انها لم تكن تقطع هى والذين يعيشون عليها كما كان فى أوروبا فى القرون الوسطى ، وفى روسيا فى القرن التاسع عشر بل كانت تقطع وحدها .

---

(١) د. شوقى ضيف : دراسات فى الشعر العربى المعاصر ص ١٠٧ ، ١٠٨ .

(٢) هكذا عند بارتولد ويقصد الضرائب التى تحصل على الأراضى الزراعية .

(٣) ف. بارتولد : تاريخ الحضارة الاسلامية ص ٥٣ ترجمة حمزة طاهر .

(٤) المصدر السابق .

ويبدو أن بارتولد يغبط المزارعين المسلمين والعرب على أن الاقطاع لم يشمل نفوسهم أيضا ، بعد أن شمل أراضيهم . واذا كان الحكام لم يصدروا امرا رسميا باعتبار اولئك الرعاع أقنان الأرض التى يعملون فيها فذلك لأن الدين الاسلامى الحنيف يحمى أبناءه من العبودية والرق ولكن الزراع كانوا يقاسون الأمرين من الامراء الذين ينعمون بناتج عرق أولئك الرعيل من البؤساء .

وقد بالغ الحكام أحيانا فى اضطهاد طبقة الزراع، واضطروا صغارهم إلى بيع أراضيهم بأرخص الاثمان ، ولم يرعو بعض السادة عن قطع الاشجار الخضراء التى رواها الفلاحون بعرقهم وأحلامهم فهاهو ذا الامير العظيم سيف الدولة الحمدانى الذى لعب دورا عظيما فى حماية الامبراطورية الاسلامية من الغزو البيزنطى يقلع جميع الاشجار الجميلة التى كانت تحيط بحلب :

« ومما نشأ عن طبيعتهم البدوية انهم كانوا لا يبالون بالشجر، ففى سنة ٣٣٣هـ — ٩٤٤ م أغلقت مدينة حلب أبوابها فى وجه عسكر سيف الدولة ، فاقتلعوا كل الاشجار الجميلة المحيطة بالمدينة .. »(١) .

وكان الحمدانيون برغم مالعبوه من دور حضارى وثقافى وحربى ذوى نزعة استبدادية ربما ترجع إلى طبيعتهم البدوية الجافة ، أو إلى رغبتهم فى امتلاك الثروات الطائلة من أجل تدعيم جيوشهم المحاربة وتوفير القوت والزراعة واللحوم والسلاح لها . ومن أجل ذلك — فى أغلب ظنى — اتجهوا نحو شراء الاراضى الزراعية الواسعة بأرخص الاثمان ، واجبار المزارعين على الهجرة من أراضيهم ، واقتلاع اشجار الفاكهة والبساتين ليزرعوا بدلا عنها الحبوب والقطن والارز وهى لازمة لتغذية الجيوش وكسائها . ويقول آدم متز فى هذا الشأن(٢) .

«وقد اغتصب الحمدانيون أكثر أرض العراق ، واشتروا منها القليل بسهم من

---

(١) آدم متز : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى جـ١ ص ١٨١ .

(٢) نفس المصدر السابق .

اعشار ثمنها حتى صارت الموصل وأكثر اعمالها ملكا لناصر الدولة . وكان يضايق أصحاب الارض حتى يلجئهم إلى البيع بأوكس الاثمان ، وطالت حياته ، وأمتدت أيامه حتى استولى على الناحية ملكا وملكا، وقد اكتسح الحمدانيون أشجار الفاكهة والبساتين ، وجعلوا مكانها الغلات والحبوب مثل القطن والارز والسمسم وجلا كثير من أهل هذه البلاد ، وكان ممن جلا بنوحبيب وهم بنوعم بني حمدان فقد خرجوا بذراريهم ومواشيهم فى اثنى عشر ألف فارس إلى بلاد الروم «فاذا كان شأن الاقوياء ، يجلون عن بلادهم بأبنائهم وثرواتهم ويذهبون للعيش فى بلاد النصارى، فما بالنا بأولئك الضعفاء الذين لايملكون من أمرهم شيئا ، لاشك أن طبقة المزارعين الضعاف الصغار أصبحوا مثل الارقاء وان لم يكونوا من الافنان، فها هى ذى أراضيهم تصادر بدون ثمن أو تصادر بثمن بخس ، وهاهى ذى أشجار الفاكهة والبساتين تقتلع من جذورها الامر الذى ولد فى النفوس ضغينة على الدولة حتى أصبح أبناؤها عونا للعدو عليها . فها هم أولاء بنوحبيب يفرون إلى بلاد الروم ، ولم يشفع لهم كونهم ابناء عمومة بنى حمدان وأصبحوا عونا للروم على العرب ، يشنون الغارة تلو الغارة على الثغور الاسلامية .

« ثم عادوا إلى بلاد الاسلام على بصيرة بفسادها ، وعلم بطرقها ، وقلوبهم تضطرم حقدا ، وتفور كيدا ، فشنوا عليها الغارة سلبا ونهبا ، وصارت لهم بذلك عادة (١).

ويرى آدلم متزأن الحمدانيين — باستثناء رأسهم سيف الدولة — كانوا أسوأ حكام القرن الرابع الهجرى ، وأن الترك والفرس كانوا أرفق منهم برعيتهم .

وهؤلاء الامراء الذين لم يظهر من بينهم بالاعمال العظيمة والفروسية إلاسيف الدولة صاحب حلب ، جاروا على الرعية جورا عظيما ، وهو مايفعله أهل البادية الذين لايعملون ولا يحسون لشىء تعهدا . وكانوا أسوأ جميع حكام القرن الرابع،

(١) آدم متز ، الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع جـ ١ ص ١٨١ .

والترك والفرس الذين حكموا فى هذا القرن هم جميعا كالاباء لرعيتهم اذا قورنوا بالحمدانيين (١).

وينبغى لنا الاحتراز فى هذا الحكم العام ، ليست طبيعة البدو انهم لا يعلمون ولا يحسنون لشىء تعهدا وهذا هو سيف الدولة — باعتراف متز — كان فارسا عظيما ذا أعمال ممتازة ،فليست البداوة عنصرا مشجعا على الطغيان ، وقد يكون الطاغية غارقا فى حضارة المدينة وترفها ولم يعرف عن البداوة إلا اسمها .

انما هى ظروف العصر التى أتاحت لكل ذى قوة ، ضعيف الاسلام، الجور على أخيه المسلم وحرمانه من قوت يومه وتضييق أبواب الرزق فى وجهه .

فهاهى ذى الضرائب المختلفة تفرض على التجار وأصحاب المراكب فى الشام :

أما فى الشام فكانت ضرائب البضائع هينة ، ولكن كان فى بيت المقدس ضرائب ثقال على الرحبة ، فلم يكن يجوز لأحد أن يبيع شيئا مما يرتفق به الناس إلا بها ، وثم رجال على أبوابها وآخرون على ما يباع فيها . وكان من الضرائب التى اختص بها هذا الاقليم ضرائب الحماية على من يكون عنده مركب مثلا ،وكان الذى يأتى من ذلك يعادل ما يأتى من خراج الأرض (٢)

وتعددت الضرائب واختلفت مسمياتها ، وكان الهدف من ذلك اقتناص أكبر قدر ممكن من المال، ولم يكن هناك نظام ثابت لجباية هذه الأموال الطائلة ، بل خضعت لارادة الحاكم وضميره ومدى حبه أو زهادته فى المال .

يقول ابن حوقل فى كلامه عن الشام : فاما خراجاتها وأعشارها ومرافق سلاطينها فكان ذلك على أوقات مختلفة بقوانين متباينة وجبايات ناقصة، وزائدة وذلك انها منذ سنة ثلاثين (٣٣٠ هـ) بين قوم يتطاول احدهم على الآخر وأكثرهم غرضه ما أجتلبه فى يومه وحصله لوقته ، لايرغب فى عمارة ولايلتفت

---

(١) نفس المصدر ج ١ ص ١٨٠ .

(٢) ادم متز : تاريخ الحضارة الاسلامية ج ١ ص ١٧٩ .

اليها برؤية أو اشارة [١] .

وكما أعمل الحكام جهدهم فى جمع المال بشتى الطرق والوسائل المشروعة أو غيرها أعملوا جهدهم أيضا فى حراسة هذا المال وحفظه :

وكان فى بيت المال فى كل من هذين القطرين وهما الشام ومصر يقوم بالمسجد الجامع وهو شبه قبة مرتفعة محمولة على أساطين ، ولبيت المال باب حديد واقفال والصعود اليه على قنطرة من الخشب ، وإذا صليت العشاء الآخرة اخرج الناس كلهم من المسجد ، حتى لايبقى فيه أحد ، ثم اغلقت أبوابه ، وذلك لوجود المال فيه [٢] .

وكان هذا الظلم الاجتماعى الفادح مدعاة لهرب الكثيرين من العبيد الذين يعملون فى الأرض . وفى الاعمال الاخرى . وكانت سائر ولايات الاسلام فى القرن الرابع غاصة بالعبيد الا باق ، وكان من أول مايؤمر به ولاة النواحى أن يقبضوا على العبيد الآبقين ويحبسوهم ويسلموهم لمواليهم إن استطاعوا . . [٣] .

وقد ظلت مشكلة العبيد تؤرق الخلافه الاسلامية منذ وقت مبكر . وكان معظم العبيد الا باق ممن يشتغلون بالزراعة . وكذلك كان جيش الثورة الوحيدة الخطرة التى قام بها العبيد فى القرن الثالث الهجرى مؤلفا من الزنوج الذين يكسحون السباخ ، وكانت كسوح الزنوج معروفة بالبصرة كالجبال ، وكان فى انهار البصرة منهم عشرات الوف يعذبون بهذه الخدمة [٤]

وكان هؤلاء العبيد من أصل غير عربى، لأن العربى لايسترق.

قال أبو عبيد : فهذه أحكام الاسارى : المن ، والفداء ، والقتل.

---

(١) ادم متز نقلا عن ابن حوقل : ص ١٧٩ .

(٢) ادم متز : تاريخ الحضارة الاسلامية جـ ١ ص ١٨٠ .

(٣) نفس المصدر ص ٢٣٦ .

(٤) نفس المصدر ص ٢٣٦ كتاب العيون ص ١٧ .

وكانت هذه فى العرب خاصة . لانه لارق على رجالهم . وبذلك مضت سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . أنه لم يسترق أحدا من ذكورهم .

وكذلك حكم عمرفيهم أيضا حتى رد سبى أهل الجاهلية وأولاد الاماء منهم أحرارا إلى عشائرهم،على فدية يؤدونها إلى الذين أسلموا وهم فى أيديهم (١).

وهذا يعنى أن جمهورا كبيرا من المسلمين الذين ينتمون إلى أصول غيرعربية كان يعانى من مذلة الرق والعبودية ، وكانوا يمارسون أحط أنواع العمل المرهق ولذلك فقد كان من السهولة بمكان استمالتهم إلى الدعوات المتطرفة والثائرة وكانت ثورة الزنج كما كانت ثورة القرامطة أيضا تعتمدان على أولئك العبيد الاباق الذين كانوا يرون فى الالتفاف حول داعية يمنيهم بالمساواة وتوزيع الثروة بالعدل بينهم خلاصا لهم من ذلك الظلم الاجتماعى الفادح .

وأغلب ظنى أن عبيد الأرض كانوا أشد الناس ثورة على سادتهم لما فى طبيعة عملهم من معاناة وضيق ، كما كان انتشار ظاهرة الاقطاع وامتلاك المساحات الشاسعة من الأرض بعد طرد سكانها وأجبارهم على بيعها بأوكس الأثمان مخالفة صريحة لاهم مبدأ من مبادىء الاسلام الذى قصر اقطاع الارض على الاراضى التى لامالك لها أوالارض الموات التى لايملكها مسلم أو معاهد ، ولم يبح امتلاك الارض الخضراء التى يزرعها اصحابها بالقوة والقهر والاجبار ،يقول ابن سلام :

« ولهذه الاحاديث التى جاءت فى الاقطاع وجوه مختلفة ، الا أن حديث النبى صلى الله عليه وسلم الذى ذكرناه فى (عادى الارض) (٢) عوعندى مفسر لما

(١) أبو عبيد القاسم بن سلام : الاموال ص ١٣٣ .

(٢) حدثنا أحمد بن عثمان المروزى عن عبد الله بن المبارك عن معمر عن ابن طاووس عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (عادى الارض لله ورسوله ، ثم هى لكم) قال قلت : وما يعنى . قال تقطعونها للناس . (عادى الأرض قديمها الذى من عهد عاد : قال الحافظ فى التلخيص (٢٥٦) ويروى « موتان الأرض لله ورسوله ثم هى لكم منى أيها المسلمون » ـ الأموال ص ٢٧٢ هامش .

يصلح فيه الاقطاع من الارضين ، ولما لا يصلح . والعادى كل أرض (كان) لها ساكن فى آباد الدهر ، فانقرضوا فلم يبق منهم أنيس فصار حكمها إلى الامام . وكذلك كل أرض « موات » لم يحيها أحد ولم يملكها مسلم ولا معاهد (١)

وابن سلام (٢) رغم اننا نعد كتابه عن الاموال لا يمثل عصر أبى العلاء، ولكنه يضع الاسس الفقهية والتشريعية للمجتمع الاسلامى منذ تبلورت الدولة وأخذت تقنن لمعاملاتها المالية وعلاقاتها الاجتماعية وهو يعتمد أساسا على مصدرين عظيمين هما القرآن والسنة .

كما كان الخلفاء الراشدون رضى الله عنهم يتحرجون غاية الحرج ، ويخشون الله كل الخشية فى أن يقطعوا أرضا يكون لها مالك ولهذا فقد كان النظام الاقطاعى حدوده وقوانينه الشرعية التى لا يتعداها . ويحدد أبن سلام أرض الاقطاع بقوله: « واياها أراد عمر بكتابه إلى أبى موسى ، (أن لم تكن ارض جزية ولا أرضا يجر اليها ماء جزية . فأقطعها اياه ، فقد بين أن الإقطاع ليس له مالك. فاذا كانت الأرض كذلك فأمرها إلى الأمام . ولهذا قال عمر : لنا رقاب الأرض (٣)

غير ان هذه السنن الشريفة لم تحترم فى القرون التالية فكان الضعفاء يقعون تحت طائلة الأقوياء وظلمهم ، وكان الحكام فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى وأوائل النصف الأول من القرن الخامس الهجرى - حيث عاش أبو العلاء المعرى - يبالغون فى ظلم الرعية ومصادرة أموالها وابتزاز أموالهم بواسطة الضرائب المرتفعة (فلا عجب بعد هذا أن نجد أبن حوقل حوالى عام ٣٧٠ هـ - ٩٨٠ م يقول أن بنى حمدان هم أغنى ملوك الأسلام فى عهده الى جانب عبد الرحمن الثالث خليفة

---

(١) أبو عبيد القاسم ابن سلام : الاموال ص ٢٧٨

(٢) الامام الحافظ أبو عبد الله القاسم بن سلام الاموال المكتبة التجارية مصر ١٣٥٣ هـ رقم ١٦٢٤٠ كلية الاداب الاسكندرية .

(٣) ابن سلام : الاموال ص ٢٨٧ ، ٢٧٩ .

الأندلس . وفى عام ٣٦٨ هـ - ٩٧٨ م فتح عضد الدولة بعض قلاع بنى حمدان ، فكان قيمة ما فى القلعة عشرين ألف ألف درهم. ومع هذا كانت تقوم بسبب دفع الجزية منازعات مستمرة بين الحمـــدانيين من جهة ، وبين بغداد وبوزنطة من جهة أخرى » (١) .

وبينما أسرف الحكام فى الانفاق والبذخ كان الناس والعوام يرزحون تحت وطأة الغلاء والحاجة . ولكى نتبين مدى ارتفاع تكاليف الحياة على عامة الناس ينبغى بنا أن نرجع إلى الوراء قليلا لنتبين مدى الرخاء الذى كان يعيش فيه الناس قبل أن تحيق بهم الشدائد والمحن ، ولعل خير ما يصور لنا تطور الحياة الاقتصادية فى القرن الثانى ذلك البيان الذى سجله الخطيب البغدادى وضمنه أسعار الحاجيات أيام الخليفة أبى جعفر المنصور فهو يذكر لنا أن الكبش كان بدرهم والحمل بأربعة دوانق ، والتمر ستين رطلا بدرهم والزيت ستة عشر رطلا بدرهم ، والسمن ثمانية أرطال بدرهم (٢) ، ويعلق الدكتور محمد مصطفى هداره على هذه الأسعار قائلا : (٣) وهذه الأثمان خيالية فى رخصها خصوصا إذا قورنت بدخل الأفراد فى ذلك العصر ونقصد بهم الأفراد العاديين كجنود الجيش مثلا . فقد كان عطاء المقاتل يتراوح فى بعض الأقوال بين مائتين وألف وخمسمائة درهم سنويا يدفع له فى المحرم عند بداية السنة الهجرية أى أن راتب الجندى كان يتراوح بين عشرين ومائة وعشرين درهما فى كل شهر » .

غير ان هذا الرخاء لم يدم طويلا ، إذ أن كثرة الفتن السياسية ، واضطراب الأوضاع الداخلية ، واهمال المشروعات العمرانية والزراعية أدى إلى انهيار اقتصادى عام ، وكان أكبر أسباب هذا التدهور أن البلاد استحالت إلى مستنقعات ، ونظرا لأنها كانت تروى بالطرق البدائية فقد كانت تحتاج إلى عناية ونظام أكثر مما

---

(١) آدم متز : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ص ١٨١ ، ١٨٢

(٢) د . هدارة : اتجاهات الشعر العربى فى القرن الثانى ص ١١٨

(٣) نفس المصدر ص ١١٨ ، ١١٩

وجه لها . وقد اضطر الزراع إلى الجلاء .. »[1]

وما أن يأتى القرن الرابع الهجرى حتى يبلغ الانهيار الاقتصادى ذروته نتيجة سوء توزيع الثروة أو كثرة الكوارث الاقتصادية والطبيعية ، وقد تتبع المؤرخون هذه الكوارث والأحداث ، وسجلهـــا المؤرخ ابن الأثير فى كتابه « الكامل فى التاريخ » الجزء السابع ، واهتم أيضا بهذه الناحية الاستاذ محمد سليم الجندى[2] بتسجيل هذه الظواهر نقلا عن ابن الأثير .

« ذكر ابن الأثير فى حوادث سنة ٣٦٣ هـ الفتنة التى أثارها المغاربة جنود المعز فى دمشق ، وأحرقوا البلد من ناحية باب الفراديس ، فامتدت النار إلى جهة القبلة ، فأحرقت كثيرا من البلد وهلك من الناس والأثاث والأموال مالا يحد . ثم عادت الفتنة سنة ٣٦٤ هـ فأحرقوا من البلد ما كان قد سلم ، وخربت المنازل وانقطعت الموارد وانسدت المسالك وقطع الماء عن البلد ومات كثير من الفقراء على الطرقان من الجوع والبرد .

وفى سنة ٣٧٢ هـ غلت الأسعار بالعراق وما يجاوره وعدمت الاقوات فمات كثير من الجوع .

وفى سنة ٣٨٣ هـ اشتد الغلاء فيهـا حتى بيع كسر الحنطة بستة آلاف وستمائة درهم غياثية .

وفى سنة ٣٨٤ ء اشتد أمر العيارين ببغداد ووقعت فتنة بين أهل الكرخ وأهل باب البصرة واحترق كثير من المال .

وفى سنة ٣٩٨ هـ اشتد الغلاء فضج العامة وشغب الجند وكانت فتنة .

---

(١) آدم متز : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ص ١٨٤ .

(٢) محمد سليم الجندى : الجامع فى اخبار ابى العلاء المعرى وآثاره جـ ١ ص ١١٢ وما بعدها .

وفى سنة ٤٠٢ هـ نهب حسان أمير طيء عسقلان وقتل أهلها .

وفى سنة ٤٠٨ هـ عظم أمر العيارين ببغداد فأفسدوا ونهبوا الأموال .

وفى سنة ٤١٤ هـ استولى حسان أمير طيء على الرملة ونهبها وقتل أهلها .

وفى سنة ٤١٦ هـ عظم شر العيارين ببغداد فقتلوا النفوس ونهبوا الأموال وأحرقوا الكرخ وغلا السعر حتى بيع كسر الحنطة بمائتى دينار قاسانية(١) وفيها حاصر سنان دمشق ووقعت بينه وبين أهلها حروب طاحنة وخربت داريا وأعمالها .

وفى سنة ٤٢٥ هـ كثرت الزلازل بمصر والشام ، وكان أكثرها بالرملة ، فقد انهدم نحو ثلثها ، وهلك تحت الهدم خلق كثير. وهبت ريح بالموصل فقلعت كثيرا من الأشجار وكثر الموت بالخوانيق فى العراق والشام والموصل وخوزستان وغيرها حتى كانت الدار يسد بابها لموت أهليها .

وفى سنة ٤٢٦ هـ ضعف أمر الخلافة والسلطنة ببغداد وعظم أمر العيارين ، فصاروا يأخذون الأموال ليلا ونهارا ، ونهب العرب النواحى وقطعوا الطرق ، ووصلوا إلى جامع المنصور وأخذوا ثياب النساء فى المقابر .

وفى سنة ٤٣٩ هـ كان بالعراق كله والجزيرة غلاء عظيم أكل الناس فيه الميتة وتبعه وباء مات فيه كثير .

---

(١) وكانت العملة المستعملة فى الاسواق العملة الذهبية وهى الدينار . والفضية وهى الدرهم وكان الدينار شائعا فى البلاد الغربية للدولة الاسلامية وخاصة فى البلاد التى كانت تابعة للدولة البيزنطية قبل استيلاء العرب عليها . أما الدرهم فكان استعماله شائعا فى العراق وفارس . الا أن استعمال الدنانير لم يلبث أن أصبح فى القرن الرابع الهجرى شائعا فى بلاد العراق ومع ذلك ظل سائر البلاد الاسلامية الشرقية تتعامل بالدرام وكان الدينار يساوى أربعة عشر درهما فى ذلك العصر . ولكن الدينار كان يختلف من حين الى حين ومن بلد الى بلد ، فتارة يساوى ١٠ درام وتارة ١٣ درهما وتارة أخرى ١٥) متز : الحضارة الاسلامية ج ٢ ص (٣٣) .

أما مصر فقد اصابها من الكوارث والنكبات ما يجعل الولدان شيبا ،وحسبك منه ما أصابها من المصائب فى عهد الحاكم حين قطع الكروم ، ومنع بيع العنب ولم يبق فى ولايته كرما ، وأراق خمسة آلاف جرة من العسل فى البحر خوفا من أن تحمل نبيذا ، ونهى عن السمك والملوخيا والفقاع (الفقاع : كرمان - شراب سمى بذلك لما يرتفع فى رأسه من الزبد) وقتل من باع ذلك ومنع بيع الرطب[1] » .

ولقد عم الخراب حينذاك أرجاء الشام ومصر والعراق كما تتبين من هذا النص فكأن الله - تعالى - قد سلط الكوارث على تلك الرقعة حتى أجدبت مراعيها، وأقفرت بساتينها وغاص ماؤها وانتابتها العلل والأمراض والاوبئة ، وفتكت بها المجاعات، وتسلط عليها حكام جل همهم جمع الأموال وإغتراف اللذات والاستبداد بأمور الدولة حتى لقد أمر الحاكم بأمر الله بحرق القاهرة لأن بعض المظلومين ارتفعت أصواتهم بالشكاية من ظلمه وجوره فصنعوا له تمثالا على هيئة أمرأة فى يدها رقعة بها كل قبيح فى حقه وحق حكمه فانتفض غاضبا واستدعى قواده وأمرهم بحرق المدينة إنتقاما من الشعب الذى يجرؤ على نقده ذلك النقد اللاذع[2] :

« وأستدعى القواد والعرفاء . وأمرهم بالمسير إلى مصر وضربها بالنار ونهبها وقتل من ظفروا به من أهلها ، فتوجه اليها العبيد والروم والمغاربة وجميع العساكر . وعلم أهل مصر بذلك فاجتمعوا وقاتلوا عن نفوسهم وأوقعوا النار فى أطراف البلد ، فاستمرت الحرب بين العبيد والعامة والرعية ثلاثة أيام .[1]

« وأحترق من مصر مقدار ثلثها ، ونهب نصفها ، وتتبع المصريون من أخذ

---

(١) محمد سليم الجندى : الجامع فى أخبار ابى العلاء وآثاره نقلا عن الكامل لابن الاثير ص ١١٢ - ١١٦ .

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ص ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٧٨ نقلا عن ابن الصابى فى حوادث سنة ٣٨٦ هـ .

(٣) المصدر السابق : جـ ٤ ص ١٨٠ فى حوادث سنة ٣٨٦ هـ .

أزواجهم وبناتهم وأخواتهم ، وابتاعوهن من العبيد بعد أن فضحوهن ، وقتل بعضهم نفوسهن خوفا من العار . وإستغاث قوم من العلويين الاشراف إلى الحكام وذكروا أن بعض بناتهم فى أيدى العبيد على أسوأ حال . وسألوه أن يستخلصهن ، فقال الحاكم :

أنظروا مايطالبونكم به عنهن لأطلقه لكم.

فقال له بعضهم : أراك الله فى أهلك وولدك مثل مارأينا فى أهلنا وأولادنا فقد أطرحت الديانة والمروءة بأن رضيت لبنات عمك بمثل هذه الفضيحة ، ولم يلحقك منهن إمتعاض ولاغيره ».(٧)

ولم يكن الناس جميعا شركاء فى هذا الجدب والخراب الذى حل بالدولة الاسلامية فى جميع بقاعها من خراسان حتى شمال أفريقية ، بل كانت هناك طبقة ناعمة مترفة تحظى بالخير كله . ويكفى أن نلقى نظرة على ماخلفه الحاكم بأمر الله نفسه بعد موته :

« وأما ما خلفه الحاكم من المال فشيء كثير . قيل : أنه ورد عليه أيام خلافته رسول ملك الروم ، فأمر الحاكم بزينة القصر ، قالت السيدة رشيدة عمة الحاكم : فأخرج أعدالا مكتوبا على بعضها : الحادى والثلاثون والثلاثمائة وكان فى الأعدال الديباج المنرز بالذهب ، فأخرج ذلك وفرش الديوان وعلق فى حيطانه حتى صار الايوان يتلألأ بالذهب وعلق فى صدره المسجدة ، وهى درقة من ذهب مكللة بفاخر الجوهر يضيء لها ماحولها ، إذا وقعت عليها الشمس لاتطيق العيون النظر اليها . وأيضا مما يدل على كثرة ماله ما خلفته ابنته ست مصر بعد موتها ، فخلفت شيئا كثيرا يطول الشرح فى ذكره ، من ذلك ثمانية آلاف جارية ـ قال المقريزى

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ١٨٢ حوادث سنة ٣٨٦ هـ

وغيره - ونيف وثمانون زيرا صينيا مملوءة جميعا مسكا ، ووجد لها جوهر نفيس من جملته قطعة ياقوت زنتها عشرة مثاقيل . وكان أقطاعها فى السنة خمسين ألف دينار ، وكانت مع ذلك كريمة سمحة ، والشىء بالشىء يذكر »[1].

هذه الثروات الطائلة ما كانت لتستغل من أجل الناس أو نشر العمران فى أرجاء البلاد، وإنما كان مال المسلمين ينفق معظمه فى معصية الله، رغم ان الاقتصاديين العرب من أمثال ابن سلام فى القرن الثالث[2] قد حدد فى كتابه الفقهى طبقات الفقراء والمساكين وإستحقاقهم من الصدقات فقال.[3]

« قال : حدثنا اسماعيل بن جعفر عن شريك بن عبدالله ابن أبى نمـــر عن عطاء بن يسار عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ليس المسكين الذى ترده التمرة والتمرتان واللقمة واللقمتان ، ولكن المسكين المتعفف ، اقرؤوا إن شئتم (لايسألون الناس الحافا)[4] قال ابو عبيد : فهذا فصل مابين الفقير والمسكين .

وقد فصلت العلماء أيضا بين القانع ، والمعتر ، والبائس والفقير . وهم جميعا من أهل الصدقة والاطعام .

فاذا كان ذلك حال طبقة من طبقات المجتمع الاسلامى فى القرنين الثانى والثالث حيث كانت الدولة متماسكة بعض الشىء من الناحيتين الاقتصادية والسياسية ، فكيف أصبح الناس فى القرنين التاليين - الرابع والخامس - وقد أصبح الخليفة

---

(١) نفس المرجع : النجوم الزهرة جـ ص ١٩٢ حوادث سنة ٢٨٦ هـ

(٢) ولد سنة ١٥٤ هـ وتوفى سنة ٢٢٤ هـ (كتابه : الاموال ص ٢٣) وترجم له الحافظ الذهبى فى كتابه تاريخ دول الاسلام .

(٣) أبو عبيد ابن سلام : الاموال ص ٦٠٣ ، ٦٠٤

(٤) رواه الامام أحمد والبخارى مسلم وغيرهما .

العباسي رمزا فقط يلعب به الامراء البويهيون في بغداد بينا وقعت الشام في حروب إقليمية متصلة ، وتهديد مستمر من الدولة البيزنطية ، وكذلك مصر - درة الاسلام والعروبة - يلعب بمقدراتها حاكم غريب الأطوار ، ودعوة فاطمية تبغى السيطرة على قلب بغداد السنية ولا تنظر الى الاصلاحات الداخلية نظرة جادة : حتى لقد أدى الأمر إلى أن وقعت مصر والشام معا بين براثن القحط والوباء في النصف الأول من القرن الخامس الهجرى نتيجة لسياسة طويلة من اهمال الحكام والامراء وقادة الجيوش .

« وفى سنة ٤٤٨ هـ أصاب مصر والشام ما اصاب غيرهما من القحط والوباء حتى أكل الناس الميتة وبلغت الرمانة والسفرجلة دينارا ، وكذا الخيارة والليثوفرة وانقطع ماء النيل ».(١)

ولم ينج العلماء والباحثون من وطأة هذا الفقر ، فقد كانوا يعانون من قلة الرزق وقلة المورد ، ونضوب الدين : « وقد ألف أحد الظرفاء كتابا سماه « الفلاكة والمفلوكين » أى الفقر والفقراء حكى فيه أمثلة كثيرة من العلماء الذين أصيبوا بالفقر . من ذلك ماحكاه عن التبريزى الأديب المشهور من أنه أراد عالما يشرح له كتابا معجما فوصف له أبو العلاء المعرى وكان بعيدا عنه ، فحمل الكتاب فى خرج على ظهره ، ومشى طويلا ، حتى بال العرق الكتاب وأتلفه . وكان يظن بعد ذلك أنه أصابه مطر ».(٢)

كما انتفت الثقة بين الحاكم والمحكوم ، فكان جباة الأموال يجهدون أنفسهم فى التنقيب عن أصحاب الأموال ليصادروا أموالهم دون وجه حق الأمر الذى ادى

---

(١) محمد سليم الجندى : الجامع فى اخبار ابى العلاء ص ١١٧ نقلا عن ابن الاثير الليثوفرة ، كذا فى الاصل . ولعلها النيلوفرة ، وهى نوع من الزهر ينبت فى المياه يستعمل فى الدواء (الجندى).

(٢) أحمد أمين : ظهر الاسلام ج ٢ ص ٩ .

بالكثيرين إلى إخفاء اموالهم وحجب خــيراتها عن عامة الناس او تنشيط الحياة الاقتصادية :

وكثرت المصادرات عند إحتياج الخلفاء والأمراء للاموال. ولذلك شاعت عادة خزن الاموال وإخفاؤها فى غير مظانها ، كالدفن فى الأرض ونحـو ذلك . حتى حكوا أنه من حسن حظ أمير من بنى بويه أن إحتاج إلى مال كثير يصرفه على الجند ، وإلا شغبوا ، فصادف أن رأى ثعبانا يختبىء فى السقف ،فأمر بالبحث عنه فوجدت غرفة فوق السقف وفوقها دور آخر علوى ووجدت هـذه الغرفة مملوءة بالذهب المخزون فى الخفاء. ففرج ذلك كربه ، وأزال شدته وكم وجـد فى فى الحيطان وتحت الأرض من أموال مخزونة فى القدور[1].

وهاهوذا معز الدولة بن بويه يوزع الأراضى على أجناده ، ويصادرها من أصحابها الاصليين ليكافىء بها أصحابه ، فخربت وهجرها أهلها ، وتركوها نهبا للبوار والجدب وترك الاجناد الاهتمام بمشارب القرى وتسوية طرقها وهلكت وبطل الكثير منها وأخذ غلمان المقطعين فى الظلم وتحصيل العاجل فكان أحدهم إذا عجز الحاصل تممه بمصادرتها [2] .

وكانت نتيجة هذه السياسية الاقتصادية الناشئة أن انتشر الجوع والافلاس وسادت الأوبئة أنحاء بغداد . وهى قطب الدولة الإسلامية ومضرب الامثال فى الترف والنعيم والثروة . ولم تمض سنة على بغداد حتى إشتد الغلاء بها فأكل الناس الميتة والسنانير والكلاب وأكل الناس خروب الشوك وكانوا يسلقون حبه ويأكلونه فيلحق الناس أمراض أورام فى أحشائهم وكثر فيهم الموت حتى عجز الناس عن دفن الموتى فكانت الكلاب تأكل لحومهم وأنحدر كثير من أهل بغداد

---

(١) أحمد أمين : ظهر الاسلام ج ٢ ص ٧ ، ٨

(٢) محمد الخضرى : محاضرات تاريخ الامم الاسلامية (الدولة العباسية) ص ٥١٩ ، ٥٢٠

إلى البصرة فمات أكثرهم فى الطريق وبيعت الدور والعقارات بالخـبز . فكان نظام الاقطاعات أول فساد بالعراق لأنه أضعف همة الفلاحين الذين يقومون بزرع الارض وإصلاحها وتنميتها (١) ولاشك أن هذه الصورة القاتمة لمجتمع يأكل الناس فيه الشوك ، وينفقون كما تنفق الماشية ، ويأكلون الكلاب الميتة دليل قاطع يشجب كل الانظمة الاجتماعية الاقطاعية القائمة حينذاك فى أنحاء الدولة الإسلامية حتى لقد استحال الحكام أنفسهم إلى لصوص ، وكانوا يعقدون الاتفاقات السرية بينهم وبين الشطار ليتقسموا معهم مالهم الحرام نظير أن يطلقوا أيديهم فى رقاب الناس وأموالهم ويكفوا عنهم الشرطة .

« وفى سنة ٣٣١ هـ — ٩٤٢ م استطاع ابن حمدى ، وهو لص ظهر ببغداد على رأس جماعة من أصحابه ، أن ينتهب أموال أهل بغداد ، وكان قد أعيى السلطات أمره وخلع عليه ابن شيرزاد . ووافقه على أن يصحح فى كل شهر خمسة عشر ألف دينار بما يسرقه هو وأصحابه فكان يستوفيها ويأخذ البراءات وروزات الجبهذ بما يؤديه أولا فأولا »(٢) .

وأصبحت أموال الناس مباحة للحاكم وللصوص معاً ، حتى لقد أصبحت المواريث أيضا تصادر مما جعل ابن المعتز يقول فى أرجوزته (٣) :

وويل من مات أبوه موسرا	أليس هذا محكما مشهرا
وطال فى دار البلاء سجنه	وقيل من يدرى بأنك ابنه
فقال جيرانى ومن يعرفنى	فنتفوا سباله حتى فنى
وأسرفوا فى لكمه ودفعه	وانطلقت أكفهم فى صفعه
ولم يزل فى أضيق الحبوس	حتى رمى لهم بالكيس

(١) نفس المصدر السابق ص ٥٢٠ .
(٢) آدم متز : تاريخ الحضارة الاسلامية جـ ١ ص ٩ .
(٣) أحمد أمين . ظهر الاسلام جـ٢ ص ٩ .

والغريب أن ذلك الامير العظيم سيف الدولة الذى يعتبر الرقعة المضيئة فى تاريخ القرن الرابع الهجرى كان يظلم أيضا الناس فى أموالهم بالمصادرة :

« وعين أبو حصين الرقى قاضيا على حلب فكان يصادر التركات ويقول: التركة لسيف الدولة وليس لابى حصين إلا أخذ الجمالة وشاع بين الناس : « من هلك فلسيف الدولة ما ملك » . . ولذلك اجتهد الحكام أن ينكروا الوراثة ويجعلوا من مات مات عن غير وارث ليستولى على تركته »[1] .

وكان سيف الارهاب مسلطا فوق رقاب كبار التجار وصغارهم على السواء حتى اضطر أغنياؤهم إلى إيداع أموالهم عند فقراء الناس ليجدوا مايقتاتون به إذا ما تعرضوا للمصادرة أو التعذيب من أجل انتزاع اعتراف كاذب منهم بأن السلطان قد أودع عندهم أمواله ، وأن من حق ولى الامر حينئذ أن يصادر ما يشاء من الأموال لأنها أمواله أودعها عند أولئك التجار الأغنياء . وكان التعذيب يجبرهم على ترك أموالهم للسلطان كما نرى فى أرجوزة ابن المعتز [2] :

وتاجر ذى جواهر ومال	كان من الله بأحسن حال
قيل له عندك للسلطان	ودائع غالية الأثمان
فقال لا والله ما عندى له	صغيرة من ذا ولا جليلة
وإنما ربحت فى التجارة	ولم أكن فى المال ذا خسارة
فدخنوه بدخان التبن	وأوقدوه بثفال اللبن[3]
حتى إذا مل الحياة وضجر	وقال ليت المال جمعا فى سقر
أعطاهم ما طلبوا فأطلقا	يستعمل المشى ويمشى العنقا[4]

(١) نفس المصدر السابق ج ٢ ص ٩ .
(٢) أحمد أمين : ظهر الاسلام ج ٢ ص ٩ .
(٣) الثفال : جلد يبسط تحت الطاحون ليسقط عليه الدقيق .
(٤) العنق : الاسراع فى السير .

وتمثل هذه الأرجوزة منظراً أليما لذلك التاجر الذي يساق كرها إلى الاعتراف بأن أموال السلطان مودعة عنده، فيحلف بأغلظ الايمان أن أمواله رزق حلال من عرقه وتجارته وسعيه وكده، ويؤكد لجلاديه أن السلطان لم يودع عنده وديعة صغيرة أو كبيرة وأن مصدر أمواله هو توفيقه فى التجارة واجتنابه الخسارة. فيلجأ جلادوه إلى سلاح التعذيب الرهيب بواسطة النار الموقدة، حتى إذا انهارت مقاومته وأصبح عليه أن يختـــار بين ماله وحياته، أرشدهم عن خزائنه لينهبوها وانطلق يشتم المال ويسب الثروة ويشترى حريته وحياته أيضا بكل ما يملك. لقد أصبح الفقير فى ذلك العصر يعانى الجوع والحرمان والعرى. وأصبح الغنى يعانى الخوف والتهديد بالمصادرة والاغتيال، فأى حيرة تعترى الانسان حينئذ فى ظل نظام اقتصادى فاسد لا اخلاق له ولا ضميرا.

وكانت هذه الثروات الهائلة التى تصب صبا فى بطون الحكام تنفق فى الترف والبذخ حتى لقد كانوا يضنون على أهل العلم والأذكياء بالاعطيات اللازمة ليعيشوا عيشة إنسانية كريمة، ووجدت أشعار كثيرة فى هذا العصر يذكر فيها أن الفقر يلازم العقل والغنى يلازم الجهل مثل الذى يقول:

إنى رأيت الدهـــر فى حكمه — يمنح حظ العاقل الجاهلا
وما أرانى نائلا ثروة — كأنه يحسبنى عاقلا

ومثل قوله:

وقائلة ما بال مثلك خاملا أ — أنت ضعيف الرأى أم أنت عاجز
فقلت لها: ذنبى إلى القوم أننى — لما لم يحوزوه من المجد حائز
وما فاتنى شيء سوى الحظ وحده — وأما المعالى فهى عندى غرائز

بينما كانوا يسرفون كل الإسراف فى كثير من النواحى التى تغضب الله وتنافى مظهر الدولة الاسلامية فقد ورثوا مفاسد الدولة الساسانية الفارسيـة وزادوا

عليها ، وتماجنوا وعبثوا حتى أصبح المجون والعبث سمة مميزة من سمات العصر العباسى : أوله وثانيه . ويصف الدكتور شوقى ضيف حالة المجون التى سادت ذلك العصر بقوله (١) :

« ورث المجتمع العباسى كل ما كان فى المجتمع الساسانى الفارسى من أدوات لهو ومجون وساعد على ذلك مادفعت اليه الثورة العباسية من حريه مسرفة ، فاذا الفرس المنتصرون يمعنون فى مجونهم ويمعن معهم الناس ، فقد مضوا يعبون الخمر عبا ويحتسون كئوسها حتى الثمالة ، وحكاهم من عايشوهم حتى أصبح الادمان عليها ظاهرة عامة على الرغم من نهى القرآن الكريم عنها وحضه على اجتنابها إذ يقول عز شأنه : (إنما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون . إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون) .

وكان من أسباب انتشارها وإقبال الناس عليها أن أدى اجتهاد بعض فقهاء العراق إلى تحليل بعض الانبذة كنبيذ التمر والزبيب المطبوخ أدنى طبخ ونبيذ العسل والبر والتين . فشرب الخلفاء هذه الانبذة وشربها الناس .

ولم يقف الامر عند حد الخمر وإدمانها ، وإدمانها ، وإنما تعداه إلى سباق بين السادة فى امتلاك الرقيق والجوارى ، وإنفاق الأموال الطائلة على شرائها .

«ويخيل إلى الانسان أنه لم يبق فى بغداد ولا فى الكوفة ولا فى البصرة سرى إلا عمل على أن يقتنى قينة أو قيانا يشعن المرح فى داره وكان من لايستطيع اقتناء قينة يمكنه أن يستأجر من المقينين إحدى قيانهم لتغنيه ليلة أو ليالى متصلة(٢).

وبينما كان الناس من العامة يعانون من شظف العيش ، وبينما كان العبيد الأباق

---

(١) د . شوقى ضيف « العصر العباسى الاول ص ٦٥ .

(٢) د . شوقى ضيف « العصر العباسى الاول ص ٦٢ .

يهربون من سادتهم لظلمهم وسوء معاملتهم كانت الأموال والهدايا تغدق بسخاء على الأماء والجوارى الجميلات.

« وكن يتبارين فى التهادى بالتحف النفيسة ، من ذلك ما يروى عن مؤنسة جارية المأمون من أنها أهدت إلى متيم الهاشمية جارية على بن هشام فى يوم احتجمت فيه مخنقة (قلادة) فى وسطها حبة - لها قيمة جليلة - كبيرة وعن يمين الحبة ويسارها أربع يواقيت وأربع زمردات وما بينها من شذور الذهب ، وغمستها فى الغالية »(١) .

وكانت بعض المؤلفات تكتب فى أوصاف الجوارى من شتى الأجناس كتلك الرسالة التى كتبها ابن بطلان وصنف فيهـا الجوارى والأماء ، وبين محاسن كل جنس ومساوئه فقال : إن « التركيات قد جمعن الحسن والبياض ،ووجوههن مائلة إلى الجهامة ، وعيونهن مع صغرها ذات حلاوة وقد يوجد فيهن السمراء الأسيلة . وقدودهن ما بين الربع والقصر ، والطول فيهن قليل ومليحتهن غاية، وقبيحتهن آية ، وهن كنوز الاولاد ومعادن النسل قلما يتفق فى أولادهن وحش ولا ردىء التركيب فيهن فطانة ولباقة»(٢) .

ولم يقنع الحكام وسراة الناس بامتلاك الجوارى اللاتى أشعن الفساد والانحلال الخلقى بل اتجهوا إلى شراء الغلمان وعشقهم حتى لقد روى أبو اسحاق الصابى ،أنه كان لمعز الدولة غلام تركى يدعى تكين الجامدار ، أمرد رومى الوجه ، منهمك فى الشرب لايعرف الصحو ولا يفارق اللعب واللهو ، ولفرط ميل معز الدولة اليه وشدة إعجابه به ، جعله رئيس سرية جردها لحرب بنى حمدان ، وكان المهلبى يستظرفه ويستحسن صورته ، ويرى أنه من عدد الهوى لامن عدد الوغى ، فقال فيه :

---

(١) نفس المرجع السابق ص ٦٥ .
(٢) احمد أمين : ظهر الاسلام ج ١ ص ٤٤

ظبى يرق الماء فى وجناته ويرق عوده
ويكاد من شبه العذارى فيه ان تبدو نهوده
ناطوا بمعقد خصره سيفا ومنطقة تؤوده
جعلوه قائد عسكر ضاع الرعيل ومن يقوده

فما أسرع أن كانت الدائرة على هذا القائد (١).

ولقد أصبح المجتمع نهبا لأمثال هؤلاء المخنثين ، وأصبح الدخل الأكبر يذهب لمن لايحسن تصريفه فى وجهه الصحيح ، ولهذا ساءت الأحوال الاقتصادية سوءا كبيرا كما بينا ، وانتشرت المفاسد وانهارت القيم السامية ذلك لأن الحكام قد بعدوا عن الأسس السليمة والقواعد التى وضعها دينهم الحنيف لتنظيم العلاقات الاقتصادية ، وها هوذا أبو عبيد ابن سلام . يورد فى باب (حمى الأرض ذات الكلأ والماء) ذلك المبدأ الاسلامى العظيم فى تقسيم الثروة فيقول : « قال : حدثنا يزيد عن جرير بن عثمان عن حبان ، أو حيان ابن زيد الشرعبى عن رجل من قومه قال ، وكانت فيه سرعة وكان فى غزاة ، فكان يذب الدواب عن رحله فزجره رجل من المهاجرين عما يصنع ، فلم يلتفت اليه . فقال : « لقد صحبت الرسول الله ﷺ ثلاث سنين قال : فلما سمعه يذكر النبى ﷺ سقط فى يديه وأقبل يعتذر اليه . فقال : صحبت رسول الله ﷺ ثلاث سنين فسمعته يقول :

الناس شركاء فى الماء والكلأ والنار (٢) .

هذا الحديث الشريف الذى يعطى للانسان حقه فى استغلال الموارد الطبيعية ويسوى بين البشر جميعا فى الانتفاع بها لم يكن أمام طبقة السادة فى العصر

(١) أحمد أمين : ظهر الاسلام ج ١ ص ٣٦ .
(٢) أبو عبيد : الاموال ص ٢٩٤ ، ٢٩٥ .

العباسى الذين احتكروا لأنفسهم حق الحياة ، وجاروا على الأرض فصادروها واحتكروها ، وعلى الاموال فانتهبوها وعلى الاعراض أيضا فهتكوها ، وعلى التركات والمواريث فاستلبوها ثم انطلقوا يعقدون الصفقات مع اللصوص والعيارين والشطار وينفقون كل ذلك فى معصية الخالق . فسلط الله عليهم الاوبئة والمجاعات والخراب وأصبحت الدولة الاسلامية الزاهية وقد ارتدت الاثواب المهلهلة وخيم عليها شبح البؤس والفاقة .

الفصل الثانى

الحياة السياسية

أولا : الحياة السياسية فى بغداد :

أ – ضعف الخلفاء :

كانت بغداد قلب الدولة الإسلامية النابض ، منها تتفرع شرايين الحياة الفكرية والثقافية ، وإليها يقصد الشعراء والفلاسفة ، وفيها تتماوج التيارات السياسية المتضاربة وتتصارع الأهواء العنصرية بغية الوصول إلى مراكز السطوة والجاه . والمعروف أن الدولة العباسية قامت على أكتاف الفرس ، وأنها استقطبت حولها كثيرا من العناصر الغريبة عن العروبة .

والواضح أن سياسة الخلفاء العباسيين فى الاعتماد على العناصر الغريبة والأجنبية لم تكن سارية فى بغداد فقط ، وإنما إمتدت آثارها إلى جميع الأمصار التابعة للخلافة العباسية التى أخذت فى الضعف التدريجى نتيجة لضعف سلطان الخليفة العباسى الذى شغله التحلى بالألقاب الفخمة ، وانغمس فى لذائذ الحياة ومظاهرها الفانية حتى لقد تفننوا فى رسوم دار الخلافة وأسرفوا فيها إسرافا واضحاً ، كما تهالك الخلفاء العباسيون بعد سريان الضعف إلى نفوذهم على الألفاظ والألقاب يضيفونها إلى أسمائهم ، وكان كاتب الخليفة القادر (٣٨١ — ٤٢٢ هـ = ٩٩١ — ١٠٣١ م) أول من أخرج فى ذكر الخليفة وصفه بالحضرة المقدسة النبوية ، إختراعا جعله قربة ، فصار سنة ، ومضى فى ذلك حتى خرق العرف والعادة فكتب عن الخليفة بالخدمة ، وتصرف فى ذلك حتى قال : فالت الخدمة وفعلت الخدمة ، وسئلت الخدمة ، حتى رأيت بخط أبى الحسن ابن أبى الشوارب

القاضي في رجة رقمة : خادم الخدمة الشريفة فلان بن فلان [١] غير أن النفوذ الحقيق للخليفة لم يكن يتعدى أسوار قصره لأن نفوذ الأمراء كان يطغى على هيبة الخليفة الحقيقية الذى لم يملك من مظاهر الخلافة إلا أن يضرب على باب داره بالدبادب والطبول ، وكانت من علامات سيادة الخليفة ببغداد أن يضرب على باب داره بالدبادب والطبول والأبواق فى أوقات الصلوات الخمس ،وكان لا يوقف ذلك إلا فى أيام العزاء بدار الخلافة »[٢] .

أما الحقيقة المؤسفة فهى أن أمير المؤمنين كان يتصاغر كثيراً أمام الأمراء الذين يملكون عزله وتنصيب سواه ولذلك فقد كان يتودد اليهم مما أنقص من هيبة الخليفة أمام أمرائه ، ومن ذلك أن بجكم القائد التركى كان من عادته فى داره وحشمه ألا يشرب الماء إذا جاءوه به إلا بعد أن يذوقه بين يديه من جاء به ، وعلم الخليفة الراضى [٣] بذلك فاستعمل معه ما يعمل له فى منزله ، فكان إذا حمل شيء وضع بين يدى الراضى أولا ، فأكل منه ، ثم يوضع بين يدى بجكم ، وجرى ذلك فى كل ما يوضع بين يديه ، وكان بجكم يستعفى الراضى من هذا فلا يعفيه [٤] .

ويدل هذا النص على تصاغر هذا الخليفة أمام أميره ، بل يدل على تناقص

---

(١) آدم متز : تاريخ الحضارة الاسلامية ج ١ ص ١٩٦ نقلا عن كتاب الوزراء لهلال الصابى (المتوفى عام ٤٤٧ هـ ـ ١٠٥٥) ص ١٥٢ .

(٢) آدم متز : تاريخ الحضارة الاسلامية ج ١ ص ١٩٥ .

(٣) الخليفة الراضى : هو أبو العباس أحمد بن المقتدر بن أبى أحمد الموفق طلحة ابن المتوكل وأمة أم ولد اسمها ظلوم ولد سنة ٢٩٧ وبويع بالخلافة بعد خلع القاهر فى ٥ جمادى الاولى سنة ٣٢٢ هـ (٢٣ ابريل سنة ٩٣٤ م) ولم يزل خليفة الى أن توفى فى منتصف ربيع الاول سنة ٣٢٩ هـ (٨ ديسمبر سنة ٩٤٠ م) فكانت مدته ست سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام (محاضرات الامم الاسلامية ـ محمد الخضرى ص ٣٩٢) .

(٤) آدم متز : تاريخ الحضارة الاسلامية ج ١ ص ٢٠٣ .

هيبة الخليفة الذى أصبح يدارى وينافق مراكز القوة فى بغداد . وكان الخليفة المستكفى من بعده أسيراً لامرأة فارسية سيئه الخلق والدين ، وقد تعرض بلاط الخلافة لأكبر ما أنقص هيبته فى عهد المستكفى[1] (٣٣٣ - ٩٤٦ م) لأنه وقع فى سلطان إمرأة فارسية مستبدة تسمى حسن ، والتف إلى حسن نفر ممن كانوا معها على الأصول القبيحة.. وكانت تتولى عرض الغلمان والحجاب فى قصر الخليفة فى مجلس يقال له الحودان ، لم يكن يصل إليه إلا وزير أو صاحب ، فانخرقت الهيبه بهذه المرأة ، وذهبت الرسوم التى كانت للخلافه ، وصارت الدار طريقا لكل من لم يرها ، وكان كل من وصل إلى المستكفى أجلسه بين يديه » .

وأرادت هذه المرأة أن تأمن توزون وتصالح قلبه ، فجعلت الخليفه يدعوه ويكرمه بما لا يسمح به أحد من الخلفاء قبله ، فكان يأكل معه على مائدة واحدة » [2] .

وتحكم النساء فى مصائر الخلافة ، وأسهمن فى إضعاف هيبة الخلفاء وكانت تنفق عليهن الارزاق الوفيرة التى يضن بها فى الانفاق على وجوه البر التقوى والصلاح ، وقد ذكر الخوازمى ما زعمه البعض من أن المتوكل كان له إثنا عشر ألف جارية [3] ، ويقول المسعودى أنه كان له أربعة آلاف سرية ، وفى أحد المخطوطات أربعمائة [4] وكان على رأس نساء القصر حوالى ٣٠٠ هـ قهرمانتان أحداهما للخليفة ، والاخرى للسيدة والدته .

ولم يبال الخلفاء بأصول النساء اللائى يعاشرونهن مما كان سببا فى اضطراب

---

(١) المستكفى هو أبو القاسم عبد الله المستكفى بالله بن المكتفى بن المعتضد (الخضرى : تاريخ الامم الاسلامية ص ٥٠٦)

(٢) ادم متز : تاريخ الحضارة الاسلامية ـ ١ ص ٢٠٣.

(٣) رسائل الخوارزمى ص ١٢٧ نقلا عن متز ص ٢٠٥ .

(٤) المروج للمسعودي جـ ٧ ص ٢٧٦ نقلا عن متز ص ٢٠٥ .

البلاط الخليفى ، وكثرة الفتن والدسائس والاغتيالات السياسية لكثرة الاجناس وتنافرها ، وسعى كل إمرأة إلى محاباة أبناء جنسها وقصر المناصب الرفيعة عليهم كما توارت فكرة الولاء للخليفة أو للدولة ، وحلت محلها فكرة الولاء للعنصر فقط بل لقد أدى هذا الامر إلى نتائج خطيرة مثل الصراع بين الاخوة والاشقاء كتلك الحرب التى نشبت بين الامين والمأمون نتيجة ذلك الصراع العنصرى .

وكان اتخاذ الخليفة نساء من غير مبالاة بأصلهن ، وأن كان معظمهن من جوارى الترك والروم . سببا فى إيجاد كثير من الاضطراب فى البلاط وفى المناصب الإدارية العليا ، فكانت كل سيدة تحابى من يتصل بها من الاقارب والاولياء وترفعهم ما استطاعت .. وفى سنة ٣٠١ هـ استطاعت أم موسى الهاشمية قهرمانة السيدة أم الخليفة (١) أن تسعى فى إسناد نقابة بنى هاشم الطالبيين والعباسيين لاخيها ، فضج الهاشميون حتى ردوا النقابة إلى ابن النقيب السابق ، وقد أثبتت التجربة أن كثيراً من المنازعات مصدرها أم الخليفة وقد ذاق المتصلون بالخليفة وبال ذلك حتى أن الخليفة كان ينتخب أحيانا لانه لا أم له رجاء أن تستقيم الأمور معه (٢) .

كما كان الخليفة المقتدر هذا يبالغ فى إقتناء الخدم والخصيان ، وينفق على زينتهم ومآكلهم وملابسهم المبالغ الطائلة ، وكان فى دار المقتدر حوالى عام ٣٠٠هـ ٩١٢ م أحد عشر ألفا من الخدم الخصيان (٣) ، وفى رواية أخرى أنه كان بها

---

(١) السيدة هى أم الخليفة المقتدر جعفر المقتدر بالله بن أبى أحمد بن المتوكل .. ولد سنة ٢٨٢ هـ - وبويع بالخلافة بعد وفاة أخيه (توفى أخوه المكتفى سنة ٢٩٥ هـ) ولم يزل خليفة الى أن قتل فى ٢٨ شوال سنة ٣٢٠ هـ (١ نوفمبر ٩٣٢ م) فتكون مدته ٢٤ سنة و ١١ شهرا و ١٦ يوما الخضرى (ص ٤٥٧).

(٢) أدم متز : تاريخ الحضارة الاسلامية جـ ١ ص ٢٠٦ .

(٣) تاريخ بغداد ط سلمون ص ٩ ، ٤٩ ، نقلا عن القاضى التنوخى (المتوفى عام ٤٤٧ هـ - ١٠٥٥ م وأبو المحاسن جـ ٢ ص ٢٤٨ - متز - جـ ١ ص ٢٠٦ .

سبعة آلاف خادم وسبعمائه حاجب [1] .

ولا عجب بعد ذلك أن تتردى الاحوال فى بغداد ترديا رهيبا ، وأن تتقلص سلطة الدولة إلى الدرجة التى تتيح الفرصة للصوص أن يعملوا فيها السلب والنهب حتى لقد أصبحت بغداد ، هى التى قد تنكرت لها الايام ، وذلك منذ عام ٣١٥ هـ ٩٢٧ م حين أزعجها العيارون ، وعاثوا فيها فساداً، وأعملوا فيها النهب [2] لاول مرة ، ثم صار أمرها يتفاقم كلما ضعفت الحكومة وكانت أسوأ أيامها السنوات التى أفلت فيها الزمام من يد الحكومة فيما بين مقتل بجكم ودخول بنى بويه أى مابين عامى ٣٢٩ ، ٣٣٤ هـ [3] .

ولم يكن ذلك ليحدث لو كانت شخصية الدولة مهابة وكرامة الخليفة محفوظة لدى الناس .

ب ـ استبداد الأمراء ـ بنو بويه :

أدت سياسة الخلفاء العباسيين الفاشلة إلى غروب شمس الخلافة رويدا رويدا حتى أصبح الخليفة غير قادر على الاحتفاظ بمظاهر السيادة الشكلية مثل حقه فى تنصيب وزير يكون عونه فى ادارة البلاد ، أو اقامة الخطبة له فى المساجد ، إلى درجة أن الأمير محمد بن ياقوت حاول أن يتعدى على بعض رسوم الخلافة فى عهد الخليفة الراضى [4] (٣٢٢ هـ - ٣٢٩ هـ) . وذلك بأن أمر خطباء المساجد فى

---

(١) تاريخ بغداد ص ٥١ ـ متز جـ ١ ص ٢٠٦ .

(٢) وصف احوال بغداد وما آلت اليه فى ابن الاثير جـ ٨ ص ١٢٦ ، ١٦٢ .

(٣) آدم متز : تاريخ الحضارة الاسلامية جـ ١ ص ٩ .

(٤) كانت الكلمة العليا فى أول عهد الراضى لوزيره ابن مقلة ولحاجبه محمد بن ياقوت فهما اللذان كان بأيديهما الحل والعقد فى البلاد . وفى سنة ٣٢٣ هـ ـ نظر ابن مقلة فوجد محمد بن ياقوت قد تحكم فى البلاد بأسرها وأنه هو لم يعد بيده شىء فسعى به الى الراضى وأدام السعاية فبلغ ما أراده . (الخضرى ص ٤٩٤) .

بغداد أن يذكر أسمه بعد الخليفة في الدعاء ، ونفذ الخطباء أمره في صلاة الجمعه ، ولما بلغ الراضي هذا التعدى الواضح على رسوم الخلافة غضب وأمر بطرد أولئك الخطباء الذين نفذوا أمر الأمير وأحل آخرين محلهم (١) ، غير أن هـذا لم يحل دون اتخاذ أمير الأمراء « بجكم » خطوة أكثر جرأة بأن نقش صورته على الدينار والدرهم ، فلما رأى الخليفة الراضي هذا اكتفى بأن اغتم كثيرا ولم يجرؤ على محو صورة الأمير الطاغية من وجه السكة الا بعد أن اغتيل بجكم فمحيت صورته التي كانت تمثله في كامل سلاحه وقد كتب تحتها :

إنما العز فا علم   للامير المعظم   سيد الناس بجكم (٢)

وكانت الطبول تدق في الصلوات الخمس أمام باب القصر الخليفي ماعدا أيام الحداد إلا أن ذلك لم يصبح امتيازا للخليفة وحده ، وقد حاول الخليفة أن يحافظ على هذه المزية ويحول دون اتخاذ الأمراء لها ولكن ذلك لم يدم ففي عام ٣٦٨هـ - ٩٧٨ م أمر الخليفة بأن تضرب الدبادب على باب عضد الدولة في أوقات الصلوات الثلاث : الغداة والمغرب والعشاء ، وفي عام ٤١٨ هـ - ١٠٢٧ م أذن الخليفة بعد إباء لجلال الدولة بأن يضرب الطبل أمام دار الأمير خمسا ، كما هو الحال بالنسبة للخليفة تماما . (٣)

وهذا يعني أن الأمور الشكلية التي كانت تميز الخليفة عن غيره قد تلاشت وشاركه فيها غيره من الأمراء العظام الذين حاطوا أنفسهم بكل مظاهر الفخامة والاحترام وكأن الخلفاء كانوا يدركون نقطة الضعف عند أعوانهم أولئك فكانوا يغدقون عليهم من الالقاب الفخمة الرنانة ما يثير العجب والدهشة ، ولقد كانت كلها ألقاب

---

(١) هلال بن الصابي : رسوم دار الخلافة ص ١٣٣ .

(٢) المسعودي : مروج الذهب جـ ٢ ص جـ ٢ ص ٥٢٩ .

(٣) ادم متز : تاريخ الحضارة الاسلامية جـ ١ ص ١٩٥ .

مملكة في غير موضعها حتى لقد تنبه البيروني إلى خطورة هذا الأسراف فقال :

« وبنو العباس لما لقبوا أعوانهم بالألقاب الكاذبة ، وسموا فيها بين الموالى والمعادى ، ونسبوهم إلى الدولة بأسرهم ضاعت دولتهم (١) » .

وبولغ فى هذه الالقاب مبالغةشديدة حتى أسبغت صفات الله تعالى على القواد والأمراء فى عهد البويهيين ، وكان البويهيون أول من سموا وزراءهم باسماء مما ينبغى أن يطلق على الله مثل : الاوحد ، وكافى الكفاه ، وأوحد الكفاة ، وجاوز نفر هذا الحد ، فسموا انفسهم بأمير العالم وسيد الأمراء ولذلك يقول البيرونى بعد ذكره ما تقدم « فأذاقهم الله الخزى فى الحياة الدنيا وأظهر لهم ولغيرهم عجزهم » (٢) .

وكانت هذه الالقاب تثير غضب الشعب المؤمن ، إذا كان الناس يرون فيها تطاولا على ذات الله وعظمته ، وكان العامة فى هذا اكثر ادراكا ووعيا من الخلفاء الذين اتخذوا من توزيع الالقاب وبعثرتها رشوة حقيقية إذ كان الأمير الذى ينعم باللقب يرسل الهدايا والخلع الثمينة إلى القصر الخليفى .

« ولم تكن ثمة قيمة حقيقية إلا للالقاب التى يمنحها الخليفة ، وكان يدفع له من أجلها الشيء الكثير ، وكان ذلك اكبر أبواب دخله فى أواخر القرن الرابع الهجرى فبعد أن لقب أمير بغداد بمالك الدولة فى سنة ٤٢٣ هـ - ١٠٣١ م بعث للخليفة ألطافا كثيرة ، وقد أرسلها قبل التلقيب وأن كان قد أحب أن يلقب أولا ثم يرسلها (٣) .

---

(١) البيرونى : الآثار الباقية ص ١٣٢ — توفى البيرونى عام ٤٤٧ هـ .

(٢) البيرونى الآثار الباقية ص ١٣٤ — ادم متز : تاريخ الحضارة الاسلامية ص ١٩٧ .

(٣) آدم متز : تاريخ الحضارة الاسلامية ج ١ ص ١٩٨ .

ويقع آدم متز فى خطأ كبير حين يتصور أن الالقاب التى كان يعطيها الخليفة ذات قيمة فها هو ذا نفس النص يعترف بأن أمير بغداد أرسل الرشاوى إلى الخليفة قبل أن يعطيه اللقب ، وكان يفضل أن يرسلها بعد اعطائه اللقب أما تحاشيا منه بأن يظن الناس أن الهدايا أرسلت مقابل اللقب وأما خوفا منه أن تذهب الهدايا ولا يأتى اللقب بعدها وهذا هو الاغلب فى ظنى إذ أن الثقة كانت ضعيفة ضعفا شديدا بين الخلفاء والامراء وما أظن أن الخليفة كان مقتنعا بالالقاب التى يبعثرها ، أو أن صاحب اللقب نفسه كان يرى أنها ذات قيمة كبيرة من الناحية المعنوية لأنه اشتراها بالهدايا وكانت هذه الهدايا ألفى دينار ، وثلاثين ألف درهم وعشرة أثواب خز ، ومائة ثوب ديباج مرتفعة ، ومائةأخرى دونها ، وعشرين منا عودا ، وعشرة أمناء كافورا ، وألف مثقال عنبرا ، وألف مثقال مسكا ، وثلاثمائة مبخر صينى ، وأرسل أيضا هدايا أخرى لبعض رجال الحاشية »(١)

ونفر العامة من هذه الألقاب نفورا شديدا حتىأنه عندما لقب جلال الدولة « شاهنشاه الأعظم ملك الملوك » سنة ٤٢٩ هـ - ١٠٣٧ م » وهو اللقب الوثنى القديم ، فنفر العامة من ذلك ، ورموا الخطباء الذين ذكروهفى المساجد بالآجر، ووقعت فتنة ، ومع أن الفقهاء افتوا بأن هذه الاسماء إنما يعتبر فيها القصد والنية وأن ملك الملوك معناه ملك ملوك الأرض وليس فيه مايوجب النكير ولا المماثلة بين المخلوق والخالق وأن هذا اللقب جائز ؛ كما جاز أن يقال:كافى الكفاة ، وقاضى القضاة ، فان كثيرين من أهل الجد والتدقيق لم يرضوا به » (٢)

ويلقى هذا النص الاضواء على طبقة من الفقهاء ورجال الدين الذين وضعوا علمهم الدينى فى خدمة الاغراض الدنيوية لطبقة الأمراء ،ومحاولتهم تهدئة العامة

---

(١) المنتظم ص ١٧٤ ب من مخطوط برلين عن آدم متز : تاريخ الحضارة الاسلامية جـ ١ ص ١٩٨ .

(٢) آدم متز : تاريخ الحضارة الاسلامية جـ ١ ص ١٩٧ .

حين يثورون على طغيان الأمراء وتشبهم فى الالقاب بذات الله العظمى فكانوا يصدرون الفتاوى مبررين للخليفة الذى يعطى وللامير الذى يدفع وللحاشية التى تستفيد غير ناظرين إلى ماضى الأمة الاسلامية وإلى تاريخ الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين الذين كانوا مثالا للزهد والتعفف والبعد عن الالقاب. ولكنها الدولة فى مرحلة انهيارها ، فمن يأتى الخليفة بنفقات القصر وقد نضبت موارد الدولة ، وكانت نفقات دار الخلافة عظيمة جدا ، فكانت نفقات المخابز والمطابخ عشرة آلاف دينار فى الشهر . وكان يطلق فى كل شهر فى جملة نفقات المطابخ لثمن المسك وحده ثلثمائه دينار ، مع أن الخليفة لم يكن يأكل طعاما فيه مسك ، ولا يطرح له إلا اليسير فى الخشكنانج ، وكان يصرف للسقايين مائة وعشرون دينارا فى الشهر ومائتا دينار لثمن الشمع والزيت ، وثلاثون دينارا للادوية ، وثلاثة الاف دينار لنفقات خزائن الكسوة والخلع والطيب وحوائج الوضوء والحمام ونفقات خزائن السلاح وما يرم من الجواش والدروع ويتخذ من النشاب والاعلام ونفقات خزانة السروج والفرش »(١).

وكان على الخليفة لكى يأتى بهذه النفقات الطائلة — مع نضوب موارد الدولة — أن يسرف فى إعتماده على بيع الألقاب للامراء كمورد من موارد خزانته .

ولم يدم الأمر على هذا الحال لأن الخليفة أصبح عاجزاً حتى عن التحكم فى مصروفات قصره بعد أن حجر عليه الأمراء العظام وأصبحوا يصرفون له راتبه حتى أن معز الدولة البويهى ضيق تضييقا شديدا على الخليفة المستكفى سنة ٣٣٤ هـ وفى هذه السنة ، إستولى معز الدولة على كل الأمور المالية من يد الخليفة وأقام

---

(١) كتاب الوزراء ص ١٦ ، ١٨ ، ١٠ ، ٣٥ عن آدم متز : تاريخ الحضارة الاسلامية جـ ١ ص ٢٠٩ .

له لنفقته كل يوم ألفى درهم ، وهو أقل من نصف ما يحتاج اليه[١] ، وبعد ذلك بسنتين قطع عن الخليفة الألفى درهم وعوضه عنها ضياعا من ضياع البصرة وغيرها زيادة على قدر ضياع الخليفة بنحو مائتى ألف دينار فى السنة ، ثم نقص إرتفاعها على مر السنين إلى أن صار خمسين ألف دينار فى السنة [٢] .

غير أن الملاحظ أن تعويض الخليفة باقطاعه بعض الضياع فى البصرة لم يكن إلا خداعا ذلك لأن الأراضى قد لحقها البوار ونقصت غلتها وهاجر منها فلاحوها وكانت الارض حينذاك عبئا على من يملكها ، فقد جفت وتشققت وأهملت المشروعات الزراعية كما بينا عن الحالة الإقتصادية .

وزاد الامر سوءا حين أصبحت دار الخلافة عرضة للسلب والسرقة والاغتصاب بعد موت الخليفة أو خلعه أو اغتياله ، ثم جرت العادة منذ عام ٣٢٤ هـ - ٩٤٥ م أن تنهب دار الخليفة بعد موته أو خلعه حتى لايبقى فيها شيء[٣] وفى سنة ٣٨١ هـ - ٩٩١ م لما خلع الطائع حول ما كان فى دار الخلافة من المال والثياب والأوانى والمصافى والفروش والآلات والرخام والخشب والساج والتماثيل والأبواب والشبابيك حتى خلت دار الخلافة [٤] .

---

(١) كانت نفقات الحضرة فى أيام المعتضد سبعة آلاف دينار فى كل يوم (كتاب الوزراء ص ١٠) .

وفى سنة ٣٣٠ هـ - ٩٤١ م قدر لـ تر نفقات دار الخلافة مائة وخمسون ألف درهم فى السنة (كتاب العيون ص ٢٠٣ أ) من متز : تاريخ الحضارة جـ ١ ص ٢٠٩ هامش .

(٢) متز : تاريخ الحضارة الاسلامية جـ ١ ص ٢٠٩ ، ٢١٠ .

(٣) يحى بن سعيد ص ٨٦ ب - ٨٧ أ . ومسكويه جـ ٦ ص ١٢٤ . ولما مات الراضى أرسل بجكم القائد الى دار الخلافة ، وأخذ فرشا وآلات كان يستحسنها (ابن الأثير جـ ٨ ص ٢٧٦) ، ولما خلع الوزير فى عام ٢٩٩ هـ ٩١١ م نهبت داره وأخربت (كتاب الوزراء ص ٢٩ والمنتظم ص ٤٠ أ) متز : تاريخ الحضارة جـ ١ ص ٢١٠ .

(٤) المنتظم ص ١٣٠ ت وابن الأثير جـ ٩ ص ٥٥ ، ٥٦ — متز : تاريخ الحضارة جـ ١ ص ٢١٠ .

هـذا النص يدل على مدى الاهتزاز الذى ألم بمركز الخلافة العباسية ، حتى جرؤ أولئك الامراء على العبث بها والهـو بمقدراتها . وضاعت هيبـة الخليفة وحرمة قصره لأن القوة انتقلت من يده إلى يد الامراء ولأن الخلفاء كانوا ضعاف الشخصية ، منصرفين عن تدبير الدولة وإصلاح شئونها إلى نسائهم وخمورهم وغلمانهم ومطابخهم وسائر ألوان لهوهم فلحقهم ولحق البلاد بأسرها الأذى الشديد من استبداد الأمراء وطغيانهم .

وكانت دولة البويهيين – على الصعيد الآخر – تنمو وتزدهر بعد أن اقتطع الفرس أجزاء من الدولة العباسية ، أسسوا فوقها عدة ممالك لهم ، فاستولى الطاهريه على خراسان (٢٠٥ - ٢٥٩ هـ) . والصفارية على فارس (٢٥٤ - ٢٩٠ هـ) ، والسامانية على فارس وما وراء النهر (٢٦١ - ٣٨٩ هـ) ، والزيارية على جرجان (٣١٦ - ٤٣٤ هـ) ، ثم دولة بنى بويه الفارسية أيضا (٣٢٠ - ٤٤٧ هـ) .

وكان البويهيون ذوى أثر كبير فى الخلافة العباسية ، وقد يسرت لهم الظروف السيئة التى آلت اليها بغداد فرصة التدخل فى أمورها ، إذ أن الخليفة المتقى الذى تولى الخلافة بعد الراضى كان مجرد العوبة وسط الصراع الذى كان يجرى بين القواد المتصارعين على السلطة من جهه ، والبريدى حاكم خوزستان ، وابن رائق والحمدانيين من جهة أخرى ، وانتهى بالخليفة المتقى المطاف بأن اعتقله الامير التركى توزون وسمل عينيه حين حاول اجراء مفاوضات مع اخشيد مصر . وولى بعده المستكفى الذى لم يكن أقوى منه أو أحسن حالا وانما كان العوبة فى يد امرائه أيضا الذين فشلوا فى ارضاء جندهم وإعطائهم الأرزاق اللازمة ، « فلما عجز الأمراء المسيطرون عليه – أى المستكفى – عن ارضاء جندهم المطالبين بدفع ارزاقهم ، وعجزوا عن القضاء على شبح المجاعة التى كانت تتهدد العراق بالخطر – رأى من الخير أن يرحب بأحمد بن بويه منقذا ومخلصا (١)

(١) كارل بروكلمان : الامبراطورية الاسلامية وانحلالها جـ ٢ ص ٩٤ .

وكان معز الدولة أحمد بن بويه على رأس جيش قلده أياه أخوه على بن بويه الذى كان يرمى إلى بسط سلطانه على الاهواز والعراق : «خطر ببال على بن بويه أن يمد سلطانه إلى الاهواز والعراق لما علمه من ضعف قوة الخليفة ببغداد وكان هو مشغولا بادارة أقليم فارس ، وأخوه الحسن مشغولا ببلاد الجبل ، وأخوهما الأصغر أحمد لا شغل له فسيره على إلى الأهواز فاستولى عليها بعد حروب بينه وبين بجكم الرائق وانهزم بجكم إلى واسط » (١)

وسلمت العراق تسليما هينـــا إلى إبن بويه الذى كاتبه الأمراء الخونة ليدخل بغداد وينقذها من الفوضى السياسية والإقتصادية . فصار أحمد بن بويه يسير إلى واسط ثم يعود عنها حتى كاتبه قواد بغداد يطلبون اليه المسير نحوهم للاستيلاء على بغداد فوصلها فى ١١ جمادى الأولى سنة ٣٣٤ هـ والخليفة بها هو المستكفى بالله » (٢) ودخل أحمد بن بويه بغداد دون قتال دخول المنقذ المخلص .

وكان معز الدولة البويهى يحتقر الخليفة المستكفى لضعفه ولتسليمه بغداد ، وأغلب ظنى أنه كان يخشى مؤامراته ودسائسه ولا يأمن جانبه لأن من خان وسلم عاصمة ملكه ليس ببعيد أن يخون غاصبه البويهى ، ولذلك افتعل معز الدولة منظرا مسرحيا شائنا تم به خلع المستكفى إذ ركب إلى دار الخلافة وسلم على الخليفة وقبل الأرض بين يديه وجلس ، وكان رسول صاحب خراسان وكبار رجال الدولة يحضرون مجلس الخليفة ، وتقدم إثنان من الديلم نحو المستكفى فظن

---

(١) محمد الخضرى : تاريخ الأمم الاسلامية ص ٥١٦ .

(٢) محمد الخضرى : تاريخ الأمم الاسلامية ص ٥١٦

يقول الأستاذ احمد أمين نقلا عن الفخرى ص ٣٣٤ : فى سنة ٣٣٤هـ سار معز الدولة ابن بويه من الاهواز الى بغداد فى خلافة المستكفى فملكها ، ومنحه المستكفى أمرة الأمراء « وأعطاه الطوق والسوار وآلة السلطنة ، وعقد له لواء ، ولقبه معز الدولة ، ولقب أخاه ركن الدولة ، ولقب أخاه الآخر عماد الدولة ، وأمر أن تضرب بألقابهم على الدينار والدرهم » ظهر الاسلام جـ ١ ص ٥١ .

أنهما يريدان تقبيل الأرض بين يديه ولكنهما جذباه من سريره وطرحاه أرضا وجراه بعمامته ، فنهض معز الدولة واضطرب الناس وهرب وجوه القوم وأشرافهم من المجلس ، وسيق الخليفة العباسي المستكفي بالله بن المعتضد بأيدى الديلم إلى دار معز الدولة حيث اعتقل فيها (١).

ويبدو أن البويهيين كانوا مغالين فى الانتصار لمذهبهم الشيعى لدرجة أنهم نكلوا بالخلفاء العباسيين شر تنكيل ليبينوا فى شخصهم مذهب أهل السنة ، فهم لم يكتفوا بخلع المستكفى الذى مهد لهم سبل الإقامة فى بغـــداد بل أحضر « معزالدولة » أباالقاسم الفضل بن المقتدر و بويع بالخلافة وأطلق عليه لقب « المطيع لله » وكان الأحرى أن يطلق عليه لقب « المطيع لبنى بويه » فقد كان الخليفة فى هذا الوقت يأتمر بأمرهم فعلا ولا يملك لهم دفعا ولقد بلغت بهم القسوة الدرجة التى أحضروا فيها المستكفى ليشهد على نفسه بالخلع ثم نكلوا به تنكيلا بشعا بأن سملوا عينيه وظل معتقلا حتى توفى فى ربيع الأول سنة ٣٣٨ هـ . وادعى البويهيون أنهم خلعوا هذا الخليفة لمؤامرة كان يدبرها مع الحمدانيين وبعض قواد الجند لإخراج معز الدولة من بغداد ، غير أن أولئك الأعاجم كانوا يكرهون الخلافة العبـاسية ويسعون لقبرها لأنهم كانوا يرون فيهـا رمزا للعروبة (٢) التى انتصرت على الفرس قـديما وقضت على امبراطوريتهم كما كانوا متشيعين مغالين فى تشيعهم (٣) مثلهم فى ذلك

---

(١) ابن الجوزى : المنتظم جـ ٦ ص ٣٤٢ ، ٣٤٣
ابن طباطبا : الفخرى فى الآداب السلطانية ص ٢١١
احمد أمـين : ظهر الاسلام جـ ١ ص ٥١

(٢) يذكر ادم متز أن بنى بويه كانوا بعيدين عن الثقافة العربية حتى أن معز الدولة لما جاء الى بغداد وملكها احتاج الى من يترجم له كلام الوزير على بن عيسى (تاريخ المعزانى مخطوط بباريس ص ١٠٠ ب) تاريخ الحضارة الاسلامية ص ٢٧ ، ٢٨ .

(٣) م شيعة على المذهب الزيدى مثل الديلم . نشر المذهب الزيدى بينهم الحسن بن على الاطروش خلال اقامته التي استمرت ثلاثة عشر عاما بينهم يدعوهم الى الاسلام على مذهبه =

مثل معظم أهل فارس ، واستندوا إلى رواية تقول أن المستكفى قبض على رئيس الشيعة فى بغداد ورفض شفاعة قائد الجند .

واستمرت سياسة معز الدولة القائمة على إذلال الخليفة قائمة فى معاملته للمطيع الذى كان يعطى مائة دينار فقط لنفقته كل يوم وكان يسافر كالأسير مع معز الدلة إذا خرج للقتال ، ولما ماتت أخت معز الدولة نزل المطيع إلى داره يعزيه [١] ولم تكن العادة جارية بان ينزل الخليفة إلى الامراء فى قصورهم ليعزيهم أو ليهنئهم ولكن حياة المطيع كانت مأساة حقيقية فى ظل إستبداد معز الدولة وابنه بختيار من بعده الذى صادر أموال المطيع وأملاكه ، فقال المطيع أنا ليس لى غير الخطبة ، فان أحببتم إعتزلت [٢] ، ولكن بختيار طالبه بالأموال ، وشدد فى طلبه حتى إضطره إلى بيع كسوته وأثاث مقره وأخذ منه أربعمائة ألف درهم ووجد المطيع أنه من الخير له أن يخلع نفسه وأن يولى إبنه الطائع مكانه .

وكان البويهيون ينطوون على كره شديد للخلافة العباسية السنية ، ولقد حاولوا الغاءها بالفعل . وتنصيب أحد الخلفاء العلويين وبذلك يتم لهم نقل الخلافة من البيت العباسى إلى البيت العلوى ، وقد أرسل معز الدولة بالفعل إلى أحد رجال العلويين فى فارس [٣] ، وأراد منه القدوم إلى بغداد ليتولى أمور المسلمين لأنه كان يرى أحقية آل البيت فى الخلافة ، ولكن العلوى إعتذر عن هذا العرض ، وبذلك فشلت الفكرة بالاضافة إلى أن مستشارى الأمير البويهى وخواصه

= ويقتصر منهم على العشر ويدافع عنهم، قبلوا دعوته وأسلم منهم خلق كثير وكان البويهيون على دين المجوسية وعبدة الأوثان قبل دخول الاطروش بلادهم .

المسعودى : مروج الذهب جـ ٣ ص ٥١١ .

ابن خلدون : العبر جـ ٣ ص ٣٦٦ ، ٣٦٧ .

(١) احمد امين : ظهر الاسلام جـ ١ ص ٥١ .

(٢) نفس المصدر ص ٥١ .

(٣) أبو الريحان البيرونى : الجماهر فى معرفة الجواهر ص ٢٢ ، ٢٣ .

نصحوه بألا يقدم على هذا العمل ، لأن عامة النـاس فى الأقطـار الاسلامية قد إعتادوا الدعوة العباسية ودانو بدولتهم وأطاعوهم طاعة الله ورسوله ورأوهم أولى الأمر » (١) . وتفتق ذهن البويهى أنه إذا أجلس على عرش الخلافة أميرا علويا لاستعصى عليه عزله أو قتله بعد لما يتمتع به من مهابة وقدسية فى نفسه ونفوس أصحابه ، أما الخليفة العباسى فهو — فى رأى البويهيين — مغتصب للعرش ولذلك يسهل عزله أو قتله فى أى وقت ، فأنك اليوم مع خليفة تعتقد أنت وأصحابك أنه ليس من أهل الخلافة ولو أمرتهم بقتله لقتلوه مستحلين دمه، ومتى أجلست بعض العلويين خليفة ، كان معك من تعتقد أنت وأصحابك صحة خلافته، فلو أمرهم بقتلك لفعلوه (٢) ، ولهذا فقد كان وجود الخليفة العباسى أمراً ضروريا وحيويا لتهدئة العامة واستتباب الأمور لبنى بويه الشيعيين .

ولم يستفد الخلفاء العباسيون من مكانتهم الروحية ليدعموا بها مركزهم الذى اهتزت أركانه وتقوضت فى عهد البويهيين الذين كانوا يدعون أنهم يستمدون مركزهم وسلطتهم ونفوذهم من تفويض الخليفة لهم بالحـــكم ، وكانوا يتظاهرون بأنهم يكتسبون رضاه وتأييده ليخدعوا عامة المسلمين بذلك .

وكان مشهد خلع الطائع عن خلافته تكرارا لمشهد خلع المستكفى حين أتاه بعض الديلم متظاهرين بتقبيل يده ثم جذبوه وأنزلوه عن سريره وهو جالس وسط وجوه قومه وأشراف بغداد، فاستغاث بهم ولـكنهم لم يستجيبوا لإستغاثته وفر كل واحد منهم يريد الخلاص من هذا النهب الجماعى الذى وصل إلى أقصى درجاته حين نهبت ملابس القضاة والأشراف الذين كانوا فى مجلس الخليفة حينذاك.

وكان الشريف الرضى حاضرا هذا المجلس ففر هاربا، ووصف المهزلة فى شعر له يقول فيه : (١)

---

(١) نفس المصدر السابق ص ٢٣ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ١٤٩ .

(٣) ديوان الشريف الرضى .

أعجب لمسكة نفسى بعد مارميت من النوائب بالأبكار والعـون
ومن نجائى يوم الدار حين هوى غيرى ولم أخل من حزم ينجيبنى
مرقت منها مروق النجم منكدرا وقد تلاقت مصاريع الهوى دونى
وكنت أول طـــلاع ثنيتها ومن ورائى شر غير مأمون
من بعد ماكان رب الملك مبتسما إلى أدنوه فى النجـوى ويدنينى
أمسيت أرحم من أصبحت أغبطه لقد تقارب بين العز والهون
ومنظر كان بالسراء يضحكنى ياقرب ماعاد بالضراء يبكينى ؟
هيهات أغتر بالسلطان ثانيـة قد ضل ولاج أبواب السلاطين

فقد أصبحت هذه الحوادث كما يبدو من شعر الشريف الرضى مثارا للعجب والدهشة وأى عجب أشد من الإيقاع بالخليفةوأشراف القوم ! وسلبهم مايملكون ومايلبسون ! وهاهو ذا الشريف الرضى ـ بكل رصيده الفكرى والدينى ـ يفر هاربا ويصفه هروبه ذاك بالحزم الذى ينجيه فما قيمة الصمود أمام الديلم الذين لايرعون حرمة ، ولايحفظون عهدا ولا ذماما ؟

لقد إنقلب مجلس الخليفة من مجلس سرور ونجوى إلى مجلس أسى وحزن بعد ماحدث له من هوان وذلة حتى إنقلبت الضحكات إلى دموع والفرحة إلى جزع وإشفاق على مصير الخليفة . من كل هذا نرى أن البويهيين من الفرس سلكوا مع الخلفاء ماسلكه الاتراك من قبلهم ، بل زادوا عليه أحيانا ،ولكن أكبر التبعة تقع على الترك فانهم هم البادئون بانتهاك حرمة الخلافة ، فلم يكن من اليسير بعد إعادة مالها من جلال»(١).

وأدى إزدياد نفوذ البويهيين وطغيانهم على الحياة العامة إلى قـوة النزعات الشعوبية فى الادب حتى أن « مهيـارا الديلمى » يملأ ديوانه فخرا

(١) احمد أمين : ظهر الاسلام جـ ١ ص ٥٤ .

بالجنس الفارسى، ويتغنى بالأعياد الفارسية، ويدعو أبناء جلدته إلى القدوم لبغداد « فقال يفخر »(١).

أعجبت بى بين نادى قومها ... أم سعد فمضت تسأل بى
سرها، ماعلمت من خلقى ... فأرادت علمها ماحسبى
لاتخالى نسبا يخفضنى ... أنا من يرضيك عند النسب
قومى استولوا على الدهر فتى ... ومشوا فوق رؤوس الحقب
عمموا بالشمس هاماتهم ... وبنوا أبياتهم بالشهب
وأبى كسرى على أيوانه ... أين فى الناس أب مثل أبى؟
سورة الملك القدامى وعلى ... شرف الاسلام لى والأدب
قد قبست المجد من خير أب ... وقبست الدين من خير نبى
وضممت الفخر من أطرافه ... سودد الفرس ودين العرب

ويعبر شعر مهيار عن تعصب المسلمين الذين إنحدروا من أصول غير عربية إلى نسبهم فهم يعتزون بالدين الأسلامى ويرون فخر الانتساب اليه لايدانيه فخر، ولكنهم يفخرون بكسرى وبمجده القديم وبسيادتهم التى ذهبت بالسيف العربى وقوة العرب، ولذلك فهم يتخذون الأسلام دينا والفارسية دولة، ويذكرون للعرب دورهم فى محو سؤددهم الغابر فيتحسرون على ذلك وما أن أتاحت لهم الأيام فرصة إذلال العرب حتى أمعنوا فى إذلالهم وكانوا يرون فى الخليفة العباسى رمزا لذلك الجنس الذى محا سيادتهم الغابرة بالرغم من أن الدولة العباسية قامت على أكتاف الفرس، وهيأت لهم إحتلال أرقى المناصب الادارية والعسكرية إلا أن نكبة البرامكة وغيرها كانت تؤرق بال الفرس وتجعلهم ينظرون بريبة إلى تفضيل الخلفاء لهم فى مناصب الوزارة والجيش.

ويمثل عضد الدولة البويهى (ت ٣٧٢ هـ - ٩٨٢ م) طغيان الامراء الحقيقى

---

(١) ديوان مهيار الديلمى : ج ١ ص ٦٤ .

على سلطة الخليفة ، فقد كان هذا الرجل « دون سائر أعضاء أسرته هو الذى يمثل السيد الحاكم تمثيلا حقيقيا ؟ وقد خضعت لسلطانه فى آخر أمره البلاد الممتدة من بحر الخزر إلى كرمان وعمان ، فلا بدع أن يلقب بشاهنشاه (ملك الملوك) لأول مرة فى الاسلام »[1] ، وقد تميز هذا الأمير البويهى بقسوة قلبه الشديدة حتى هابه الناس قاصيهم ودانيهم « وقد بلغـــه عن الوزير أبن بقية أمور ساءته ، فطلب من بختيار بن معز الدولة أن يسلمه اليه فسلمه إليه مسمولا فطرحه عضد الدولة إلى الفيلة ،وأضريت عليه فقتلته شرقتله وهذه العقوبة هى الاولى من نوعها فى الأسلام »[2] .

غير أن عضد الدولة أولى الاصلاحات الداخلية بعض إهـــتماماته فانشأ بيمارستانا سمى « البيمارستان العضدى » فى بغداد سنة ٣٧١ هـ « وأحضر له كل مايلزم من الأدوية والآلات ، ورتب له أربعة وعشرين طبيبا ، منهم الجراحون والكحالون والمجبرون وكان فيه دراسة للطب أيضا ، وممن كان يدرس فيه ابراهيم بن بكس »[3].

وقد ظل البيمارستان العضدى قائما إلى مابعد مائتى سنة . إذ زاره الرحالة ابن جبير وقال : « أنه على نهر دجلة، وتتفقده الاطباء كل يوم اثنين وخميس ، ويطالعون أحوال المرضى به ، ويرتبون لهم أخذ مايحتاجون اليه ، وبين أيديهم قومه يتناولون طبخ الادوية والاغذية ، وهو قصر كبير فيه المقاصير والبيوت وجميع مرافق المساكن الملكية ، والماء يدخل اليه من دجله »[4].

واهتم عضد الدولة كذلك بالأراضى الزراعية التى أصبحت بوارا وبحفر

---

(١) آدم متز : تاريخ الحضارة الاسلامية جـ ١ ص ٣٣

(٢) مسكويه جـ ٦ ص ٤٧٧ ، ٤٨١ عن متز : جـ ١ ص ٣٤ .

(٣) احمد امين : ظهر الاسلام جـ ١ ص ٥٦ ، ٥٧ .

(٤) نفس المصدر ص ٥٧ .

الأبار وبناء القناطر . وكان ببغداد أنهار كثيرة .. وكان منها مرافق للناس لسقى البساتين ولشرب الشفة فى الأطراف البعيدة من دجلة ، فاندفنت مجاريها ،وعفت رسومها ، ونشأ قرن بعد قرن من الناس لايعرفونها ، واضطر الضعفاء إلى أن يشربوا مياه الآبار الثقيلة ، أو يتكلفوا حمل الماء من دجله فى المسافة الطويلة ، فأمر عضد الدولة بحفر عمدانها ورواضعها ، وقد كانت على عمدانها الكبار قناطر قد تهدمت وأهمل أمرها ، وقل الفكر فيها ، فربما إنقطعت بها السبل وربما عمرتها الرعية عمارة ضعيفة على حسب أحوالهم،فلم تكن تخلو من أن تجتاز عليها البهائم والنساء والأطفال والضعفاء فيسقطون ، فبنيت كلها جديدة وثيقة وعملت عملا محكما . وكذلك جرى أمر الجسر ببغداد ، فانه كان لايجتاز عليه إلا المخاطر بنفسه ، لاسيما الراكب لشدة ضيقه وضعفه ، وتزاحم الناس عليه ، فاختيرت له السفن الكبار المتقنة، وعرض حتى صار كالشوارع الفسيحة، وحصن بالدرابزينات ووكل به الحفظة والحراس »(1) .

ولهذا السبب إنتعشت الحياة الاقتصادية فى عهد عضد الدولة، وأغلب الظن أن البويهيين لم يصلحوا حبا فى الاصلاح ، وإنما حبا فى المال ، إذ أن تنشيط الحياة الاقتصادية يعنى زيادة دخل بغداد من التجارة والزراعة وإستقرار الوضع السياسى ، فقد ترك فخر الدولة البويهى (ت ٣٨٧ هـ) ثروة طائلة رغم سوء الأحوال الاقتصادية فى ذلك العصر ، فقد ذكر ابن الصابى أنه خلف ٢٫٨٧٥٫٢٨٤ دينارا ومن الورق والنقد والفضة ١٠٠٫٨٦٠٫٧٩٠ درهما ، ومن الجواهر واليواقيت واللوءلؤ والماس والبلور والسلاح وضروب المتاع شيئا كثيرا وكان شحيحا حتى كانت مفاتيح خزائنه فى الكيس الحديد مسمرا بالمسامير لايفارقه وكذلك يقول ابن الجوزى أن بهاء الدولة جمع من الأموال مالم يجمعه أحد من

---

(1) مسكويه : تجارب الأمم جـ ٦ ص ٤٠٦ نقلا عن احمد أمين : ظهر الاسلام جـ ١ ص ٥٦ .

بنى بويه ، وكان يبخل بالدرهم الواحد ويؤثر المصادرات »(١).

هذا فى الوقت الذى كان العلماء ورجال الفكر يتضورون جوعا مثل «عبدالوهاب البغدادى المالكى » الذى كان حجة زمانه فى المذهب المالكى ، والذى زار معرة النعمان وقابل أبا العلاء المعرى الذى مدحه بقوله :

والمالكى ابن نصر زار فى سفر ... بلادنا فحمدنا النأى والسفرا
إذا تفقه أحيا مالكا جدلا ... وينشر الملك الضليل إن شعرا

هذا الفقيه العظيم يكاد يموت جوعا فى بغداد وفيها من يكنزون الأموال الطائلة من أمراء بنى بويه الاعاجم ، فيضطر إلى الهجرة من بغـــداد قائلا لمن ودعوه لو وجدت بين ظهرانيكم رغيفين كل غداة ماعدلت عن بلدكم(٢) وقال فى ذلك :

سلام على بغداد فى كل موطن ... وحق لها منى سلام مضاعف
فوالله مافارقتها عن قلبى لهـــا ... وإنى بشطى جانبيها لعارف
ولكنها ضاقت على بأسرها ... ولم تكن الأرزاق فيها تساعف
وكانت كخل كنت أهوى دنوة ... وأخلاقه تنأى به وتخالف

« فلما وصل إلى مصر ، مات لأول ماوصلها من أكلة إشتهاها فأكلها، فزعموا أنه قال وهو يتقلب : لا اله إلا الله ، إذا عشنا متنا »(٣)

وكذلك كانت حال « أبى حيان التوحيدى البغدادى » الذى يقول عن نفسه فى كتاب الامتاع والمؤانسة « ولقد إضطربت بينهم بعد العشرة والمعرفة فى أوقات

(١) آدم متز : تاريخ الحضارة الاسلامية جـ ١ ص ٢٩ .
(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ١ ص ٤٣١ .
(٣) أحمد أمين : ظهر الاسلام جـ ١ ص ١١٦ .

كثيرة إلى أكل الخضر فى الصحراء ، وإلى التكفف الفاضح عند الخاصة والعامة ، وإلى بيع الدين والمروءة ، وإلى تعاطى الرياء بالسمعة والنفاق وإلى مالايحسن بالحر رسمه بالقلم ، ويطرح فى قلب صاحب الألم »(١).

فلم يكن استبداد بنى بويه موجها إلى الطبقة الارستقراطية العربية فقــط ، ولكنه كان استبداداً يشمل جميع أفراد الأمة وعلى رأسها خليفتهـــا ، وظهرت حينذاك بعض مظاهر المعارضة لاستبداد البويهيين ولـكنها كانت معارضة هينـه ضعيفة من جانب بعض الخلفاء، بينما كانت آراء بعض العلماء أكثر شجاعة ووضوحا ومثال ذلك أن جلال الدولة طلب من الخليفة القائم بأمر الله سنـــة ٤٢٩ هـ أن يعطيه لقب « ملك الملوك » فتردد الخليفة وتباطأ وكان هذا مظهراً للمعارضة الخائفة لخطورة اللقب ولحساسيته الدينية ، وأحال الأمر إلى علماء الدين وفقهائه فعارضه بشجاعة فائقة قاضى القضاة أبو الحسن الماوردى(٢) بأن امتنع عن الفتيا بينما أبدى آخرون موافقتهم فحاز جلال الدولة اللقب ، ولكنه احترم هـذا العـالم الشجاع الذى أبى أن يفتى بإعطائه إياه فاستدعاه وأكرمه وبذل له الأمان . ولقـد وقف الخليفة القائم موقف المتمعض من الأمير «أبو نصر خسرو فيروز» الذى تولى الإمارة بعد وفاة أبيه « أبى كاليجار » سنة ٤٤٠ هـ حين طلب الأمير من الخليفة تقليـده لقب « الملك الرحيم » وعارض الخليفة لأن الرحمة من صفات الله تعالى « ولا يجوز أن يلقب بأخص صفات الله (٣) » ولكنه وافق فى النهاية مرغما .

وخلاصة الأمر أن نفوذ بنى بويه الذى امتد فى الفـترة ما بـين ٣٣٤ هـ إلى ٤٧٤ هـ قد أصاب بالشلل التام سلطة الخلفاء العباسيين وجعلها رمزاً روحيا خاليا من أى مظهر من مظاهر القوة والتحكم المركزى ، مما مهد السبيل لأمراء الدويلات فى الشام وللدولة الفاطمية فى مصر أن يتطلعوا بأعناقهم يريدون إمتلاك بغداد .

---

(١) نفس المصدر السابق ص ١١٧ .
(٢) ابن الاثير « الكامل ج ٩ ص ٢٢٧ ، ٢٢٨ .
(٣) نفس المصدر السابق .

ثانيا ـ الحياة السياسية فى الشام :

أ ـ الحمدانيون والروم :

كان الشام واقعا بين شقى الرحى حينذاك ، أى بين الروم من الشمال والفاطميين من الجنوب ، وكان العهد الزاهر الذى بدأه الحمدانيون وعلى رأسهم سيف الدولة الحمدانى يوشك أن يغرب ، ذلك العهد الذى شهد انتصارات تاريخية خالدة للعرب على الروم بقيت فى صفحات التاريخ الناصعة وفى شعر المتنبى : (١)

وقفت ومافى الموت شك لواقف ... كأنك فى جفن الردى وهو نائم
تمر بك الأبطال كلمى هزيمة ... ووجهك وضاح وثغرك باسم

وكان سيف الدوله (٣٣٣ - ٣٥٦ هـ) مثلا طيبا للأمير العربى الشجاع الذى يقف بامارته الصغيرة فى وجه إمبراطورية الروم الشاسعة يدافع عن حوض الإسلام والعروبة ، يخرج الغزوة تلو الأخرى ، تارة ينتصر وتارة ينهزم، ولكنه دائما يصمد ويعاود الكرة مرات ، وكان ابن عمه الأمير الشاعر أبوفراس الحمدانى يشاركه جهاده وحربه بعد أن نشأ فى أحضان سيف الدولة أثر مقتل أبيه فشرب حب الجهاد ، وتعلم فى ساحته وغزا معه بعض غزواته ،فقد قال أبوفراس،غزونا مع سيف الدولة وفتحنا حصن العيون فى سنة ٣٢٩ هـ ، وسنى إذ ذاك تسعة عشر عاما ،(٢) وقد أخذ أسيراً فى إحدى غزواته للروم وأرسل إلى القسطنطينية،وبقى فيها أربع سنوات قال فيها أحسن شعره :

دعوتك للجفن القريح المسهد ... لدى وللنوم القليل المشرد
وما ذاك بخلا بالحياة وأنها ... لأول مبذول لأول مجتدى

---

(١) ديوان المتنبى جـ ٣ ص ٣٧٣ .
(٢) احمد أمين ، ظهر الاسلام جـ ١ ص ٨٢ .

ولكننى أختار موت بنى أبى   على سروات الخيل غير موسد
وآبى وتأبى أن أموت موسداً   بأيدى النصارى موت أكمدأ كبد

وهو يستنجد بابن عمه الأمير أن ينقذه من أسر الروم ، وما هذا لأنه يحب الحياة ولكن لأنه يختار الموت وسط أهله وعشيرته على صهوات الخيل مجاهداً محاربا لا أن يموت فى سرير الروم كمدا وغيظا وحسرة .

أن سيف الدولة وأبا فراس[1] يمثلان أصدق تمثيل روح النصف الاول من القرن الرابع الهجرى فى الشام ، يمثلان النخوة العربية التى نفقدها فى بغداد البويهية ويمثلان روح الفداء والجهاد فى سبيل المثل الأعلى فى عصر كادت المثل العليا فيه أن تضيع .

وظلت الحرب سجالا بين سيف الدولة والروم إلى أن حلت النكبة الكبرى باحتلال الروم لحلب . فقد هجم عليها الروم بينما كان سيف الدولة خارج أسوارها على جبل إسمه « بانقوسا » [2] بينما كانت جيوش الروم تزحف على حلب من شمالها فانهزمت جيوش المسلمين شر هزيمة وفر سيف الدولة إلى قنسرين ، وأقام الروم

---

(١) وكان سيف الدولة يعجب جدا بمحاسن أبى فراس ويميزه بالاكرام على سائر قومه ويستصحبه فى غزواته ويستخلفه فى أعماله . وكانت الروم قد أسرته فى بمض وقائعها وهو جريح قد أصابه سهم بقى نصله فى فخذه ونقلته الى خرشنة ثم منها الى قسطنطينية وذلك فى سنة ثمان وأربعين وثلاثمائة وقيل أسر مرتين المرة الأولى بمغارة الكحل فى السنة المذكورة والمرة الثانية أسرة الروم على منبج فى شوال سنة احدى وخمسين وحملوه الى القسطنطينية وظل فى الأسر أربع سنوات توفى سنة ٣٥٧ هـ .

(أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ج ٤ ص ٤٤) .

(٢) فى معجم البلدان ٤٨٢/١ « بانقوسا بالقاف ـ جبل فى ظاهر مدينة حلب من جهة الشمال » وحى بانقوسا اليوم كبير يقع فى الشمال الشرقى للمدينة (تاريخ حلب لأبن العديم ص ١٣٤) .

على ظاهر البلدة أربعة أيام محاصرين لها ، فخرج شيوخ حلب إلى نقفور يسألونه أن يهب لهم البلدة ، فقال لهم تسلمون إلى ابن حمدان . فحلفوا له أن ابن حمدان ما هو فى البلد ، فلما علم أن سيف الدولة غائب عنها طمع فيها وحاصرها (١) ودارت المفاوضات بين الروم والحلبيين من أجل تسليم المدينة ولكنه فاجأهم بالهجوم بعدما تأكد من أن المحاربين قد وضعوا السلاح واستناموا إلى التسليم ، ودافع الحلبيون عن مدينتهم خير دفاع ضد غدر نقفور ومطامعه الدنيئة فى فتح المدينة عنوة ، ولكن رجال الشرطة وبعض اللصوص والعوام انطلقوا ينهبون الدور ويسرقون الحانات أثناء غياب أصحابها فى المحاربة فوق السور ، ولما علم المدافعون بما أصبحت عليه البلدة من فوضى تركوا السور وذهبوا لحماية ممتلكاتهم وأعراضهم فسقطت حلب شر سقوط فى أيدى الروم .

« وأخذ الدمستق منها خلقا من النساء والأطفال ، وقتل معظم الرجال ولم يسلم منه إلا من اعتصم بالقلعة من العلويين والهاشميين والكتاب وأرباب الأموال (٢) وأجرى قائد الروم فى حلب مقتلة عظيمة إنتقاما لمقتل ابن أخت الملك ، فقتل عند ذلك من الاسرى إثنى عشر ألف أسير ، وقيل أكثر من ذلك وقيل أقل ، والله أعلم (٣) .

ونهب الروم كذلك قصر الأمير سيف الدولة كما نهبوا حلب بأسرها طوال ثمانية أيام سوداء أعملوا فيها السلب والنهب وأقام نقفور حلب ثمانية أيام ينهب، ويقتل ، ويسبى باطنا وظاهراً . وقيل : أنه أخرب القصر الذى أنشاه سيف الدولة بالحلبة ، وتناهى فى حسنه ، وعمل له أسواراً . (٤) وقيل « أن ملك

---

(١) زبدة الحلب من تاريخ حلب : ابن العديم ص ١٢٥ .
(٢) نفس المرجع ص ١٣٧ .
(٣) نفس المرجع ص ١٣٨ .
(٤) نفس المرجع ص ١٣٨ .

الروم وجد فيه لسيف الدولة ثلاثمائة وتسعين بدرة ، ووجد له ألفا وأربعمائة بغل ، فأخذها ووجد له من خزائن السلاح ما لايحصى كثرة فقبض جميعهـــا ، وأحرق الدار فلم تعمر بعد ذلك وآثارها [illegible] اليوم طاهرة[1] .

ورحل نقفور عن حلب بعد أن خربها خرابا تاما [illegible] خوفه من استجماع سيف الدولة لعسكره أو بسبب طمعه فى ملك القسطنطينية ولكنه ترك قبل رحيله أسوأ الآثار فقد أحرق المسجد الجامع وأكثر الأسواق .. ، وكان عدة من سبى من الصبيان ، والصبايا بضعة عشر الف صبى وصبية واخذهم معه[2] .

وكان الضعف قد حل بجسم سيف الدولة كما حل فى جسم الامارة الحلبية بالتالى ، وتضافرت عوامل المجاعة والغلاء على أهل الثغور فأضعفت من مقاومتهم الحربية والمعنوية للروم وكان نقفور فى زحفه قد إستولى على أهم الثغور الإسلامية مثل الهارونية وعين زربه ودلوك وأذنه وغير ذلك ، واضطر سيف الدولة إلى الاستعانة بأهل خراسان لصد هذا [illegible] الروى « وورد فى هذا الوقت — ٣٥٤ هـ إلى حلب إنسان من أهل خراسان ومعه عسكر لغزو الروم ، فاتفق مع سيف الدولة على أن يقصدا نقفور وكان سيف الدولة عليلا فحمل فى قبة ، [illegible] لقياه وقد رحل عن المصيصة[3] .

ويصف ابن العديم ماحل بالثغور الإسلامية من المجاعة والغلاء والقحط فيقول:

« وتفرقت جموع الخراسانى لشدة الغلاء فى هذه السنة بحلب والثغور ، وعظم الغلاء والوباء فى المصيصة وطرسوس حتى أكلوا الميتة »[4] ،

وقد لجأ الروم إلى سلاح أقوى وأمضى من كل الأسلحة وهو اتلاف الزرع

---

(١) نفس المرجع السابق ص ١٣٨ ، ١٣٩ .

(٢) نفس المرجع السابق ص ١٣٩ ، ١٤٠ .

(٣) ابن العديم : تاريخ حلب ص ١٤٢ .

(٤) نفس المصدر ص ١٤٢ .

الذى يفلحه المسلمون حتى يحوعوهم : ، وكان المسلمون يخرجون فى كل سنـــة ويزرعون الزرع فيأتى بعساكره ويفسده (١) .

ولعل الغريب أن يهب إلى نجدة سيف الدولة رجل من خراسان ، بينما الأشقاء فى الشام والعـراق يقنعون بالمشاهدة فقط ، ولقد لاحظ « فازيليف » أن سكان خراسان والأماكن البعيدة عن مكة قاعدة الإسلام كانوا أكثر حماسة وغيرة على الإسلام عن الاقربين أمثال العراقيين :

« ومن الملاحظات الشيقة فى القرن التاسع أن أكثر البلاد بعداً عن مكة كانت ترسل اليها أكثر الحجاج حماسا فبينما قبع سكان العـــراق فى عراقهم لما كانوا يتوجسون من الميول الفكرية السائدة ، كان سكان خراسان يبذلون كل الجهود الممكنة لبلوغ المدينة المقدسة ، ولاتزال هذه الظواهر بادية إلى أيامنا هذه لم تكد تتغير فى صورتها » (٢) .

ومن المؤسف حقا أن ملوك الإسلام قد تخلوا عن أهل الرباط بطرسوس حتى اضطر أهلوها إلى تسليم مدينتهم للروم الذين كانوا يفسدون زراعتهم ويحاربونهم بسلاح المجاعة الفتاك ، وتخلى ملوك الإسلام عن أهل الرباط بهـا ، وكان فيهـا فيما ذكر أربعون ألف فارس (٣).

ولما فتح نقفور طرسوس نصب رمحين وضع على أحدهما مصحفا وعلى الآخر الصليب ثم نادى فى أهل طرسوس : « من أختار بلد الإسلام فليقف تحت المصحف ، ومن اختار بلد النصرانية فليقف تحت الصليب » فخرج المسلمون فحزروا بمائة ألف ما بين رجل وأمرأة وصبى وانحازوا إلى إنطاكية (٤) . وتدل هذه الرواية على سوء

---

(١) نفس المصدر السابق ص ١٤٣

(٢) فازيليف : العرب والروم ص ١٤

(٣) ابن العديم « تاريخ حلب ص ١٤٣ .

(٤) نفس المصدر ص ١٤٣ .

الحال الذى صار إليه الشام ، وعلى يأس الشاميين من حكامهم ونظمهم السياسية حتى حتى أنهم يختارون الانضمام إلى نقفور الصليبي ذى النزعة العنصرية الهادفة إلى الاستيلاء على بيت المقدس بدليل أنه لما استولى على طرسوس، وقف يخطب على منبر جامعها وقال لمن حوله : أين أنا ؟ فقالوا : على منبر طرسوس. فقال : لا ، ولكنى على منبر بيت المقدس وهذه كانت تمنعكم من ذلك [1] . وكان الأجدر بأمراء الشام أن يتحدوا وأن يقفوا مع سيف الدولة فى وجه هذا الخطر الداهم ولكنهم استهانوا به ، وشغلتهم مطامعهم الشخصية الوضيعة فأخذت بلادهم تسقط مثل أوراق الخريف واحدة تلو الأخرى فى أيدى الروم فسقطت كفر طاب ، وشيزر وحماة ، وعرقة ، وجبلة ، ومعرة النعمان ، ومعرة مصرين وتيزين ، ثم خاتمة المآسى سقوط انطاكية فى سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة .

ولم يسلم سيف الدولة من خيانات الأصدقاء وفتن الأعوان الذين استغلوا ذهابه لتبادل الأسرى مع الروم وأعملوا فى حلب المستردة المهيضة التى كانت فى درر النقاهة أمور الشغب وألوان المؤامرات . بينما كان سيف الدولة المريض المجروح فى كرامته يرهن ممتلكاته الثمينة لدى الروم من أجل إطلاق الأسرى المسلمين بعد أن استردوا الأسارى الروم جميعهم ونفدت أموال سيف الدولة وبقى من المسلمين نفر يحتاجون إلى الفداء . وسار سيف الدولة بالبطارقة إلى الفداء ، ففدى بهم أبا فراس ابن عمه ، وجماعة من أهله ، وغلامه رقطاش ، ومن كان بقى من شيوخ الحصيين والحلبيين . ولما لم يبق معه من أسرى الروم أحد اشترى بقية المسلمين من العدو كل رجل باثنين وسبعين دينارا [2] حتى نفد ما كان معه من المال

(١) ابن العديم ، تاريخ حلب ص ١٤٣ . نقل ياقوت فى معجم البلدان ٣/٢٧ ، تفصيل ماجاء عند ابن العديم : « وحدث أبو القاسم التنوخى قال : اخبرنى ممن جلا عن ذلك الثغر : أن نقفور لما فتح طرسوس نصب فى ظاهرها علمين ونادى مناديه من أراد بلاد الملك الرحيم وأحب العدل و .. فليصر تحت هذا العلم ليقفل مع الملك الى بلاد الروم ومن أراد الزنا واللواط والجور .. فليحصل تحت هذا العلم الى بلاد الاسلام »!

(٢) فى الذهبى بحاشية مسكويه « كل واحد بثمانين دينارا فأحضر سيف الدولة أثمان الفى رأس وذلك مائة وستون الف دينار » تاريخ حلب لابن العديم ص ١٤٦ هامش .

فاشترى الباقين ورهن عليهم بدنته الجوهر المعدومة المثل »[١] فما كان جزاؤه إلا انضمام بعض أولئك الذين اشتراهم بماله وأطلقهم من أسر الروم إلى دزبر وابن الاهوازىاللذين شقا عصا الطاعة على الأمير أثناء مباحثاته مع الروم فى الفداء سميساط على شاطىء الفرات وخرج اليهما سيف الدولة بعد وصوله إلى حلب بعسكره الضعيف المنهك وكان قد فلج وبطل شقه الايسر « ووضع السيف فى عسكر دزبر وضع محنق مغيظ فقتل جمعا كثيرا ، وأسر خلقا ، فقتلهم صبرا . وكان فيهم جماعة ممن اشتراه بماله من الروم فسبقوه الى الشام ، وقبضوا الرزق من ابن الاهوازى ، وجعلوا يقاتلونه ، فما أبقى علىأحد منهم. وحصل دزبر وابن الاهوازى فى أسره . فأما دزبر فقتله ليومه ، واما ابن الاهوازى فاستبقاه أياما ثم قتله » [٢] .

وتعتبر وفاة سيف الدولة سنة ست وخمسين وثلاثمائة نهاية مجيدة من حكم عربى أصيل هو حكم الأسرة الحمدانية التى كانت مستقلة كل الاستقلال رغم إعلان سيف الدولة ولاءه للدولة الفاطمية فى مصر وإتباعه المذهب الشيعى ،وعلى الرغم من أن سيف الدولة أعلن الطاعة الفاطميين عندما نشروا سلطانهم على مصر ، وبالتالى إتبع المذهب الشيعى ، فقد احتفظ بسيادته التامة فى جميع أرجاء ملكه [٣] .

فهذا الأمير العظيم قد حفظ لحلب استقلالها عن القاهرة ، كما حفظ للعروبة والإسلام ديارهما بوقف السيل البيزنطى من الانسياح فى أرجاء الشام وبسط نفوذه على القدس أو طرق أبواب مصر وبغداد لو قدر للروم تدمير الحمدانيين منذ البداية .

---

(١) ابن العديم : تاريخ حلب ص ١٤٦ .

(٢) ابن العديم : تاريخ حلب ص ١٥٠ ، ١٥١

(٣) بروكلمان : الامبراطورية الاسلامية واحلافها ج ٢ ص ٨٩ ، ٩٠ .

وطويت صفحة مجيدة بوفاة سيف الدولة ، وأتت بعدها صفحات سود تشهد الكثير من المؤامرات والدسائس والفتن فى البيت الحمدانى ذاته ، مما سهل على الروم توجيه ضربات قاتلة لهم ، ففى حوادث سنة ٣٥٧هـ استولى ملك الروم على معرة النعمان وغيرها وساق الكثير من أهاليها أسارى إلى بلاد الروم :

« ثم أن نقفور ملك الروم خرج إلى معرة النعمان ففتحها ، وأخرب جامعها وأكثر دورها ، وكذلك فعل بمعرة مصرين ، ولكنه أمن أهلها من القتل وكانوا ألفا ومائتى نفس ، وأسرهم ، وسيرهم إلى بلد الروم »[1] .

وشهدت معرة النعمان هـــذا الغزو ، ولا شك أن أسرها قد ابتليت بفقد الكثيرين من أبنائها ما بين قتلى وأسرى ، وأغلب الظن أن المعرى سمع من أهل المعرة الكثير عن فظائع الجيوش الرومية التى أحرقت الزرع وأهلكت النسل والضرع ، وأعملت فى المسلمين سيف الذلة والمهانة .

وقد انساحت الجيوش الرومية فى أنحاء الشام تفتح ، وتقتل وتسبي وتحرق ، فها هو ذا نقفور ملك الروم « سار إلى كفر طاب وشيزر ، وأحرق جامعها ثم إلى حماه ففعل كذلك ، ثم إلى حمص ، وأسر من كان صـــار إلى تلك الناحية من الجفلة »[2] .

وتهاوى حكام المدن أمام نقفور ، وأخذوا يسلمون له دون قتال ، ويدفعون له الرهائن ، وينضوون تحت لوائه مثلما فعل أبو الحسين على بن ابراهيم بن يوسف الفصيص « ووصل — أى نقفور — إلى عرقة ففتحها وأسر أهلها ، ثم نفذ إلى طرابلس وكان أهلها قد احرقوا ربضها ، فانصرف إلى جبله[3] ففتحها ، ومنها

---

(١) ابن العديم : تاريخ حلب ص ١٥٨ .

(٢) نفس المصدر .

(٣) فى معجم البلدان لياقوت ٢/٣٤ : « جبلة : قلعة مشهورة بساحل الشام من أعمال

إلى اللاذقيه فانحدر اليه أبو الحسين على بن ابرهيم بن يوسف القصيص ، فوافقه على رهائن تدفع اليه منها ، وانتسب له فعرف نقفور سلفه وجعله سردغوس (١) وسلم أهل اللاذقية (٢) .

وشهد الشام بأسره مقتلة عظيمة على يد الطاغية الرومى نقفور الذى لم يجد أمامة قوة حقيقية تردعه ، فانطلق حتى انطاكية :

« وانتهى إلى انطاكية ، وفى يده من السبى مائة ألف رأس ، ولم يكن يأخذ إلا الصبيان والصبايا والشباب ، فأما الكهول والمشايخ والعجائز فنهم من قتله ومنهم من تركه . وقيل بأنه فتح فى هذه الخرجة ثمانية عشر منبراً ، وأما القرى فلا يحصى عدد ما أخرب منها وأحرق ، ونزل بالقرب من انطاكية ، فلم يقاتلهم ولم يراسلهم بشىء » (٣) .

واشتعلت نار الفتن الداخلية فى عهد سعيد الدولة (٣٥٦ هـ — ٣٨٦ هـ) ، الذ أشار عليه حاجبه « قرغويه » بمغادرة حلب لتجنب حصار الروم له فيها ، فلما خرج من حلب حسب مشورة حاجبه أرسل له عبارة ساخرة يقول له فيها أمض إلى والدتك فان أهل حلب لا يريدونك ، ولا يتركونك تعود اليهم (٤) .

ويبدو أن هذا الأمير كان مكروها من رعيته بدليل أن قرغوية إستطاع

—حلب قلب اللاذقية . ولم تزل جيلة بأيدى المسلمين على أحسن حال حتى قوى الروم وافتتحوا ثغور المسلمين فكان فيما أخذوه جيلة فى سنة ٣٥٧ هـ بعد وفاة سيف الدولة بسنة ولم تزل بأيديهم الى سنة ٤٧٤ هـ « ابن العديم : تاريخ حلب ص ١٠٨ هامش .

(١) سردغوس : كلمة يونانية معناها الاسطراطيغوس وهو حاكم المدينة العسكرى . ابن العديم : تاريخ حلب ص ١٠٩ هامش .

(٢) ابن العديم : تاريخ حلب ص ١٠٨ ، ١٠٩ .

(٣) نفس المرجع ص ١٠٩ .

(٤) ابن العديم : تاريخ حلب ص ١٦٠ .

اقصاءه عن امارة حلب بسهولة ، وتودد إلى العامة بأن رمم الحصون والأسوار وأجرى بعض الإصلاحات فيها ، ولما قطع قرغويه الخطبة لسعد الدولة على منابر حلب يئس سعد الدولة من العودة لها ،ورأى أن يقصد حران « فمنعه أهلها منها ، وراسلهم ووعدهم بالجميل فلم يستجيبوا له ، فسألهم أن يتزود منها يومين ، فأذنوا له فى ذلك » (١) .

واضطر فى النهاية أن يسمع نصيحة حاجبه قرغويه وأن يقصد أمه فى قلعة ميافارقين التى لم تفتح له ابواب المدينة إلا بعد ثلاثة أيام وهو ينتظر لتستوثق من شخصيته .

ولعبت « معرة النعمان » دوراً بارزا فى الصراع الذى نشب بين سعد الدولة وقرغويه الذى تمادى فى استقلاله فأمر غلامه بكجور « وشاركه فى الامر ودعى لها على المنابر فى عمله ، وكتب اسم بكجور على السكة وكان يخاطب قرغـــويه بالحاجب ، وغلامه بكجور بالامير » (٢)

واستحالت امارة حلب الحدانية إلى امارة قرغوية وبكجور . فثار غلمان سيف الدولة الاوفياء الذين يحفظون لأميرهم الراحل بطولته وشهامته وتجمعوا حول غلامه « زهير » فى معرة النعمان وأرسلوا فى طلب سعد الدولة ليقودهم نحو فتح حلب واستردادها من أيدى قرغوية وبكجور ونشبت الحروب المتواصلة بين الطرفين المتخاصمين سعد الدولة الامير المطرود وحاجبقرغوية الذى اغتصب الامارة وشاركه فيها بكجور :

« وحصل زهير غلام سيف الدولة بمعرة النعمان ، وكان واليها، وانضاف اليـه جماعة من غلمان سيف الدولة فأقاموا الدعوة بالمعرة لسعد الدولة،وكاتبوا مولاهم سعد الدولةابا المعالى ، واستدعوه إلى الشام فسار ونزل منبج فاجتمعوا معه (٣)

---

(١) نفس المصدر السابق ص ١٦٠ ، ١٦١ .
(٢) نفس المصدر ص ١٦١ .
(٣) ابن العديم : تاريخ حلب ص ١٦١ .

ولما وجد قرغوية وبكجور رجوع سعد الدوله على رأس مناصريه لاسترداد حلب تحالفا مع الروم الذين كانوا فى ذلك الوقت يقصدون حلب لفتحها ، ورأى مهانة أكثر من أن يلجأ أمراء المسلمين إلى دولة الروم لينتصروا بها على مواطنيهم وبنى ملتهم .

« انصاع قرغوية لاوامر الروم وشروطهم القاسية » فهادنهم قرغوية على حمل الجزية (١) ، على كل صغير وكبير من سكان المواضع التى وقعت الهدنة عليها ، دينار ، قيمته ستة عشر درهما اسلامية وأن يحمل اليهم فى كل سنة عن البلاد التى وقعت الهدنة (٢) عليها سبعمائه ألف درهم والبلاد : حمص ، وجوسية ، وسلمية ، وحماة وشيزر ، وكفر طاب وأفامية ومعرة النعمان ، وحلب . (٣)

ورفضت « معرة النعمان » هذا الشرط فلم تؤد الجزية إلى النصارى وكان سعد الدولة الحمدانى معسكرا بها لمدة ثلاث سنوات .

وأقام سعد الدولة ابو المعالى بمعرة النعمان ثلاث سنين ، وراسله الحاجب وبكجور ومشايخ حلب فى سنة ثمان وخمسين على أن يؤدى إلى الروم قسطا من مال الهدنة . وكان القيم بأمر أبى المعالى وعسكره قطاش غلام سيف الدولة ، وكان

---

(١) فى ابن الاثير : « فخرج اليهم جماعة من أهل حلب وتوسطوا بينهم وبين قرغويه وترددت الرسل ، فاستقر الأمر بينهم على هدنة مؤبدة على مال يحمله قرغويه اليهم .

وفى يحيى بن سعيد ص ١٢٥ ونازل الروم المدينة وحاصروها سبعة وعشرين يوما وترددت المراسلات بينه وبين أهلها الى ان تقرر الأمر على صلح وهدنة مؤبدة « ابن العديم هامش ص ١٦٣ .

(٢) فى يحيى بن سعيد ١٢٦ ومال يحمل الى ملك الروم فى كل سنة حلب وحمص وجميع أعمالها من المدن والقرى ، وهو ثلاثة قناطير ذهب عن حق الأرض ، وسبع قناطر ذهب من خراج هذه الأعمال ، ومن كل رجل حالم دينار واحد فى السنة ابن العديم : تاريخ حلب ص ١٦٣ ، ١٦٤ هامش .

(٣) ابن العديم : تاريخ حلب ص ١٦٤

قد نزل اليه من حصن ابرزوميه وحمل اليه غلة عظيمة وعلوفة وطعاما ووسع على عسكره بعد الضائقة (١).

ولاشك أن قبول بكجور لشروط الروم فى الهدنة قد اغضب عامة المسلمين وفقهاءهم وعلماءهم ، كما أن رفض سعد الدولة الحمدانى لهذه الشروط المهينة قد رفعت قدره أمام الشعب الشامى وحلب بخاصة التى تنكرت له قبل ذلك . ولذلك اطمأن الروم إلى قرغوية وبكجور واشترطوا وجودهما فى دست الحكم بحلب حتى إذا ذهب عين الروم حاكما يتفق مع مبادئهم ويدين لهم بالولاء . وشرطوا أن الامير على المسلمين قرغويه ، والامر بعده لبكجور ، وبعدهما ينصب ملك الروم أميرا يختاره من سكان حلب وليس للمسلمين أن ينصبوا احدا ، ولا يؤخذ من نصرانى جزية فى هذه الأعمال ، إلا إذا كان له بها مسكن أو ضيعة (٢).

وهكذا سلبت كل السلطات من حلب وأصبحت مجرد ضيعة تابعة للامبراطور البيزنطى ، وشدد الروم قبضتهم على الشام كله وكأنهم كانوا يتطلعون حسب قول نقفور إلى أن يطرقوا أبواب بيت المقدس .

وان شروط الهدنة التى وضعها الروم جعلت من عسكر المسلمين جبهة تحمى ظهرهم ، وتدافع عنهم وتخوض الحروب من أجل الدفاع عن ثغورهم :

« وان ورد عسكر اسلامى يريد غزو الروم منعه قرغوية ، وقال له : امضى من غير بلادنا ، ولا تدخل بلد الهدنة . فان لم يسمع أمير ذلك الجيش قاتله ومنعه . (٣).

وحتمت شروط الهدنة على المسلمين أن يبلغوا الروم عن أى حشود تكون مدبرة

---

(١) نفس المصدر السابق ص ١٦٩.
(٢) ابن العديم : تاريخ حلب ص ١٦٥ .
(٣) ابن العديم : تاريخ حلب ص ١٦٥ .

ضدهم وأن ينضموا بجيوشهم إلى جيوش الروم لتعزيزها فى حـــال الهجوم على الأعداء ـ على أن يكونوا غير مسلمين ـ وأن يمنعوا اهل الضياع من الهـرب أمام زحف جيوش الروم حتى يضمنوا للجيش مئونته وطعامه ، واستعملت المعاهده كلمة (الأمر) فيما يصدر من الروم الى العرب .

« ومتى وقف المسلمون على حال عسكر كبـير كتبوا إلى الملك وإلى رئيس العسكر وأعلموهما به لينظروا فى أمرها . وإن عزم الملك أو رئيس العسكر على الغزاة إلى بلد الأسلام ، تلقاه بكجور إلى المكان الذى (يؤمر) بتلقيه اليه، وأن يشيعه فى أعمال الهدنة ، ولايهرب من فى الضياع ليبتاع العسكر الرومى مايحتاجون اليه ، سوى التبن[١] ، فانه يؤخذ منهم على رسم العساكر بغير شيء » وأصبح الناس فى شدة من أمرهم ، فالعساكر جندت من أجل الحروب التى يخوضها الروم مع أعدائهم دون أن يكون لبلادهم نفع أو هدف من الحرب ، والعامة جندت أيضا من أجل إمداد جيوش الروم بالطعام — بأبخس الأثمان — ، وبعلف الحيوان مجانا ودون مقابل ، وأمن بكجور الخائن على هذه الشروط ما دامت تضمن له ولقرغويه — الخائن الثانى — كرسى حلب الزائل .

وحرم على المسلمين إقامة حصون لهم ، أو إزالة حصن قائم يستفيد بوجوده الروم ، كما حرم عليهم مكاتبة أو استقبال أحد من أمراء المسلمين عـــدا قرغوية وبكجور حتى اذا ماتا ولى ملك الروم عليهم من يأمن جانبه :

« ولايخرب المسلمون حصنا ، ولا يحدثوا حصنا ، فان خرب شيء أعادوه ولا يقبل المسلمون أميرا مسلما ، ولايكاتبوا أحدا غير الحاجب وبكجور . فان توفيا لم يكن لهم أن يقبلوا أميرا من بلاد الأسلام، ولايلتمسوا من المسلمين معونة،

---

(١) فى ابن الاثير ٧ / ٣٧ : «وأن يكون الروم اذا ارادوا الغزاة لا يمكن قرغويه اهل القرايا من الجلاء عنها ليبتاع الروم ما يحتاجون اليه منها » .

بل ينصب لهم من يختاره من بلاد الهدنة »(١) .

وعلى أمير حلب التابع مسئولية حماية القوافل التجارية القادمة من بلاد الروم، وحراستها منذ دخولها الحدود حتى وصولها المدينة، فاذا نهبها الاعراب أو البدو كان على الأمير أن يدفع تعويضا مناسبا عما فقد فى القافلة .

ومتى جاءت قافلة من الروم، تقصد حلب، يكتب الزروار(٢) المقيم فى الطرف الى الأمير ، ويخبره بذلك لينفذ من يتسلمها ، ويوصلها الى حلب . وأن قطع الطريق عليها بعد ذلك ، فعلى الأمير أن يعطيهم ماذهب. وكذلك أن قطع على القافلة أعراب او مسلمون فى بلد الأمير فعلى الأمير غرامة ذلك.

ورحل الروم عن حلب بعد أن وقعوا هذه الاتفاقية المهينة للمسلمين وأخذوا الرهائن تضمن تنفيذ بنودها من رجالات حلب وأشرافها ، ويحفظ التاريخ للامير سعد الدولة الحدانى الذى كان مرابطاً فى معرة النعمان رفضه دفع المال الذى اشترطته الهدنة على منطقة « معرة النعمان » أو البلاد التى فى يده « ولم يسود سعد الدولة ما هو مقرر من مال الهدنة على البلاد التى فى يده (٣) .

ولم تدم حال الصفاء بين قرغوية وغلامه بكجور ، إذ سرعان ماطمع بكجور فى الانفرد بالحكم ، ودبر مكيدة للغدر بسيده قرغويه فقبض عليه وأودعه القلعة، وانفرد بكجور بالحكم .

واستغل سعد الدولة الصراع القائم بين الخائنين ، فزحف بجيوشه من حمص

---

(١) ابن العديم : تاريخ حلب ص ١٦٧ .

(٢) فى كتاب صورة الارض لابن حوقل ١٩٦ ط . الاستاذ كرامرز ، تفصيل المناصب عند الروم يقول : « ثم الدمستق من بعد ، ثم البطارقة وهم اثنا عشر رجلا لا ينقصون ولا يزيدون بوجه ، واذا هلك احدهم قام مقامه من يصلح له . ثم الزراورة وهم كثير لايحصون كالقـواد اللاحقين بالامـراء . ابن العديم : تاريخ حلب ص ١٦٨ هامش .

(٣) ابن العديم : تاريخ ص ١٦٨ .

حيث كان يقيم ، يناصره بنو كلاب ، وذهب إلى معرة النعمان ليؤدب غـــلامه زهيرا الحمدانى الذى إستقل بها . وتعرضت معرة النعمان لقتال مرير بين زهـــير والجيوش المحاصرة بقيادة سعد الدولة وذلك فى عام ٣٦٤ ﻫ أى بعد مولد المعرى بعام واحد فقط :

« وكان سعد الدولة إذ ذاك بحمص ، فحين علم بذلك طمع بحلب فتوجه اليها ومعه بنو كلاب ، بعد أن أقطعهم بحمص الاقطاع المعروف بالحصى ، فنزل بهم على معرة النعمان ، وبها زهيرا الحمدانى ، وقد استولى عليها ، وعصى على مولاه ففتح باب حناك(١) ، ودخلوا منه فقاتلهم زهير ، وأخرجهم . ثم أحرقوا باب حمص ، فخرج زهير مسلما نفسه بعد أن حلف له كبار الحمدانية أنهم لايمكنوا أبا المعالى منه ... (٢) .

وحاصر سعد الدولة حلب بعد انتصاره على زهير الحمـــدانى ، ولم يستطع بكجور دفعاً له فأعلن التسليم ، وتوسط أبو الحسن على بن الحسين المغربى الكاتب ، والد الوزير أبى القاسم بين بكجور وسعد الدولة . فأعلن سعد الدولة العفو عن بكجور وولاه حمص وجندها . واستقر الأمر لسعد الدولة سنة ٣٦٧ ﻫ فى حلب وأخذ فى تجديد المسجد الجامع بها ، واهتم بترميم أسوارها وتقوية حصونهـــا إستعداداً لملاقاة أعدائه الروم الذين عاودوا الهجوم على حلب سنة إحدى وسبعين وثلاثمائة ، وردهم سعد الدولة بقبول دفع مال الهدنة اليهم واستقر « الأمر أن يحمل الروم كل سنة اربعمائة ألف درهم فضة (٣) » . ولايعد هذا إنتقاصا فى مكانة

(١) فى معجم البلدان لياقوت ج ٢ ص ٣٤٥ » حناك : بالضم وآخره كاف حصن كان بمعرة النعمان . وكان حصنا مكينا خربه عبدالله بن طاهر فى سنة ٢٠٩ ﻫ . فيما خرب من حصون الشام لما عصى نصر بن شبث . فلما ظفر به خرب الحصون لئلا يطمع غيره فى مثل فعله

(٢) ابن العديم : تاريخ حلب ص ١٧١ .

(٣) ابن العديم : تاريخ حلب ص ١٧٤ .

سعد الدولة الذى رفض أساساً قبول شروط الهدنة المهينة . إذ أنه كان أميراً على إمارة حطمتها الحروب والفتن المتواصلة ، وأغلب ظنى أنه كان فى حاجة ماسة إلى التقاط الأنفاس وتقوية الجيش ، وإصلاح الأسوار ، وعمـــارة الأسواق التى خربت ، وزراعة الأراضى التى هجرت . ولذلك فقد كان من الحـكمة أن يرد الروم عن حلب بهذه الوسيلة بعد أن قضى على نفوذهم الحقيقى بوجود قرغويه وبكجور فى إمارة حلب ، وهما اللذان وقعا شروط الهدنة وكان من أهم بنودها ألا يتولى أمر المسلمين بعد ذهابهما إلا من يرضى عنـه الروم ، ويولونه أمـور حلب . وها هوذا سعد الدولة يستولى على حلب بقوة السيف ويقصى عنها الخائنين قرغوية وبكجور ـ فكأنه بذلك قطع رقاب الهدنة المعقودة بينها وبين الروم.

ولم يرض الروم بهزيمتهم المؤقتة ، ورجوعهم عن حلب نظير وعد بدفع مال سنوى قد لا يأتى ، فجردوا سنة ٣٨٣ هـ حملة قوية فى خمسمائة ألف مابين فارس وراجل بقيادة بردس الدمستق الذى كان « قد ضمن لباسيل وقسطنطين ملكى الروم الآخرين أن يفتتح حلب ، وينقض سورها حجراً حجراً ، وأنه يحمل سبيها إلى القسطنطينية (١) .

وحاصر جيش الروم حلب بقيادة ملك الجزرية تريثاويل (٢) ، وبعد حصار دام سبعة أيام خرج اليهم جيش سعد الدولة ، وحمل على الروم حملة شديدة قتل فيها ملكهم وقائدهم و وتقهقر جيش الروم ، وفر ناجيـا ، وتعقبت فلوله جيش المسلمين تدمر حصونه ، وتصطاد فلوله : « وسير سعد الدولة جيشه خلفه غازيا حتى بلغت عساكره انطاكية . وكان الجيش مع وزيره أبى الحسن على بن الحسين ابن المغربى ، فافتتح فى طريقه دير سمعان عنوة بالسيف ، وخرب دير سمعان ،

(١) نفس المصدر السابق ص ١٧٤ .

(٢) رسم المستشرق فريتاغ ص ٥١ هذا الاسم « تريثاويل » كما يلى Taritsawil المصدر السابق ص ١٧٤ هامش .

وكان بنية عظيمة وحصنا قويا (١) » .

وكان هذا النصر بارقة أمل فى حياة الدولة الإسلامية بعد طول خذلان وإنكسار أمم جيوش الروم،أعاد إلى الأذهان بطولات سيف الدولةومطارداته للجيوش الرومية أو إعلائه لواء الإسلام على ألوية الروم .

غير أن دماء الخيانة التى تجرى فى عروق بكجور ظلت كما هى رغم عفو سعد الدولة عنه وتوليته أمر حمص ، إذ ما يكاد الروم يلتقطون أنفاسهم ويريدون تغطية هزيمتهم عند أسوار حلب، فيقصدون حمص وعلى رأسها بكجور فيفر هاربا ويترك المدينة نهبا للجيوش الرومية تحرق جامعها وتنهب أسواقها :

« ولما يئس الدمستق من حلب ، وخاف على نفسه أن يقتله ملك الروم ، خرج إلى جهة حمص ، فهرب بكجور من حمص إلى جوسيه، فكاتب الدمستق أهل حمص بالأمان ، واظهر لهم انه يسير إلى دمشق ، وانه مهادن لجميع اعمال سعد الدولة فاطمأنوا إلى ذلك ، وامرهم بإقامة الزاد والعلوفة . وهجم حمص ... واحرق الروم الجامع وكثيرا من البلد (٢) » .

ويئس سعد الدولة من بكجور وخياناته المتكررة ، فطرده من بلاده ، فما كان من بكجور إلا أن توجه إلى دمشق التى كانت تابعة للفاطميين فى مصر ،

« فلما كان فى سنة ٣٧٢ هـ وقعت الوحشة بين سعد الدولة أبى المعالى ابن سيف الدولة ابن حمدان صاحب حلب وبين بكجور وراسله بأن يخرج من بلاده فكتب بكجور إلى العزيز يسأله إنجاز الوعد بولاية دمشق ودعت الحاجة إلى عود القائد بكجور مقدم العسكر المصرى بحكم اعتزام المغاربه على الوثوب بالوزير ابن كلس وقتله،وقادت الضرورة العزيز إلى أن ولى بكجور دمشق وكتب إلى بلتكين

(١) المصدر السابق ص ١٧٤ .

(٢) ابن العديم : تاريخ حلب ص ١٧٧ .

ومنشأ كاتب الجيش بأن يسلم البلد إلى بكجور ويرحل عنه[1] » .

وتسابق سعد الدولة وبكجور فى الولاء المصريين الذين كانوا يمثلون أقوى سلطة إسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، وتوسلا إلى ذلك بإعلان التبعية للقاهرة . وكان سعد الدولة قد انتمى إلى المصريين فى سنة ست وسبعين وثلاثمائة ، ووصلته خلع العزيز أبى المنصور ، فى شعبان من هذه السنة فلبسها [2] .

وكذلك أعلن بكجور الولاء للمصريين حين انصرف عن دمشق لكره أهلها له ، واستيلائه على الرقة وإقامة الدعوة فيها للمصريين أيضا ، واستطاع بكجور أن يستقطب حوله الكثير من القوى المناوئة لسعد الدولة وأهمها قبائل بنى كلاب ، كما اصطنع اليه الوزير أبا الحسن على بن الحسين المغربى الذى قامت الخصومة بينه وبين سعد الدولة فانضم الى عدوه . وتفاقم أمر الخلاف بين سعد الدولة وبكجور إلى الصدام المسلح الذى انتهى بمقتل بكجور والاستيلاء على أمواله الوفيرة ، بعد ان أمن اولاده ونساءه على اموالهم واعراضهم . ولكنه لما راى وفرة ثروته صادرها ، واحتجز اهله . ووقعت الوحشة والقطيعة بينه وبين القاهرة حين ارسل اليه العزيز يأمره باطلاق سراح اولاد بكجور وتسييرهم إلى مصر ، فعامل سعد الدولة رسول العزيز معاملة مهينة ورد على رسالته ردا قاسيا غليظا .

وكان العزيز أرسل إلى سعد الدولة يسأله اطلاق اولاد بكجور وتسييرهم الى مصر فأهان الرسول ، ولم يقبل الشفاعة ، ورد عليه جواب متوعد متهدد[3] ورحل سعد الدولة عن الدنيا سنة احدى وثمانين وثلاثمائة ، وترك امارة حلب بين شقى الرحى مرة ثانية الروم من الشمال والمصريين من الجنوب .

---

(١) القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٨ .

(٢) ابن العديم : تاريخ حلب ص ١٧٨ .

(٣) ابن العديم : تاريخ حلب ص ١٨١ فى ابن القلانسى : « فلما مثل بين يديه امر باعطائه الكتاب ولطمه حتى يا كله . فقال أنا رسول وما عرف من الملوك معاملة الرسل بمثل ذلك ، وهذا الفعل ما لا يجوز القلانسى ص ٢٩ .

ب — سعيد الدولة وانهيار الحمدانيين (٣٨٦ — ٣٩٢ هـ) :

تولى أبو الفضائل سعيد الملقب بسعيد الدولة أمارة حلب بعد وفاة أبيه سعد الدولة وكان السلطان الحقيقي في يد غلامه الأمير أبي محمد لؤلؤ الكبير السيفى ، الذى أصبح مالكا لناصية الأمور في الدولة ، وزوج إبنته للأمير سعيد الدولة فأتاحت له تلك المصاهرة نفوذا كبيرا .

وكانت سياسة سعيد الدولة فى بداية أمرها تعمل على إستمالة الناس برفع المظالم عنهم ، وتخفيف الأعباء المالية من فوق كاهلهم ، فرفع المظالم والرسوم المقررة على الرعية من مال الهدنة ، ورد الخراج إلى رسمه الأول ، ورد على الحلبيين أملاكا كان إغتصبها أبوه وجده ، (١).

وتهدد الخطر دولته أول ما تهددها من الجنوب ، أى من ناحية مصر حين بادر العزيز بالله الفاطمى بالكتابة إلى بنجوتكين التركى أمير الجيوش ووالى دمشق من قبل العزيز بالزحف على حلب والاستيلاء عليها ، وأقام منجوتكين بدمشق بقية سنة ٨١ فقوى بها وصار عسكره ثلاثة عشر ألفا فعم الناس البلاء فى جميع الأحوال ، وصارت أفعالهم وسيرتهم إباحة الأموال والأنفس وسوء الأعمال . ثم أنهم طمعوا فى مملكة حلب بحكم موت أبى المعالى بن سيف الدولة صاحبها وقد كان العزيز لما انتدب منجوتكين أكرمه وعظمه وأمر القواد وطبقات الناس بالترجل له وتوفيته من الحق ما يوفى عظماء الأمراء والاسفهسلارية واستكتب له أحمد بن محمد القشورى : وولى الشام وضم اليه أبا الحسن على بن الحسين بن المغربى ليقوم بالأمر والتدبير ، (٢)

ويتطلع هذا الأمير التركى إلى حلب يريد قطفها بعد أن تربع على ولاية

---

(١) ابن العديم : تاريخ حلب ص ١٨٥ .
(٢) القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٤١ .

دمشق وأساء فيها السيرة ، واتبع مع المسلمين فيها سياسة الظلم والطغيان وأراد أن يعم بظلمه وطغيانه أهل حلب أيضا. ويبدو أنه كان على قدر كبير من القوة والتفوق بدليل أن سعيد الدولة حاول صده ببذل المال والعطايا له ، وبأن يقيم الدعاء على المنابر للعزيز الفاطمى ويضرب النقود بإسمه ، ومع ذلك فقد رفض منجوتكين هذه الوعود وأصر على حصار حلب ، وذلك فى سنة إثنتين وثمانين وثلاثمائة وظل على حصاره له مدة ثلاثة وثلاثين يوما : « فبذل له سعيد الدولة أموالا كثيرة على أن يرحل عنه وعلى أن يكون فى الطاعة ويقيم الدعوة ، ويضرب السكة باسم العزيز ، ويكتب اسمه على البنود فى سائر أعماله فامتنع من قبول ذلك (١).

ولجأ سعيد الدولة تحت ضغط الحصار إلى الاستنجاد بالروم الذين تربطهم بأمارة حلب تلك الروابط القديمة من المعاهدات والمواثيق . وتضطرب الروايات التاريخية فى هذا الصدد. فابن العديم يقول أن سكان حلب قد ضجروا من الحصار وهددوا سعيد الدولة فاستمهلهم لحين وصول جيوش « البرجى » والى إنطاكية الذى كان يحارب تحت رايات الصليب الرومى : « وضجر أهل حلب فقالوا لابن حمدان : « إما أن تدبر أمر البلد وإلا سلمناه » فقال : أصبروا على ثلاثة أيام ، فان البرجى والى إنطاكية قد سار الى نصرتى فى سبع صلبان » (٢) بينما يلقى ابن القلانسى مسئولية الاستنجاد بالروم الى غلام سعيد الدولة لؤلؤ « وقد كان لؤلؤ عند معرفته بتجهيز العساكر المصرية الى حلب كاتب يسيل عظيم الروم ومت اليه بما كان بينه وبين سعد الدولة من المساعده والمعاقدة يبذل له عن ولده السمع والطاعة والجرى على تلك العادة وحمل اليه هدايا وألطافا كثيرة وسأله المعونة والنصرة » (٣)

(١) ابن العديم : تاريخ حلب ص ١٨٦ .
(٢) ابن العديم : نفس المصدر ص ١٨٦ .
(٣) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٤١ .

وأغلب الظن أن رأى ابن القلانسى يميل الى الصحة ، لأن سعيد الدولة لم يكن يملك من أمر الدولة إلا إسم الامير، كما كان أبوه سعد الدولة قبل خصومته مع العزيز بالله الفاطمى . أما لؤلؤ فكان كل همه الحفاظ على سيطرته المطلقة تحت ظل الروم الذين كانوا يكافئون من يطلب مساندتهم باطلاق يده فى بلده وحمايته عسكريا . وقد أدت سياسة لؤلؤ الخاطئة الى انتصار بنجوتكين عسكريا ومعنويا وذلك حين قهر الروم ، وفتح حصن „ عم „ التابع „ للبرجى „ وأطلق منه عشرة آلاف أسير مسلم وانطلق بنجوتكين يفتح بلاد الروم ويغنم منها الغنائم الطائلة :

„ وغنم من عم مالا كثيرا ، وأحرقها وما حولها ، ووجد فى „ عم „ عشرة آلاف أسير من المسلمين فخرجوا وقاتلوا بين يديه.

وسار الى انطاكيــة فاستاف من بلدها عشرة آلاف جاموس ومن البقر والمواشى عددا لا يحصى (١)

ولا شك أن هذه الانتصارات قد دعمت من مركز الفاطميين وبنجوتكين معا ، ومكنت لهم من السيطرة على الشام من الناحية الفعلية .

وما أن أهل عام ٣٨٤ هـ حتى أرسل العزيز أبا الحسن على بن الحسين بن المغربى الكاتب — الذى تولى الوزارة فى عهد سعد الدولة وفارقه عن وحشة — بجيش جرار ليكون مستشاراً لبنجوتكين فى فتح الشام وتجددت الحروب حول أسوار حلب بين الدمشقيين بزعامة بنجوتكين وابن المغربى والحلبيين بزعامة لؤلؤ وسعيد الدولة ومعهما جيوش الروم بقيادة البرجى والى انطاكية من قبل بيزنطة إلا أن الخسائر توالت على جيوش حلب ، وطال عليها الحصار الذى استمر أحد عشر شهراً (٢) حتى كادت حلب تهلك من المجاعة والقحط ، وكان باب المدينة

(١) ابن العديم : تاريخ حلب ص ١٨٧ .

(٢) عند ابن العديم : ص ١٩٠ وعند ابن القلانسى ص ٤٢ أن الحصار دام ثلاثة عشر شهرا .

يفتح ليغادرها أهلوها الذين كاد الجوع أن يفتك بهم :

«وأقاموا — أى جيش دمشق — ثلاثةعشر شهرا، وبنوا الحمامات والأسواق والخانات ، وأبو الفضائل ولؤلؤ قد تحصنا بالبلد وقد اشتد الأمر بها ، وفقدت الأقوات عندهما . وكان لؤلؤ يبتاع القفيز من الحنطة ثلاثة دنانير ويبيعه على الناس بدينار واحد رفقا لهم ويفتح الباب ويخرج من الناس من أراد من الفقراء من الجوع وطول المقام . وقد كان أشير على منجوتكين بتتبع من يخرج وقتله ليمتنع الناس من الخروج ويزيد ضيق الأمر عليهم فلم يفعل »[1] .

وعانت حلب من ويلات هذه الصراعات المتوالية ، وأصبحت المنطقة كلها ميدان قتال ، وكان لؤلؤ يعمد إلى حرق الحقول القريبة من جيوش بنجوتكين ليحرمهم من الزاد والغلات ، وقد أضر هذا بالناس ضرراً بالغاً حتى شحت الأقوات وعدمت الحنطة وانتشرت المفاسد والمجاعات .

واستنجد سعيد الدولة ولؤلؤ بالامبراطور باسيل الرومى ، فرحل بنجوتكين عن حلب بدون قتال مع الروم ، ويبدو أن أبا الفضائل كان يميل إلى تسليم حلب لبنجوتكين بدلا من ويلات الحصار أو نجدة الروم .

« وكان قد ضاق صدر أبى الفضائل لطول الحصار ، وأراد تسليم حلب إلى بنجوتكين »[2] ، ويبدو أن « معرة النعمان » لم يرضها هذا الحلف الجديد الذى قام بين إمارة حلب والروم ، وهذه التبعية الذليلة التى عادت مرة أخرى فى صورة أعمق مرارة ، وكان قد خرج أبو الفضائل إلى ملك الروم ، وشكره على ما فعل من رحيل بنجوتكين ، ومعه هدية جليلة القدر ، فقبلها منه ، ثم أعادها إلى حلب ووهب له القطعية التى كانت له على حلب فى تلك السنة »[3] .

---

(١) القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٤٣ .
(٢) ابن العديم : تاريخ حلب ص ١٩١ .
(٣) نفس المصدر ص ١٩١ .

ولم ترض معرة النعمان عن سلوك أبي الفضائل المعيب فعصى حاكمها رباح السيفي ، وعاونه بنجوتكين أمير دمشق فى عصيانه فلم يستطع أبو الفضائل أو لؤلؤ الاستيلاء على المعرة وذلك فى سنة ٣٨٦ هـ :

« وعصى رباح السيفي بالمعرة على مولاه أبي الفضائل ، فخرج اليه مع لؤلؤ فى سنة ست وثمانين ، وانحاز إلى المغاربة ، فخرج أبو الفضائل ولؤلؤ وحصراه مدة ، فورد بنجوتكين لنجدته فانهزما ودخلا حلب »(١) .

وأمعن سعيد الدولة فى التمرغ تحت أقدام الروم حين خرج لهم سنة ٣٨٩ هـ لزيارة ملك الروم بعد أن فتح وادى حيران وسبى منه خلقا عظيما من المسلمين فذهب اليه سعيد الدولة يقدم فروض الطاعة والولاء :

« وسار ملك الروم إلى وادى حيران ، فسبى منه خلقا عظيما من المسلمين ، وخرج اليه أبو الفضائل من حلب إلى شيزر ، فأكرمه وقال له : قد وهبت لك حلب ووهب لأبي الفضـــائل فى جملة ما وهب سطيل ذهب ، وقال له : اشرب هذا »(٢) .

لقد ماتت النخوة العربية عند سعيد الدولة ولؤلؤ ، ففي الوقت الذى تنتهك فيه حرمات المسلمين ، ويساقون فى الاغلال أسارى فى ركاب ملك الروم يذهب اليه سليل سيف الدولة العظيم ليتلقى منه تقليدا بامارة حلب ، ويتقبل منه كأسا من ذهب يشرب بها ، ولذلك فقد كان حقا عليه أن يشرب السم الذى يقال أن لؤلؤا قد دسه له فمات هو وزوجته — التى هى أبنة لؤلؤ فى الوقت نفسه — سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة . وطويت صفحة غير مشرقة لأمير حمدانى باع نفسه لغلامه الغادر الذى يزوجه ابنته ثم لا يرعوى أن يدس السم لهما معا . ثم باع نفسه لعدو

---

(١) المصدر السابق ص ١٩٢ س ١٩٢ .
(٢) نفس المصدر ص ١٩٢ .

الاسلام والعروبة ملك الروم واستمد منه عرشا كان فيقوم على جماجم قتلى المسلمين الذين حصدهم الروم حصدا . وتظلله وتحميه رايات بيزنطة ذات الصليب .

ج ـ نهاية الحمدانيين (٣٩٤ هـ) :

بعد وفاة سعيد الدولة وزوجته مسمومين ، اتجه لؤلؤ إلى القبض على السلطة بيد من حديد ، وفى سبيل ذلك عمد إلى مبايعة ابنى سعيد الدولة : أبى الحسن على، وأبى المعالى شريف وذلك سنة ٣٩٢ هـ ، وعمد لؤلؤ الخائن إلى هدم الحصون وتدميرها خشية أن يلجأ اليها المتمردون على حكمه ، أو أن يفكر واحد من أسرة الحمدانيين فى الثورة على طغيانه وتسلطه ، ولذلك عمد إلى إحراق حصن كفر روما ، وحصن عار ، وحصن أروح :

« وخاف لؤلؤ على حصن كفر روما[١] ، وحصن عار ، وحصن أروح، أن يقصد فيها ، فهدمها جميعا ... »[٢] .

ويرى أبو العلاء المعرى حصن كفر روما القريب من المعرة يهدم بدلا من أن تقام حصون جديدة أو يرمم هذا الحصن على أقل تقدير ، فيرى ويرى معه كل العقلاء أن أولياء الأمور حينذاك لم يكن الذود عن حياض الاسلام هدفهم . وإنما كان الطمع فى الملك المطلق والاستحواذ على خيرات الأرض هو الذى يخطط سياستهم الحمقاء .

---

(١) كفر روما : قرية من قرى (معرة النعمان) وكان حصنا مشهودا خربه لؤلؤ السيفى المعروف بالجراحى المتغلب على حلب بعد أبى الفضائل ابن سعد الدولة بن سيف الدولة سنة ٣٩٣ هـ » .

ياقوت : معجم البلدان جـ ٤ ص ٢٨٨ .

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب فى ص ١٩٥ . هذا النص لم ينشر بالعربية قبل اليوم ولكن المستشرق مولر ترجمه الى اللاتينية من سنة ٣٩٢ ـ ٤٧٢ هـ فى كتاب عنوانه :

Muller, Historia Midasidurum ex halebensibus. Cemaleddini Annulibns excerpta, Bonnae 1.50,

وهاهو ذا لؤلؤ يمعن فى جبروته فيرسل أبا الحسن وأبا المعالى ابنى سعيد لدولة إلى مصر فى سنة ٣٩٤ هـ لينفرد هو وأبنه أبو نصر بن لؤلؤ الملقب بمرتضى الدولة بالحكم المطلق فى حلب وما يتبعها .

وينبغى التنويه هنـا بحركة شعبية دينية على جانب كبير من الأهمية هى : حركة احمد بن الحسين الأصفر الذى قاد جيشا من أهل القرى والبسطاء لمحاربة الروم الذين أفسدوا ديار المسلمين، وكان الاصفر رجلا فقيها يتزيا بزى المتصوفة، ويجمع حوله أولئك الذين فقدوا الثقة فى الحكام ، وتطلعوا إلى زعامة شعبية تطيح بتلك العروش المهزوزة الخائنة ، وتقف فى وجه الروم تصدهم وتجبرهم على احترام ديار المسلمين :

« وفى سنة خمس وتسعين وثلثمائة ظهر فى أعمال حلب إنسان غاز يسمى احمد ابن الحسين أصفر تغلب ويعرف بالأصفر ، فتزيا بزى الفقـراء وتبعه خلق من العرب وسكان القرى من المسلمين »[١] .

ولاشك أن هذه الثورة الشعبية دليل على حيوية العـامة ويقظتهم واستيائهم من سياسة حكامهم الخـرفاء التى كانت تهـادن الروم ، وتستعين بهم فى الفتن التى كثيرا ما كنت تقوم بين الطامعين فى الحكم .

وكان الاصفر يطوف القرى يجمع حوله الأعوان حتى عظم خطره، وأحس الروم بهذه الثورة الشعبية التى أخذت تناوئهم ، وتشكل خطرا على مستعمراتهم فأرسلوا إلى الحاكم الفاطمى يطلبون منه وقف خطر هذا الزعيم الشعبى ، فاستجاب الحاكم لباسيل ملك الروم وسير إلى الأصفر جيشا بقيادة والى دمشق ، وهـكذا تضافرت عليه قوى الروم والفاطميين معا .

---

(١) يحيى بن سعيد ص ٢٠٨
عن ابن العديم ص ١٩٦ هامش .

« وكان هذا الأصفر قد عبر من الجزيرة إلى الشام مظهرا غزو الروم ، فتبعه خلق عظيم . وكان يكون فى اليوم فى ثلاثين ألفا ثم يصير فى يوم آخر فى عشرة آلاف وأكثر وأقل »[١] وكان هذا الجيش الشعبى يهدف إلى تحرير المستعمرات الاسلامية من يد الروم .

« ونزل على شيزر ، وطال أمره ، فاشتكاه باسيل ملك الروم إلى الحاكم، فسير اليه وإلى دمشق فى عسكر عظيم فطرده عنها »[٢].

ولاشك أن الحاكم الفاطمى كان يرى فى ابن الأصفر هذا خطراً داهما عليه، فلقد كان الحاكم يستند إلى قاعدة دينية فى حكمه ،وكان يغرر بأذهان العامة وعقول الناس ويدعى بأنه يوتى الحكمة ، وكانت دمشق مركزا (خطيراً) بالنسبة للحاكم ولذلك فان وجود حركة شعبية تلتف حول رجل فقير يرفع شعار التحرير، والحرب ضد الروم ، يشكل تهديداً خطيراً ومباشراً لنفوذ الفاطميين فى الشام ، وربما فى مصر أيضا إذا كتب لهذه الدعوة النجاح .

ولذلك سارعوا إلى أخماد هذه الروح الخلاقة الغريبة على هذا العصر العفن : لدرجة أن حاكم حلب الخائن أنضم أيضا إلى صف المناهضين لحركة الأصفر الشعبية ولكنه لم يلجأ الى قوة السلاح ليقهره ، بل لجأ إلى الخيانة — كعادته — فأرسل إلى الأصفر يتظاهر له بقبوله دعوته ، وأنه يصير حليفه إذا أتى إلى حلب ، وما أن دخل الأصفر حلب حتى قبض عليه لؤلؤ وسجنه فى قلعتها ، وإتخذ منه ورقة يلوح بها الروم ويهددهم ، وفى نفس الوقت آمن خطر ثورته الشعبية على ملكه فى حلب ،وبهذا قضى على حركة ذلك الزعيم الفقير فى مهدها ، ولم يكتب لها الاستمرار بسبب سذاجة زعيمها وثقته فى لؤلؤ،وتضافر كل القوى فى بيزنطة وحلب ودمشق والقاهرة لقمع تلك الثورة الرائعة .

---

(١) ابن العديم : تاريخ حلب ص ١٩٦ .
(٢) نفس المصدر السابق ص ١٩٦ .

« وقبض لؤلؤ على احمد بن الحسين الأصفر بخديعة خدعه بها ، وذلك أنه طلب أن يدخل اليه الى حلب وأوهمه أن يصير من قبله ، فلما حصل عنده قبض عليه ، و جعله فى القلعة مكرما ، لأنه كان يهول على الروم »(١)

وتوفى لؤلؤ سنة تسع وتسعين وثلثمائة ، وخلفه أبنه مرتضى الدولة الذى كان مكروها من شعبه لظلمه وعسفه ، وعمل على توطيد الصلة بينه وبـــين الحاكم الفاطمى فى حكم أبيه لؤلؤ ولكنه « كان ظالما عسوفا ، فابغضه الحلبيون وهجوه هجواً كثيرا »(٢)

وأرسل الحلبيون وبنو كلاب فى إستـــدعاء أبى الهيجاء بن سعـــد الدولة الذى كان لاجئا إلى ملك الروم ، وإستعان مرتضى الدولة بالحاكم الفاطمى ، كما أفلح فى إستمالة بنى كلاب فتخلوا عن أبى الهيجاء فهزم هزيمة مرة وعاد الى بيزنطة ليموت فيها .

وحاول أبو المعالى بن سعيد الدولة أن يسترد ملك أبيـــه ، وزوده الحاكم الفاطمى بجيش من المغاربة ساربه الى حلب ، وعسكر بمعرة النعمان، ولكنه فشل وعاد الى مصر .

« وكان أبو المعالى بن سعيد الدولة بمصر ، فسيره الحاكم بعساكر المغاربة الى حلب فوصل معرة النعمان فى سنة اثنتين وأربعمائة ، وأرادت العرب الغدر به .(٣) وعمل مرتضى الدولة بعد ذلك على التخلص من نفوذ بنى كلاب الذين أنقذوه من عسكر أبى المعالى بن سعيد الدولة ، لأنهم أخذوا يطالبون بتنفيذ الوعود التى قطعها مرتضى الدولة على نفسه ، فلما ماطلهم فى تنفيذ مطالبهم عاثوا فســادا فى حلب وما جاورها :

---

(١) نفس المصدر السابق : ص ١٩٦ .

(٢) ابن العديم : تاريخ حلب ص ١٩٩ .

(٣) نفس المصدر ص ٢٠٠ .

« وأما بنو كلاب فانهم طلبوا من مرتضى الدولة ماشرطه لهم من الاقطاع ، فدافعهم عنه ، فتسلطوا على بلد حلب ، وعاثوا فيه ، وأفسدوا ، ورعوا الأشجار وقطعوها وضيقوا على مرتضى الدوله[1] ».

ومثلما كان يفعل أبوه لؤلؤ ، لجأ الى الحيلة والخديعة للايقاع بهم « وأظهر الرغبة فى استقامة الحال بينهم وبينه وطالبهم أن يدخلوا اليه ليحالفهم ويقطعهم ويحضروا طعامه ، واتخذ لهم طعاما . فلما حصلوا بحلب مد لهم السماط وأكلوا وغلقت أبواب المدينة ، وقيد الامراء : وفيهم صالح بن مرداس وفيهم أبو حامد وجامع بن زائدة . وجعل كبار الأمراء بالقلعة ، ومن دونهم بالهرى[1]. وقتل منهم أكثر من الف رجل »[2].

أما ابن الأثير فيروى هذه الحادثة بشكل مخالف لايظهر فيه المكر والدهاء الذى أوقع بواسطته مرتضى الدولة ببنى كلاب، وأفلح فى احتجاز صالح بن مرداس ويقول: « فطمع فيه — أى فى مرتضى الدولة — ابن مرداس وبنو كلاب وكانوا يطالبونه بالصلات والخلع ، ثم أنهم اجتمعوا فى هذه السنة فى خمسمائة فارس ودخلوا مدينة حلب فأمر ابن لؤلؤ باغلاق الابواب والقبض عليهم ، فقبض على مائة وعشرين رجلا منهم صالح بن مرداس »[3].

وأغلب ظنى أن رواية ابن العديم أقرب إلى الدقة . لأنها تسير مع الخط الفكرى الذى يحكم تصرفات لؤلؤ وبنيه ، فكما أوقع لؤلؤ بأحمد بن حسين الأصفر ، أوقع ابنه مرتضى الدولة ببنى كلاب وصالح بن مرداس بواسطة الخديعة ونصب الشباك .

---

(١) ابن العديم : تاريخ حلب ص ٢٠١ .

(٢) الهرى بالضم بيت كبير يجمع فيه طعام السلطان .

(٣) ابن الاثير : الكامل ج ٧ ص ٢٦٠ .

صالح بن مرداس (٤١٤ هـ) : (١)

يمثل صالح بن مرداس شخصية الزعيم البدوى المغامر الذى يركب الصعاب من أجل أهدافه ، ولقد بدأ نجمه يعلو منذ ساعد مرتضى الدولة ثم وقع أسيراً فى يديه , وعمل مرتضى الدولة على إذلاله وطعنه فى كرامته بأن تزوج امرأته التى وقعت معه فى الأسر دون أن يطلقها من زوجها صالح « وكان صالح قد تزوج بإبنه عم له تسمى جارة ، وكانت جميله فوصفت لإبن لؤلؤ فخطبها إلى ابن اخوتها وكانوا فى حبسه ، فذكروا له أن صالحا قد تزوجها فلم يقبل منهم وتزوجها ثم أطلقهم (٢) » .

ويصور هذا التصرف الدنىء أخلاق آل لؤلؤ الذين لايتورعون عن ارتكاب المعاصى فى سبيل لذائذهم الوضيعة . ولذلك فان قصة هروب صالح ابن مرداس من القلعة تكتسب جوا (تراجيديا) مبدعا حين نرى هذا الزعيم البدوى وقد طعن طعنة نجلاء فى شرفه ، فيسعى بكل الحيل ليخلص من أسر عدوه الذى انتهك حرمة زوجته الجميلة ، ويفلح فى الهرب ، وينجو من القتل ، ويذهب إلى البادية وهو نصف مغلول لم يتخلص من القيد بعد ، ويعثر به أفراد ذوو نبل وشهامة ، ويذهب إلى قومه ليستنهض هممهم ، ويوقد نار الثأر فى قلوبهم ،ويعود إلى حلب ليهزم عدوه ويقيده بنفس القيد الذى قيده به ويخلص زوجته وينفض العار عن جبينه .

« وكان مرتضى الدولة فى بعض الأوقات إذا شرب يعزم على قتل صالح لحنقه عليه من طول لسانه وشجاعته . فبلغ ذلك صالحا فخاف على نفسه وركب

---

(١) فى سنة أربع عشرة وأربعمائة . واستقرار صالح مالكا لحلب وملك معها من بعلبك الى عانة واقام صالح بن مرداس بحلب مالكا كما ذكر ست سنين ابو الفدا ـ المختصر فى اخبار البشر جـ ٢ الطبعة الحسينية القاهرة .

(٢) ابن الاثير : الكامل جـ ٧ ص ٢٦٠ .

الصعب فى تخليصها، واحتال حتى وصل إليه فى طعامه مبرد ، فبرد حلقه قيده الواحدة ، وفكها وصعبت الأخرى عليه ، فشد القيد فى ساقه ، وثقب حائط السجن ، وخرج منه فى الليل وتدلى من القلعة إلى التل ، وألقى نفسه فوقع سالما . (١)

ولا شك أن قصة هذا الهروب قد شاعت ، وأنها كانت مثالا يحتذى فى البطولة الفردية .وأغلب ظنى أن صالحا كان يحظى بكثير من الاحترام فى نفس المعرى لهذا السبب .

وقد جند مرتضى الدولة جيشا لمطاردة صالح بن مرداس من السوقة وأوباش حلب، فجمع جنده، وحشد جميع من بحلب من الأوباش، والسوقة، والنصارى واليهود ، وألزمهم بالسير معه إلى قتال صالح . (٢)

ولكن صالحا هزمه هزيمة منكره ، وأخذه أسيراً ، وقيده بنفس القيد الذى قيده به من قبل، إلا أن شقيق مرتضى الدولة قد احتفظ بحلب وقلعتها من السقوط وسارت مراسلات بين حلب وبين صالح بن مرداس من أجل إطلاق سراح مرتضى الدولة والأسرى الذين معه بعد دفع خمسين ألف دينار عينا ، ومائة وعشرين رطلا بالحلى فضة ، وخمسمائة قطعة ثياب أصنافا مختلفة ، ويطلق جميع من فى المحبوس من بنى كلاب وحرمهم ، وأن يقاسمه باطن حلب وظاهرها شطرين ، ويحصل ارتفاع ذلك نصفين (٣) ، وأن يزوجه مرتضى الدولة بابنته (٤) .

---

(١) ابن العديم : تاريخ حلب ص ٢٠١ ، ٢٠٢ .

(٢) ابن العديم : تاريخ حلب ص ٢٠٤ .

(٣) الارتفاع : ما يتحصل من المبالغ لديوان من دواوين الدولة — فى يحيى ابن سعيد وأن يعطيه ويعطى بنى كلاب نصف بلاد حلب اقطاعا » ابن العديم ص ٢٠٧ .

(٤) ابن العديم : تارخ حلب ص ٢٠٦ ، ٢٠٧ .

وتم الاتفاق بين مرتضى الدولة وصالح . وكان هذا الإنتصارنهايه لنفـــوذ مرتضى الدولة إبن لؤلؤ وبداية لزيادة نفوذ صالح بن مرداس وقومـه الذين غنموا أموالا طائله فى هذة الغزوة ، وباع كل واحد من العرب ما حصل فى يده من الغنيمه والأسارى من الجند وغيرهم من الرعية المسلمين وأهل الذمة لأهاليهم بما أتفق ، واستغنى العرب وقويت شوكتهم »(١) .

وغدر مرتضى الدولة — كعادته وعادة أبيه — بعهده مع صالح ، ورفض تنفيذ الإتفاقية التى عقدها مع صالح وخاصة ما يتصل منها باعطائه ارتفاع البلاد وتزويجه بابنته ، وشدد صالح الحصار على حلب ، ومنع القـوت عنهـا حتى ضج العامة وكرهوا حكم منصور ابن لؤلؤ الذى جر الويلات على المدينة نتيجة غدره وسياسته الحمقاء : « ولما حصل منصور إلى حلب عاد إلى عادته الأولى فى الغدر. ومنع صالحا ما صالحه عليه من ارتفاع البلاد والتزوج بابنته ، فضيق صـالح عليه ، وحاربه ، ومنع الميرة أن تدخل اليه حتى ضاقت على الرعيه فكرهوه »(٢) ودبت نار الفتنه فى داخل حلب بين مرتضى الدولة وبين غلام يدعى «فتح القلعى» وكان حائز القلعة ، واتهمه مرتضى الدولة بأنه سهل سبيل الهروب لصـالح بن مرداس حين كان سجينا فى القلعة فجر على حلب الويلات وعزم على اقصـائه من منصبه وتولية غلام آخر يدعى «سرور» وأستحكم الخلاف بينهما ، وطلب مرتضى الدولة منه النزول من القلعة فراوغ ، فصعدت اليه « بجيلا » أم مرتضى الدولة وعنفته على عصيانه لإبنها مرتضى الدولة ، وقالت لغلامها «فتح» كيف تفعل هذا مع ابن سيدك ؟ — لأنه كان غلام لؤلؤ السيفى ، فرد عليها : كما فعل هو وأبوه بأولاد سيده، وهكذا دارت دائرة الغدر ، فكما غدر لؤلؤ وابنه منصور ومرتضى الدولة بأولاد سعد الدولة وسعيد الدولة ، غدر به غلامه «فتح» وناوأه . وهدده

---

(١) نفس المصدر السابق ص ٢٠٧ .

(٢) نفس المصدر ص ٢٠٧ .

بتسليم القلعة لصالح بن مرداس ، ولم يجد مرتضى الدولة أمامه سبيلا إلا الفرار ، فلما علم أهل حلب بخروجه قصدوا داره ، فأخذوا منها من الذهب والفضة والمراكب والأثاث ثمانين ألفا من الدنانير ، وأخذوا فى جملة مانهب له ثمانية وعشرون ألفا من الدفاتر المجلدة ، وكانت مفهرسة بخطه فى درج ، ونهبوا دور أخوته ودور بعض النصارى واليهود (١)

وأبى مرتضى الدولة إلا أن يختم حياته ختاما فخريا فيلجأ إلى أحضان الروم الذين رحبوا به وبأولاده ، وأغدقوا عليهم العطايا ، وأقطعوهم الاقطاعات وقد أرسل باسيل ملك الروم إلى حاكم أنطاكية حين علم منه بالتجاء مرتضى الدولة ورجاله اليها ، فأنفذ اليه يأمره باكرامه ، وأن يواصله براتب واقامة ، وكذلك برزق أجناده وأصحابه ففعل ذلك ، وكان جملتهم سبعمائة رجل من فارس وراجل وأن لا ينقصه فى المخاطبه والكرامة من الرسم الذى كان يخاطبه به فى أيام أمارته وأمر أن يلقب بالماجسطرس »(٢)

وهكذا انتهت صفحة ملوثة من صفحات حلب ، وذهب ابن لؤلؤ الى الروم؟! يعيش فى كنفهم بعد أن أذاق حلب ويلات الحرب والجوع والنهب .

ولقد أحسن « فتح القلعى » — صاحب قلعة حلب — المسيرة مع أهل حلب بعد أن طرد مرتضى الدولة . وعاملهم معاملة كريمة ، ورد اليهم أموالهم التى أغتصبتها منهم أسرة سيف الدولة الحمدانى وعقد حلفا مع صالح بن مرداس ، نفذ بنود المعاهدة المعقودة بينه وبين مرتضى الدولة ، ورد على الحلبيين ما كان قد أغتصبه سيف الدولة وولده من أملاكهم ، وبالغ فى العدل »(٣)، وأنضوت حلب تحت نفوذ الحاكم الفاطمى الذى بارك خطوات حكام حلب الجدد وأرسل لهم

---

(١) ابن العديم : تاريخ حلب ص ٢٠٩ .
(٢) نفس المصدر ص ٢١٠ .
(٣) نفس المصدر ص ٢١٣ .

الألقاب والبراءات ، وأقرهم على أعمالهم التى بأيديهم :

« وكاتب فتح الحاكم يخبره بما فعل ، فوردت مكاتبة الحاكم اليه يتضمن شكره على ما فعل ولقبه مبارك الدولة وسعيدها ، وكتب الى أبى الحسن الضيف (١) يأمره بمعاضدته ولقبه سديد الدولة ، وكتب الى صالح بن مرداس يأمره بالاتفاق معها ولقبه أسد الدولة »(٢)

وازداد نفوذ الفاطميين فى الشام كله ، وأصبحوا يهيمنون على الأمور فى حلب هيمنة حقيقية وعمل الحاكم بأمر الله على التقرب الى الناس بأن أعفاهم من الضرائب المتأخرة عليهم وعمل على اطلاق المؤن والتوسعة على العامة «وكتب لأهل حلب توقيعا باطلاق المكوس والمظالم ، والصفح عن الخراج » (٣) .

وأصدر كتابا منه ذا مدلول عظيم فى بيان حالة حلب وما جاورها من بؤس وفاقة وظلم واستبداد ، ونص هذا الكتاب على رفع المظالم السالفة عنهم فقال :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا من أمر الإمام الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين لجميع أهل حلب وأعمالها .

أنه لما انتهى الى أمير المؤمنين ما أنتم فيه من الظلمة المدلهمة ، وقبيح ظفر من يتولى أموركم فى المعاملات وزيادتهم عليكم فى الخراج والجبايات ، اضعافا لكم ، وعدولا عن سنن الحق بكم ، امر - زاد الله امره علوا ونفاذا - باطلاق

(١) وصل القائد ختكين الداعى المعروف بالضيف الى دمشق واليا عليها من قبل الحاكم بأمر الله (فى سنة ٣٩٢ هـ) فدبر أموالها ونظر فى احوال اجنادها واقتضى رأيه أن ينقص واجبات الاجناد ويدافع بأعطياتهم ويماطلهم ويظهر أمراً من التوفير فلم يتمكن . (ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٥٧) .

(٢) ابن العديم : تارخ حلب ص ٢١٤ .

(٣) نفس المصدر ص ٢١٤ .

المؤن من داركوره [١] ونظائرها ، والصفح عن الواجب عليكم من مال الخراج لإستقبال سنة سبع واربعمائة .. [٢].

ويبدو أن هذا الدور الثانوى الذى لعبه صالح بن مرداس فى ظل أمراء يدينون بالطاعة والولاء القاهرة ، لم يرض طموحه فى الاستقلال بحلب ، وظل يتحين فرصة ضعف الدولة الفاطمية لعلها ترخى قبضتها من فوق حلب ، وينشغل امراء حلب فى صراعهم الشخصى الذى لا ينتهى ، واتيحت له فرصة حصار القلعة والمدينة سنة ٤١٥هـ وانطلق يفتح مدن الشام مثل حمص وبعلبك وصيدا وحصن ابن عكار بناحية طرابلس . وكان فى يده الرحبة،ومنبج، وبالس،ورقية

هـ ـ ازدياد نفوذ النصارى :

والملاحظة الجديرة بالاهتمام هى ازدياد نفوذ الصارى زيادة كبيرة فى عهد صالح بن مرداس.

واستوزر صالح وزيرا نصرانيا هو تادرس بن الحسن الذى فرض نفوذه واحترامه على كبار العلماء ، فقد كان يترجل له كبار العلماء والقضاة .وقدتعرضت معرة النعمان لبطش هذا الوزير النصرانى الذى وثق به صالح بن مرداس . فحين قتل اهل (حاس) حيا، لم يلجأ الى الطرق الشرعية فى القصاص من القاتل ولكنه جند عسكر حلب من اجل مطاردة اهل القرية كلها فى الجبال والشعاب والوديان حتى اذا مالحق بهم ، علقهم على اعواد المشانق دون ان يتأكد من معرفة البرىء من المذنب ، ونظرا لعامة الى هؤلاء المشنوقين نظرة الشهداء : «وقيل ان اهل

---

(١) داركوره : تنسب الى الحسن بن على المعروف بكوره الخراسانى الذى ولى حلب فى ايام بنى العباس سنة ٢٨٦ هـ ، واليه تنسب داركوره ، التى داخل باب الجنان بحلب والحمام المجاورة لها ـ عن ابن الاثير ج ٦ ص ٧٩ وابن العديم فى تاريخ حلب ص ٨٧ .

(٢) ابن العديم : تاريخ حلب ص ٤ .

«حاس» ـ قرية بمعرة النعمان قتلوا حياء ، وكان يقال له الخورى ، وكان من أهل تلنس من اذيته لهم ، فحين سمع تادرس بقتل حميه الخورى ، خرج فى عسكر حلب ، وطلب اهل «حاس» فى الجبال والضياع وهرب القاتلون الى افاميـة ، فلحقهم ، فسلمهم اليه واليها . فكتب الى صالح يستأذنه فى قتلهم فأذن له فقتلهم ، وصلبهم ، فلما انزلوا عن الخشب ليصلى عليهم ويدفنوا ، صلى عليهم خلق عظيم ، وقال الناس حينئذ ، يكايدون النصارى : « قد راينا عليهم طيورا بيضا وما هى إلا الملائكة ، فبلغت هذه الكلمة تادرس ـ لعنه الله ـ فنقمها على اهل المعـرة واعتدها ذنبا لهم »[1].

وأغلب الظن أن الناس كانوا ثائرين على حكم صالح بن مرداس الكلابى الذى أطلق يد النصارى فى رقابهم ، وأنهم كانوا يلجئون الى الأساليب العنيفة أحيانا يعبرون بها عن استيائهم من فشو الفساد ، ولا شك أن ذلك «الخورى» كان يسىء اليهم ويؤذيهم ولذلك قتلوه ، وربما كان يعمل خمارا أو صاحب ماخور أو تاجرا جشعا أو مرابيا . وكانت المعـرة مركز تلك الثورة على الفسـاد الاجتماعى والاخلاقى والاحتجاج على سياسة الدولة التى تطأطىء الرأس للنصارى ، فهاهم أولئك أهل المعره يهدمون ماخورا اتهم صاحبه بمحاولة اغتصاب امرأة فما كان من أسد الدولة صالح الا ان استجاب لمشورة وزيره تاذرس .

«فلما توجه إلى حلب ، سنة ثمان عشرة ، لم يزل به تاذرس حتى اعتقل مشايخ المعره وأماثلها ، فاعتقل منهم سبعين رجلا ، وقطع عليهم ألف دينار وقال له صالح حين لج عليه : أأقتل المهذب أو أبا المجد بسبب ماخور اما أفعل!»[2].

وتوسط أبو العلاء المعرى فى الافراج عن سجناء المعرة ، واستجاب صالح ابن مرداس لوساطته ، ووهبهم له . وخلده أبو العلاء فى شعره أسـدا يزأر ، وانسانا يصفح .

---

(١) ابن العديم : تارخ حلب ص ٢٣٢ ، ٢٣٣ .

(٢) نفس المصدر ص ٢٣٤ .

وخلاصة الأمر أن الشام كان يضطرب فى حياته السياسية بين زحف الروم عليه وطمعهم فيه ، وبين فساد حكامه الذين سلموا لأصحاب الصليب أعناق المسلمين وعقدوا معهم المعاهدات وأخذوا منهم الأمان ، بل واستعانوا بجيوش الروم فى حروبهم الداخلية مع بعضهم البعض .

وتاريخ الشام يشبه منظر البقرة العجفاء التى نضب لبنها من طول استنزافها ومع هذا يتكالب عليها الذئاب من داخل الدار وخارجها .

وكانت هناك صفحات مشرقة ومضيئة ، تتمثل فى تلك الثورة الشعبية التى قادها الفقير احمد بن الحسين الاصفر قائد جيش الفقراء ، وتلك الانتفاضات القصيرة التى قام بها أهل حلب واهل معرة النعمان .

ثالثا ـ الحياة السياسية فى مصر :

كانت مصر تمثل مركز الثقل السياسى الحقيقى فى القرنين الرابع والخامس الهجريين ، وكانت سياسة حكامها تؤثر فى المنطقة العربية كلها ، بما فى ذلك الخلافة العباسية فى بغداد ، والتى كانت تمثل الجناح المناوىء لنظام الحكم فى مصر .

ومنذ شيد الفاطميون دولتهم فى أوائل القرن الثالث الهجرى فكروا فى القضاء على الخليفة العباسى السنى ليتسنى لمذهبهم الانتشار والسيادة .

وليس غريبا بعد ذلك أن يوجهوا أمهر قوادهم ، وهو جوهر الصقلى لفتح مصر وانتزاعها من يد العباسيين عام ٣٨٥ هـ . فأقيمت الخطبة للخليفة الفاطمى على منابرها ، وأصبحت القاهرة بعد أن اتخذها المعز لدين الله الفاطمى حاضرة

---

(١) د . جمال الدين سرور : النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام والعراق ص ١٦ .

(٢) آدم متز : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى جـ ١ ص ٣ .

لخلافته سنة ٣٦٢ ، مركزاً للدعوة الشيعية التي ظل العباسيون يقاومونها زهاء قرنين » .

ونجح الفاطميون فى بث دعاتهم بين صفوف العامة فى العراق ، وعملوا على نشر المبادىء المتطرفة بينهم ، مستغلين فى ذلك إضطراب الخلافة ووقوعها أسيرة الضعف والتفكك ، وكان الخليفة الفاطمى على أشد ما يكون من المنافسة لبنى العباس فكان يخطب له فى اليمن والشام زيادة على أفريقية ومصر ، وكان لمذهب الفاطميين دعاة منبثون فى كل صقع وناحية ، وتحالف القرامطة والفاطميون فى المغرب ضد العباسيين ويورد ابن الأثير قصة دارت بين وزير الخليفة العباسى على بن عيسى وبين أحد الاسماعيلية العراقيين ، فيقول :

« جاء انسان إلى على بن عيسى وأخبره أن فى جيرانه رجلا من شيراز على مذهب القرامطة يكاتب أبا طاهر بالأخبار ، فأحضره وسأله واعترف ، وقال : ماصحبت أبا طاهر إلا لما صح عندى أنه على الحق وأنت وصاحبك (أى الوزير والخليفة) كفار ، تأخذون ماليس لكم ، ولابد لله من حجة فى أرضه ، وأمامنا المهدى فلان بن فلان بن محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق المقيم ببلاد المغرب » . (١)

ويدل هذا على سريان النفوذ الفاطمى فى عروق الدولة العباسية ، وفى عقر دارها ،حيث كان الشيعة يعتمدون على تأييد الدولة الفاطمية ، وينادون بشعارهم الثورى ضد العباسيين « ياحاكم يامنصور» نسبة الى الحاكم بأمر الله .

وكانت دمشق الشام تمثل رأس الرمح الأمامى للفاطميين،فمنها كانوا يريدون الوثوب إلى حلب ، واستطاعوا أن يخضعوها لسلطانهم فترات طوال ، ومنها كانوا يوجهون مساعداتهم إلى دعاتهم وعملائهم فى العراق .

---

(١) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ج ٨ ص ٧٤ .

وليس هدف دراستى بحث العلاقات السياسية الخارجية التى كانت تربط دولة الفاطميين بغيرها ، بل أحاول القاء ضوء على سياسة الدولة الفاطمية داخل مصر .

ولعل أشد هذه الفترات صعوبة فى البحث ، وغموضا فى الاستنتاج هى فترة ولاية الحاكم بأمر الله ، الذى ولاه أبوه العزيز عهده منذ طفولته سنة ٣٨٣ هـ وكان سنه ثمانية أعوام «وبويع بالخلافة يوم مات أبوه ، فولى الخلافة وله إحدى عشرة سنة ونصف وقيل : عشر سنين ونصف وستة أيام (١) .

وينقل المسبحى مؤرخ الدولة الفاطمية صورة لتوليه الحاكم الفاطمى الخلافة وهو طفل لم يع بعد أمور دينه ودنياه فيصور حال الحاكم قائلا على لسانه :

«والتهيت بما يلتهى به الصبيان من اللعب إلى أن نقل الله سبحانه وتعالى العزيز اليه . قال : فبادر إلى برجوان ، وأنا فى أعلى جميزة كانت فى الدار ، فقال : انزل ويحك الله الله فينا وفيك ، قال فنزلت فوضع العمامة بالجوهر على رأسى وقبل لى الأرض وقال : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، قال : وأخرجنى حينئذ إلى الناس على تلك الهيئة ، فقبل جميعهم لى الأرض وسلموا على بالخلافة(٢) .

وكان العزيز قد أوصى بابنه ثلاثة رجال من كبار رجال الدولة هم برجوان الصقلبى خادمه الأمين ، وزعيم كتامه أقوى القبائل المغربية وهو الحسن بن عمار الكتامى وقاضى القضاة محمد بن النعمان .

وكان برجوان يستبد بالسلطة دون الحاكم الصغير ، ويتعمد اهانته والتصغير

---

(١) النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٧٦ حوادث سنة ٣٨٦ هـ .

(٢) ابن خلكان : وفيات الاعيان ج ٢ ص ٢٠١ . ولم يصل الينا تاريخ المسبحى ذاته ، وانما وصلتنا منه شذور كثيرة على يد المؤرخين المتأخرين (عنان : الحاكم بأمر الله ص ٤٤) .

من شأنه أمام رجاله ، وبدأ الصراع يحتدم بين الحاكم ووصيه برجوان ، حين نمى إلى علم الحاكم أن برجوان يسميه بالوزغة ، أى الحية الصغيرة ، فأرسل اليه بعض الأساتذة يقول له أن الوزغة الصغيرة قد صارت تنينا كبيرا (١) .

وصدق الحاكم الفاطمى فان الحية الصغيرة قد صارت تنينا كبيرا بالفعل ، ولقد كان الحاكم يملك صفات الجبابرة منذ صغره ، فالروايات تصفه بأنه كان : ذا بنية قوية متينة ، وكان منذ حداثته يتمتع بمظاهر الجبابرة ، مبسوط الجسم ، مهيب الطلعة ، له عينان كبيرتان سوداوان تمازجها زرقة ونظرات حادة مروعة كنظرات الأسد لايستطيع الانسان صبرا عليها ، وله صوت قوى مرعب »(٢) وتبالغ الروايات المعاصرة فى بيان مدى جلاله فتقول: « لقد كان جماعة يتعمدون للقائه فى أمور تضطرهم إلى ذلك ، فاذا أشرف عليهم سقطوا على الأرض وجلا منه ، وفحموا على خطابه (٣) .

الحاكم بأمر الله ومحنة مصر :

وقد أهلت هذه الصفات الجسدية الحاكم الفاطمى ليبث الخوف والرعب فى قلوب الناس جميعا . فقد بدأ عهده بالقضاء على اثنين من وجوه الدولة وأشرافها وهما برجوان الوصى عليه والحسن بن عمار زعيم قبائل كتامه المغربية الذى ساند الدولة الفاطمية مساندة فعلية . إلا أن سفك الدماء كان طابع الحياة المصرية حينذاك وكانت سياسة الحاكم تقوم على حد السيف يقطع به رقاب أقرب الناس اليه ليضمن استقرار دولته ودوامها ، وكان يمعن فى هذا القتل والتذبيح ، وقد اتفقت المراجع التاريخية فى ذكر الكثير من شذوذه الغريب فى هذه الناحية ، ومبالغته فى قتل الناس بالجملة كما فعل فى عام ٣٩٥ هـ التى يقول فيها ابن تغردى بردى « وفيها قتل الحاكم

---

(١) سير البيعة المقدسة (المخطوط الكنسى) عنان : الحاكم بأمر الله ص ٤٩ .
(٢) اخبار الدول المنقطعة للوزير جمال الدين المصرى (مخطوط) عنان ص ٥١ .
(٣) سير البيعة المقدسة (المخطوط الكنسى) عنان ص ٥٢ .

صاحب مصر جماعة بمصر من أعيانها صبرا ، (١).

وشملت حالة الرعب كل طبقات الشعب : التجار ، والحرفيين ، والغلمان ، وأصحاب الدواوين ، ورجال الدين . . وغيرهم وغيرهم . إذ يروى لنا المسبحى صديق الحاكم ومؤرخه ، أن الحاكم أمر فى سنة ٣٩٥ هـ بعمل شونة كبيرة مما يلى الجبل ملئت بالسنط والبوص والحلفا ، فارتاع الناس ، وظن كل من له صلة بخدمة الحاكم من رجال القصر أو الدواوين أنها أعدت لإعدامهم، وسرت فى ذلك اشاعات مخيفة فاجتمع سائر الكتاب وأصحاب الدواوين والمتصرفين من المسلمين والنصارى فى أحد ميادين القاهرة ، ولم يزالوا يقبلون الأرض حتى وصلوا إلى القصر ، فوقفوا على بابه يضجون ويتضرعون ، ويسألون العفو عنهم ، ثم دخلوا القصر ، ورفعوا إلى أمير المؤمنين عن يد قائد القواد الحسين بن جوهر رقعة يلتمسون فيها العفو والأمان فأجابهم الحاكم على لسان الحسين إلى ما طلبوا ، وأمروا بالإنصراف والبكور لتلقى سجل العفو(٢) واشتد الذعر بالغلمان والخاصة على اختلاف طوائفهم ، فضجوا واستغاثوا وطلبوا العفو والأمان فأجيبوا الى ما طلبوا ، وتبعهم فى الإستغاثة التجار وأرباب المهن والحرف ، وتوالى صدور الأمانات لمختلف الطوائف، فصدر أمان للغلمان الأتراك وصبيان الخاص ، وصدر أمان لخدم القصر الموسومين بخدم الحضرة بعدما اجتمعوا وهرعوا إلى قبر العزيز وضجوا بالبكاء والاستغاثة ، وصدرت أمانات لسكان الأحياء المختلفة ولسائر الطوائف ، وقرئت هذه الأمانات ووزعت على أهلها ، وقد أورد المسبحى صورة إحدى هذه الوثائق ، (٣).

هذه مصر بأكملها تعيش فى حالة رعب وخوف من موت مجهول ، ويشترك

---

(١) ابن تغردى بردى : النجوم الزاهرة ص ٢١٢ .

(٢) كانت الأوامر والقوانين والمراسيم التى تصدر عن الخلافة الفاطمية تسمى أولا (السجلات) ثم سميت فى أواخر الدولة « العهود » (صبح الاعشى جـ ١٠ ص ٢٠٨) .

(٣) عنان : الحاكم بأمر الله ص ٥٥ .

فى هذا الخاص والعام ، شعب بجميع طوائفه يهرع إلى حاكمه برجاء ألا يقتله قتلا جماعيا !

وقد مكنت سياسة الإرهاب هذه لسلطة الحاكم الفاطمى وهو لم يزل بعد شابا فى العشرين من عمره ، وسجل حياته حافل بالسفك والتشويه والمصادرات لأقرب الناس اليه .

ولم يقتصر أمر الحاكم على هذا الشذوذ الواضح فى القتل ، ولكنه أصدر عديداً من التشريعات الغريبة التى كان أبرزها منع الناس من العمل نهاراً ، واجبارهم على فتح الحوانيت ليلا ، فانقلب ليل القاهرة نهارا ونهارها ليلا ، وكأنه بذلك كان يريد تغيير نواميس الحياة ، وقد انقلبت الحياة الإجتماعية فى القاهرة انقلابا ملحوظا ، فانتشر الفجور واللهو والقصف والمجون بجانب الأعمال التى يزاولها الناس ليلا ، وتمادى الناس فى غيهم بسبب خروج النساء ليلا ومخالطتهم الرجال وبسبب حالة الخوف والرعب التى يعيش الشعب تحت سلطانها دائما الأمر الذى خلق جوا من الاستهتار وعدم المبالاة بالقيم والأخلاق ، وكان الحاكم فى أثناء ذلك يخرج إلى الناس ليلا يتفقد أحوالهم ويعيش فى الدروب والأحياء ، ويستمع الشكايات ، ويسير بين الرعية فى هدوء وثقة ، وكأنه بذلك كان يريد عبثا محاكاة عمر بن الخطاب رضى الله عنه مع الفارق الهائل بين الثريا والثرى .

وتقول كتب التواريخ عن حوادث سنة ٣٩١ هـ « وصدرت الأوامر بهذه المناسبة بتعليق المصابيح على جميع الحوانيت وأبواب الدور والمحال المختلفة فى جميع طرقات القاهرة والفسطاط ، فكانت المدينة تبدو فى هذه الفترة بالليل كأنها شعلة مضيئة ، ولازم الحاكم الركوب فى المدينة المنيرة ، وكان يزور كل ليلة حيا معينا ، ويشق طائفة من الشوارع والدروب ، ويقيم الحسبة بنفسه أحيانا ، ويستطلع أحوال الشعب وأخباره ، وأصبحت جميع الأعمال والمعاملات تجرى بالليل وتزدهر مواطن السمر ، وتختلط حياة الجد بحياة اللهو والقصف ، فتسطع

الميادين بالوقود والزينات ، وتغص بصنوف اللهو والمرح ، وتنفق الأموال الوفيرة فى المآكل والمشارب والسماع، وكان الحاكم يشق جموع الشعب المحتشدة فى بساطة ورقة ، ولا يمنع أحدا من الدنو منه أو من مخاطبته » (١) .

وقد حار المستشرقون أيضا فى تفسير هذا السلوك المتناقض بين عسف الحاكم وتظاهره بالعدل فى الرعية ، وسعيه إلى الالتقاء بها . مباشرة ودون وسيط عن طريق السير فى الأسواق والطرقات ، وأخذ المظالم منهم ، والبت فيها ، وتوزيع العطايا والهبات على أفراد الرعية . ويعبر آدم متز (٢) عن حيرة المستشرقين فى قوله :

« وأخيرا جاء الحاكم بأمر الله وهو الشخصية النادرة المتناقضة ، كان الحاكم رجلا غريبا فى أطواره ، فمن ذلك أنه أقام سنين يجلس فى الشمع ليلا ونهارا ، ثم عن له أن يجلس فى الظلمة فجلس فيها مدة . وكان أحياناً يواصل الركوب ليلا ونهارا من غير فتور ولا سكون . وكان يركب فى نفر من خاصته ليلا فتقدم أصحاب الأعمال بمصر إلى التجار أن يوقدوا القناديل على حوانيتهم ودورهم وأن يبتاعوا بالليل فصارت الشوارع والأسواق فى الليل بمنزلة النهار فى العمارة ... ولما اختل وضعف عن الركوب اتخذت له ملحفة يجلس فيها ، ويستلقى عليها ويحملها أربعة من رجاله ، ثم يدور الليل والنهار ، وفى مثل هذه الأحوال كان يأخذ الرقاع والمظالم بشرط ألا يكتب فيها إلا سطر واحد على وجه واحد ويأمر صاحب الرقعة أن يأتى له من على يمينه ، وكان يأمرهم بالمسير إلى مكان يعينه لهم فى اليوم التالى ، وكان يضع توقيعاته وعطاياه فى كمه ويعطيها لهم يدا بيد » .

ولا شك أن هذه حسنة من حسنات الحاكم الفاطمى تجعله قريبا من نفوس

---

(١) محمد عبدالله عنان : الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية ص ٦٢ ، ٦٣ .

(٢) آدم متز : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى جـ ١ ص ١٩ ، ٢٠ :

الناس، ولولا ضعفه وتناقضه واختلال عقله لكان نموذجا للحاكم العادل الذى يسهر على شئون رعيته ، ولكنه سرعان مابطش بالناس ، الذين لم يرضهم حكمه فكانوا يحتجون على ذلك بشتى الطرق ، بالفكاهة أو بالنكتة أو بالغناء أو بالتحايل على نقده وشتمه وسبه ، فلقد كان الشعب سنيا فى عقيدته وكان يكره أفعال هذا الحاكم الشاذة وأوامره الغريبة خاصة بعد أن « كتب على المساجد والجوامع سب أبى بكر وعمر وعثمان وعائشة وطلحه والزبير ومعاوية وعمرو بن العاص رضى الله عنهم فى سنة خمس وتسعين وثلثمائة (١) » واضطر بعد ذلك بسنتين أن يزيل لعنته من على مساجد مصر « ثم محاه فى سنة سبع وتسعين » (٢) « كما تدخل فى الفرائض والسنن ، ومنع من صلاة التراويح عشر سنين (٣) » ولكن الضغط الشعبى جعله يبيح صلاة التراويح بعد ذلك » (٤) . وقد أثارت هذه الأوامر المتناقضة غضب الناس خاصة مايمس الناحية الدينية ، وكان المصريون موتورين منه ، فكانوا يدسون إليه الرقاع المختومة بالدعاء عليه ، والسب له ولأسلافه والوقوع فيه وفى حرمه ، حتى انتهى فعلهم إلى أن عملوا تمثال إمرأة من قراطيس بخف وازار ، ونصبوها فى بعض الطرق . وتركوا فى يدها رقعة كأنها ظلامة ، فتقدم الحاكم وأخذها من يدها . فلما فتحها رأى فى أولها مااستعظمه فقال : أنظروا هذه المرأة من هى ؟ فقيل له : أنها معمولة من قراطيس فعلم أنهم قد سخروا منه ، وكان فى الرقعة كل قبيح (٥) » .

كانت هذه الوسيلة تعبيرا عن غضبة الشعب المصرى ، واستنكاره لأفعال الحاكم

---

(١) ابن تغردى بردى النجوم : الزاهرة ج ٤ ص ١٧٦ .

(٢) نفس المصدر السابق .

(٣) نفس المصدر السابق .

(٤) نفس المصدر السابق .

(٥) نفس المصدر السابق ص ١٧٨ ، ١٧٨ .

الفاطمى، وإستبداده وبطشه، وكان رد الحاكم على هذا الاحتجاج الصارخ مشابها لرد «نيرون» حين أحرق «روما» فقد استدعى عرفاءه وقواده وأمرهم بحرق مصر «المحروسة» وأمرهم بالمسير إلى مصر وضربها بالنار ونهبها، وقتل من ظفروا به من أهلها، فتوجه اليها العبيد والروم والمغاربة[1]. وناضل المصريون عن أنفسهم وأموالهم وحرماتهم، أمام هذا السلب والحرق المنظم، وعلم أهل مصر بذلك فاجتمعوا وقاتلوا عن أنفسهم، وأوقعوا النار أطراف البلد، فاستمرت الحرب بين العبيد والعامة والرعية ثلاثة أيام»[2].

وكان الطاغية يتلهى بمنظر المدينة وهى طعمة للنيران، وغنيمة للنيران، وغنيمة للعبيد والمغاربة واللصوص يسرقون وينهبون ويختطفون حرائر النساء والحاكم يركب فى كل يوم إلى القرافة ويطلع إلى الجبل ويشاهد النار ويسمع الصياح، ويسأل عن ذلك فيقال له: العبيد يحرقون مصر وينهبونها، فيظهر التوجع ويقول لعنهم الله! من أمرهم بهذا[3] لقد كان برجوان وصى الحاكم المقتول صادقا حين وصفه بقوله «هذه الوزغة الصغيرة» أى الحية التى تلدغ وتختفى. وكان الحاكم أكثر صدقا حين وصف نفسه بأنه قد كبر وأصبح «تنينا كبيرا» يبث الرعب والخوف والدمار فى أنحاء دولته.

كما اتبع الحاكم سياسة متشددة مع النساء، وأغلب ظنى أنها كانت رد فعل لشيوع حياة المجون والخلاعة فى أنحاء الدولة. فأمرهن بعدم السير فى الطرقات وأن يمكثن فى الدور، وحرم عليهن الخروج إلى الأسواق، وأمر الباعة بالطواف فى الدروب، ومنع من صنع الأحذية النسائية، وكانت المرأة لا تخرج إلى الطريق إلا بتصريح من الدولة بذلك ولسبب ضرورى.

---

(١) نفس المصدر السابق ص ١٧٨

(٢) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة ج ص ١٧٨ .

(٣) نفس المصدر السابق .

«ولم يستثن من ذلك سوى النساء المتظلمات للشرع ، والخارجات إلى الحج، أو للمسافرات التى تضطرهن ظروف قاهرة إلى السفر، والأماء اللاتى برسم البيع ، والقابلات ، وغاسلات الموتى ، والارامل اللاتى يبعن الغزل ، وأن يكون خروج هؤلاء لمزاولة شئونهن برقاع خاصة ترفع إلى القصر»[1] .

واستمر هذه القوانين الصارمة بالنسبة للنساء قرابة سبعــة أعوام ، وذهبت سدى أصوات الاحتجاج ، ومن تجرأ من النسوة على رفـــع أصواتهن عوقبن بالإعدام «وكان حادثا» منقطع النظير، ولم يحدث قط فى أى مجتمع إسلامى[2].

وكان الحاكم متشددا فى تنفيذ أوامره الغريبة تلك ، وكان يعاقب المخالفين بالتشهير والجلد والإعدام أيضـا , وكان ينص فى أوامره الغريبـة تلك ، وكان ينص فى أوامر تعيين مدير الشرطة على معاقبـة من يخالف تطبيق جنون الحاكم فى الحياة اليومية .

« فنجد مثلا فى السجـل الصـادر بتعيين « غبن » قائد للقواد ومديرا للشرطة والحسبة (سنة ٤٠٢هـ) تنويها خاصا بمراعاة تحريم النبيذ وغيره من الخمور وتتبع ذلك والتشديد فيه ، وفى تحريم الفقاع وبيعه ، وتحريم أكل الملوخيا ، والسمك الذى لاقشر له والمنع من الفرجة والملاهى كلها ، ومنـع النساء من حضور الجنائز ومنع بيع العنب والعسل إلا ثلاثة أرطال فما دونها أولمن لاتتجه إليه فطنة إتخاذه مسكراً[3] إلى آخر الممنوعات الحاكمية الغريبة .

واتبع الحاكم سياسة ذميمة فى إضطهاد أهل الذمة ــ اليهود والمسيحيين ــ الذين كانوا يتمتعون بكامل حريتهم الدينية ، ويمارسون شعائرهم دون تدخل من

---

(١) محمد عبدالله عنان . الحاكم بأمر الله ص ٦٧

(٢) نفس المصدر ص ٦٧ .

(٣) نفس المصدر السابق ص ٦٨ .

الدولة ، ويزاولون كافة الأعمال التى يرغبون فيها . ويعترف المستشرقون بسماحة الإسلام من هذه الناحية فيقول متز: «ولم يكن فى التشريع الإسلامى مايغلق دون أهل الذمة أى باب من أبواب الأعمال ، وكان قدمهم راسخا فى الصنائع التى تدر الارباح الوافرة ، فكانوا صيارفة وتجارا وأصحاب ضياع وأطباء ، بل إن أهل الذمة نظموا أنفسهم بحيث كان معظم الصيارفة والجهابذة فى الشام مثلا يهودا ، على حين كان أكثر الأطباء والكتبة نصارى . وكان رئيس النصارى ببغداد هو طبيب الخليفة . . .

وقد وجد بنيامين فى القدس فى القرن الثانى عشر الميلادى أن اليهود يحتكرون صنعة الصباغة ، وكذلك الاثنى عشر يهوديا الذين وجدهم فى بيت لحم فقد كانوا جميعا صباغين . . . »(١).

وكان الفاطميون يتبعون سياسة متسامحة مع أهل الذمة ، وأستطاع النصارى أن يصلوا إلى مناصب الوزارة فى عهد الفاطميين ، بل أن الحاكم الفاطمى نفسه قد ولى منهم الوزارة : فهد بن ابراهيم ، وأبن عبدون ، وزرعة بن عيسى بن نسطوروس. وكان النصارى ينعمون برغد العيش (وبدت الاقلية النصرانية سيدة عزيزة الجانب ، بينما تقلص نفوذ الأكثرية المسلمة)(٢) .

وكان المصريون يضجون أحيانا من نفوذ أهل الدمة ، والدليل على ذلك ماقاله الشاعر المصرى الحسن بن خاقان مهاجما زيادة النفوذ اليهودى — فيما بعد — لدرجة أن أبا نصر صدقة بن يوسف الفلاحى اليهودى الذى اعتنق الإسلام تولى الوزارة سنة ٤٢٦ هـ ، وكان يعاونه يهودى اخر — لم يعتنق الاسلام — هو أبو سعد التسترى . ولذلك قال الشاعر المصرى (٣).

---

(١) ادم متز : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع جـ ١ ص ٥٢ ، ٥٣ .

(٢) محمد عنان : الحاكم بأمر الله واسرار الدعوة الفاطمية ص ٧٥

(٣) السيوطى : حسن المحاضرة جـ ٢ ص ١١٧

يهـود الزمان قد بلغـوا غاية آمالهم وقد ملكوا
العز فيهم والمـال عندهمو ومنهم المستشار والملك
ياأهل مصرانى نصحت لكم تهودوا ، قـد تهود الفلك

هذه السخرية المرة تعبر عن « السرطان» الذى بدأ يسرى فى كيـان الامة المصرية ولعل هذه النفوذ هو الذى دعا الحاكم إلى غضبته الشديدة على الذميين ، وإغراقه فى إضهادهم حتى لقد أمرهم جميعا بلبس السواد — وهو شعار العباسيين أعداء الفاطميين — وكأنه قد حكم عليهم بالانضمام إلى صفوف الاعضاء .

« وجعل لاهل الذمـة علامات يعرفون بهـا ، وألبس اليهود العمائم السود ، وأمر ألايركبوا مع المسلمين فى سفينة . وألايستخدموا غلاما مسلما ، ولايركبوا حمار مسلم ولايدخلوا مع المسلمين حماما ، وجعل لهم حمامات على حدة ، ولم يبق فى ولايته ديرا ولا كنيسة إلا هدمها[1]. وقد اجترأ الحاكم الفاطمى فحرق كنيسة القمامة بالقدس وهى القبر المقدس للمسيحيين التى بنيت على موضع كانت توضع فيه القمامة خارج القدس زمن المسيح . مما ألهب الشعور الدينى فى الغرب ومهد للدعوة إلى الحروب الصليبيـة لاستنقاذ بيت المقـدس أيدى المسلمين الذين أحرقوا القبر المقدس . وقد اضطر الكثيرون من الذميين إلى الهجرة من مصر بعـد أن سمح لهم الحاكم بذلك .

وكانت نكبة النكبات فى النهاية ادعاء الحاكم بالألوهية ، وكان هذا قمة جنونه وطموحه الشاذ . ففى سنة ٤٠٨ هـ ظهر داعية مخبول يدعى حمزة بن على بن احمد الزوزنى ، ويعرف باللباد ، ودعا إلى ألوهية الحاكم فى عدة رسائل له وجمع حمزة مجموعة من تلاميذه المخبولين «وفى مقدمة هؤلاء حسن بن حيدرة الفرغانى المعروف بالأخرم ومحمد بن اسماعيل الدرزى .. واسماعيل بن محمد التميمى ...»[2].

(١) ابن تغردى بردى : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٧٦
(٢) محمد عنان : الحاكم بأمر الله ص ١١٤ .

ولقى هؤلاء الدعاة دعما خفيا من الحاكم الفاطمى الذى لم يقاومهم ، وإنما عمل على حمايتهم وتشجيعهم ، بينما ثار الشعب ثورة عارمة وفتك بالكثيرين منهم ، وفى الثانى عشر من صفر سنة ٤١١ هـ — ركب فريق من أصحاب حمزة على خيول وبغال ، ودخلوا الجامع العتيق (جامع عمرو) عليها ركبانا ، وهم يجاهرون بمذهبهم ، وكانت الساحة قد أعدت لقاضى القضاة ؛ واحتشد الناس فى جنباتها ينتظرون مقدمة ، فتقدم ثلاثة من الملاحدة واحتلوا منصة القاضى ، وأخذوا يلقون على الحضور أصول دعوتهم وفكرتهم فى الألوهية فضج الناس بالتكبير والتهليل والتضرع لله عز وجل ، وهرع الكافة إلى المساجد لرؤية ذلك المنظر الغريب ولم يلبث أن قدم القاضى فى موكبه إلى المسجد ، وهو يومئذ احمد بن محمد بن ابى العوام ، فأخبره الناس بما حدث ، ولما تقدم من المنصة ليتبوأ مجلسه قدم إليه أحد الدعاة الثلاثة رقعة من حمزة ، أولها « باسم الحاكم لله ، الرحمن الرحيم ، وفيها يأمره بالاعتراف بألوهية الحاكم ، وإذاعة ذلك فى الكافة ، فأجاب القاضى محتجا منكرا ، وأنه سيعرض الأمر على مولاة ، فأغلظ له الدعاة الكلام ، فثار الناس ، ووثبوا بالدعاة الثلاثة فقتلوهم فى الحال ، ثم انقضوا على باقى الملاحده فمزقوهم تمزيقا ، وقتلوهم أشنع قتل ، وانطلقوا فى الجامع يتتبعون أصحاب حمزة وأتباعه حيث وجدوا ، ويقتلونهم ثم يحرقونهم ، ولما وقف الحاكم على هذه الحوادث ثارت نفسه غضبا . . . »[1] .

ويظن العاقلون أن الحاكم سيغضب لاجتراء أولئك الدعاة على تدنيس حرم الجامع العتيق ببغالهم بكلامهم البذىء وباجترائهم على قاضى القضاء وجهرهم بدعوتهم القذرة فى بيت الله وأمام جمهور المسلمين . ولكن كان غضبه موجها نحو الشعب الذى ثار دفاعا عن دينه ، وعن مقدساته . وعن تراثه الروحى :

« وأمر — أى الحاكم — بالقبض على قتلة الملاحدة ، فقبض على كثيرين

---

(١) اخبار الدول المنقطعة للوزير جمال الدين المصرى (مخطوط)
محمد عنان : الحاكم بأمر الله ص ١١٦ ، ١١٧

وأعدموا فاشتد سخط الكافة ، وشاطرهم الجند شعورهم،وأحاط جماعة من الترك بدار مواطنهم الدرزى ، فقاتلهم الدرزى وأصحابه من داخلها ، ثم فر الدرزى ناجيا بنفسه والتجأ إلى القصر،طالبوا الحاكم بتسليمه باعتباره مواطنهم، فوعدهم الحاكم أولا باجابة مطلبهم ، ولما عادوا اليه فى اليوم التالى قيل لهم أن الدرزى قد قتل، فارتدوا مغضبين، وقصدو إلى مسجد ريدان حيث يجلس حمزة الزوزنى فلم يجدوا له أثرا . (١)

ويدل هذا النص على ان الحاكم كان يحمى دعاة ألوهيته،وكان الشعب يستاء غاية الإستياء من هذه الحمـــايه ، ويثور . ويحاصر القصر ، ويطالب برؤوس الملاحدة فيضطر الحاكم إلىالاذعان الوقتى ربما يهرب الدعاة إلى الشام بعيداً عن غضبة العامة عليهم وعليه أيضا .

وغرقت مصر فى البلبله الفكرية والإضطراب السياسى،ولم يرض الكثيرون من الدعاة المخلصين عن بدعة تأليه الحاكم . فالداعى احمد حميد الدين الكرمانى الذى أرسل الحاكم فى إستدعائه من العراق حين ظهرت بدعة تأليهه سنة ٤٠٨ ﻫ يصف حال مصر قائلا (٢) :

« فأنى لما وردت النبوية مهاجراً ، وللسدة العلوية زائرا ، ورأيت السماء قد اظلت بسحاب عميم ، والناس تحت إبتلاء عظيم ، والعهد فى الرسوم السالفة قد نقض وعن أوليـاء الدين بما كسبت أيديهم قد أعرض ، والرسم فى عقد مجلس الحـكمه جريا فيهم بالإحسان قد رفض ، والعـالى قد اتضع ، والسافل منهم قد إرتفع ، وشاهدت أولياء الدعوة الهادية — بسط الله أنوارها — والناشئين فى

---

(١) محمد عنان : الحـاكم بأمر الله واسرار الدعوة الفاطمية ص ١١٧ عن اخبار الدول المنقطعة (مخطوط) .

(٢) د . محمد كامل حسين : الرسالة الواعظة (رسالة مباسم البشارات من مجموعة رسائل الكرمانى — مخطوط) مجلة كلية الاداب جامعة فؤاد المجلد ١٤ ج مايو ١٩٥٢

عصمة الإمامة وأولى ولأنها قد جرهم ما يطرأ عليهم من هذه الأحوال التى تشيب لها النواصى ، وبهرهم ما تجدد لهم من الأسباب التى لا يهلك بها إلا أولو النفاق والمعاصى ، وهم يومئذ يموج بعضهم فى بعض ، ويرعى كل منهم صاحبه بفسق ونقض ، تتلاعب بهم الأفكار الرديه وتتداولهم الوساوس المرديه ، ثم لايعلمون ما أظلم من الدخان المبين ولا ما ألم بهم من الامتحان المستبين ، فصار البعض منهم فى الغلو مرتقين إلى ذراه ، والبعض فى النكس على أعقابهم تاركين عصمة الدين وعراه ، والقليل منهم قد تزعزع أركان إعتقـــادهم . ومافبلوه من الدين باختيارهم ، وهم على شفا إنحلال واختلال ، وإعناق أولى الطرفين من الأبالسة إلى إختلاسهم ممتدة ، وهمها فى إصطيادهم عن اعتقادهم محتدة .

وتعبر هذه الرسالة الكرمانية عن حال أولئك الدعاة المخبـــولين الذين لم يقتنعوا بدعوتهم ، فكانوا يختلفون فيما بينهم ، ويسب بعضهم بعضا لما يفعلون ، ويبغضهم الكرمانى ابداؤهم فى دعوتهم ويتنبأ لهم بالهلاك بسبب عقيدتهم الفاسدة .

ولم يأل الكرمانى جهدا بعد ذلك فى دحض دعوى ألوهية الحاكم . وتفنيدها تفنيداً منطقيا . فيقول فى (الرسالة الواعظة — تجمع موعظة وأجــــوبة عن مسائل المارق فى الدين حسن الفرغانى الأجدع) :

« وأما قول أصحابك : ان المعبود تعالى هو أمير المــؤمنين سلام الله عليه فقول كفر تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال » . . . فما أمير المؤمنين عليه السلام إلا عبد الله خاضع له وطائع . يسجد لوجهه الكريم ، ويعظمه غاية التعظيم : وباسمه يستفتح ، وعليه فى أموره يتوكل ، وأمره إليه يفوض . . . . وكيف يكون معبودا وهو جسم ذو أبعاض مؤلفة ، ونفس ذات قوى مكلفة ، يأكل ويمشى وينام ويستيقظ ، وتنطوى عليه الأحوال المتضادة

---

(١) د . محمد كامل حسين : الرسالة الواعظة للكرمانى مجلة كلية الاداب جامعة فؤاد الاول المجلد ١٤ ج ١ مايو ١٩٥٢ .

من رضاء وسخط ، وغم ومسرة وسقم وصحة كثيره من البشر » .

وكانت صيحة الحق هـذه فى مكمن الدعوة ، وفى عنفوان ظهـورها ردا على أولئك الذين كفروا وساعدوا الحاكم على تأليه نفسه .

وكما يبدو من فترة حكم الحاكم الفاطمى أن مصر عانت الـكثير من الاضطراب والإختلال السياسى . ولم ينج أحد من مصائب هذه الفترة الـكثير ، إشترك فى تلقى ويلاتها سكان القصور والأكواخ معاً ، الذميـــون والمسلمون ، العرب وغير العرب ، دمشق والفسطاط .

ولقد ذهب الحاكم بأمر الله ، وتوارت دعوته إلى غير رجعة ، وتركت بعض بصماتها على مذهب الدروز ولـكنها تركت أسوأ الأثر فى الحـالة السياسية والإقتصادية والفـكرية فى القـرنين الرابع والخامس للهجرة ، وكان إمتـداد هذا الأثر يطرق ابواب المعرة ، بل باب ابى العلاء فى وحدته وسكونه وتأملاته فى صورة الرسائل التى بعثهـا له داعى الدعاة الفاطمى.

الفصل الثالث

الفرق والمذاهب

تعددت الفرق والمذاهب الفلسفية والدينية فى الدولة العربية . وقام الصراع المرير بينها جميعا من أجل الوصول إلى السيطرة الدنيوية ليقسنى لها فرض وجودها، ولذلك فإن الحركات السياسية والجيوش المتحاربة بالفكر ، أو بالسلاح كانت تقف خلفها فرقة دينية أو مذهب من المذاهب التى انتشرت وتعددت وتكاثرت بشكل ملحوظ .

« وقد كانت الفلسفة منتشرة المذاهب فى الناس منذ أمر بتعريب كتبها المأمون فى أعوام بضع عشرة سنة ومائتين — قال المقريزى : واشتهرت مذاهب الفرق من القدرية والجهمية والمعتزلة والكرامية والخوارج والروافض والقرامطة والباطنية حتى ملأت الأرض ، وما منهم إلا من نظر فى الفلسفة وسلك من طرقها ماوقع عليه إختياره فلم تبق مصر من الأمصار ولاقطر إلا وفيه طوائف كثيرة ممن ذكرناهم . . . (١) » .

وكانت الفرق الدينية تمثل دولة داخل الدولة كما يقول دى بور : (٢)

وفى بلاد الشرق ، حيث كان كل دين يكون مايشبه دولة فى داخل الدولة ، كانت الأحزاب السياسية تظهر دائما فى صورة دينية ، إن كانت تريد أن يكون لها أنصار مطلقا .

---

(١) مصطفى عبد الرازق : تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية ص ٢٩١

(٢) دى بور : تاريخ الفلسفة فى الاسلام ص ١٢١ .

وليس هدفي هنا أن أتتبع الفرق بالتحليل العلمي، وأغوص وراء منابعها، وأفكارها بل إن مايعنيني هو التركيز على بعض الفرق والمذاهب ذات التأثير المباشر على عصر المعري.

وقد بين الشهرستاني(١) القواعد التي يبنى عليها تعدد الفرق الاسلامية وهي: الصفات والتوحيد. والقدر والعدل، والوعد والوعيد، والسمع والعقل والرسالة والأمانة ولخص أصول الخلاف بين الفرق جميعها في أربع قواعد، وقسم الفرق الاسلامية الكبرى بعد ذلك إلى أربع فرق كذلك هي: القدرية والصفاتية، والخوارج، والشيعة وثم يتركب بعضها مع بعض ويتشعب عن كل فرقة أصناف فتصل إلى ثلاث وسبعين فرقة. ويكفي النظر في كتب الشهرستاني والبغدادي(٢) والرازي(٣) وغيرهم ليروعنا هذا العدد الهائل من الفرق التي تنتمي أحيانا إلى الاسلام وينتمي أكثرها إلى الغلو والباطنية أو الاشراك والتجسيم.

وأغلب ظني أن تعدد هذه الجماعات الدينية كان دليلا على حيوية العقل العربي بقدر ماكان دليلا على حيوية العقل العربي بقدر ما كان دليلا على فقدان النظرية الواحدة، نعم كان الاسلام الحنيف هو موقف السيد دائما، وكانت الشريعة الاسلامية الصحيحة المستندة على القرآن والسنة هي التي تظل برايتها أنحاء العالم الاسلامي، ولكن هذه الفرق كانت لها خطورة تفتيت الجبهة الفكرية، وإشاعة الجدل العقيم والانصراف عن العمل والجهاد، وبث بذور الفرقة بين الناس وزعزعة عقائد ضعاف النفوس.

---

(١) الشهرستاني: الملل والنحل ص ٥، ٦.
(٢) الفرق بين الفرق.
(٣) اعتقادات فرق المسلمين والمشركين تحقيق د. علي سامي النشار.

أولا ـ جماعة إخوان الصفا :

نشأت جماعة إخوان الصفا السرية فى البصرة بالعراق، ويحيط الغموض الشديد بنشأتها ومؤسسيها وهدفها الحقيقى ، ويربطها دى بور[١] بالقرامطة ، بينما يربطها الدكتور على النشار[٢] بالاسماعيلية ، وتعددت الآراء واختلفت حول هذه الجماعة التى نشأت فى البصرة والمصدر الوحيد الذى عرفنا منه مؤسسيها، هو قول أبى حيان فى كتابيه الامتاع والمؤانسة والمقابسات الذى نقله عنه القفطى : إذ سأل وزير صمام الدولة أبا حيان فى حدود سنة ٣٧٣هـ فأجاب أبو حيان : أن زيد بن رفاعة أقام بالبصرة زمنا طويلا ، وصادف بها جماعة جامعين لأصناف العلم وأنواع الصناعة ، منهم أبو سليمان البستى ويعرف بالمقدس ، وأبو الحسن الزنجانى وأبو أحمد المهرجانى، والعوفى وغيرهم . وكانت هذه العصابة قد تألفت بالعشرة وتصافت بالصداقة ، واجتمعت على القدس والطهارة والنصيحة، فوضعوا بينهم مذهبا زعموا أنهم قربوا به الطرق إلى الفوز برضوان الله ، وذلك أنهم قالوا أن الشريعة قد دنست بالجهالات ، واختلطت بالضلالات ، ولاسبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة ، لأنها حاوية للحكمة الاعتقادية ، والمصلحة الاجتهادية وصنفوا خمسين رسالة فى جميع أجزاء الفلسفة علمها وعملها ، وسموها « رسائل إخوان الصفاء » وكتبوا فيها أسماءهم وبثوها فى الوراقين ووهبوها الناس »[٣].

وكان «اخوان الصفاء» يعملون جهدهم للوصول إلى السلطة السياسية والاستيلاء على مقاليد الحكم ، شأنهم فى ذلك شأن معظم المذاهب الدينية ، ويرى الدكتور طه حسين أن أغراضهم السياسية كانت متطرفة ومسرفة فى التطرف ، ولذلك فهم

---

(١) دى بور : تاريخ الفلسفة فى الاسلام ص ١٢١ وما بعدها .

(٢) د . على سامي النشار « نشأة الفكر الفلسفى فى الاسلام ج ٢ ص ٣٠٩ ومابعدها .

(٣) أحمد أمين : ظهر الاسلام ج ٢ ص ١٤٣ .

يلتقون فى مذهبهم مع غلاة الشيعة ، أو مع الاسماعيلية [1] ويتفق معه فى هذه الصلة الدكتور على سامى النشار .

وأغلب ظنى أن المذاهب قد تشابكت جذورها و تعقدت فروعها، حتى ليصعب التفريق بين جماعة وأخرى ، فها هو ذا دى بوريرى أن أشخاص الفلاسفة الوثنيين كانت وراء التأويلات المجازية للقران الكريم التى كان اخوان الصفا يصرحون بها لخواصهم ، فيقول : [2]

« وكانت هذه الجماعات ترمى الى التغلب والوصول إلى السلطة السياسية ، وفى سبيل هذه الغاية لم تجد حرجا من التذرع بجميع الوسائل . وصار أعضاؤها يؤولون القرآن لخاصتهم تأويلا مجازيا . نعم ، لقد كانوا يرددون هذه الحكمة السرية الى أنبياء ممن وردت أسماؤهم فى التوراة أو فى القرآن ، ولكن وراءها فى الحقيقة أشخاص الفلاسفة الوثنيين » .

ويذهب دى بور الى الربط بين حركة اخوان الصفا وحركة القرامطة التى ظهرت فى القرن الثالث الهجرى ، وأثرت على مجرى الأحداث تأثيرا كبيرا .

كان عبد الله ميمون رئيس فرقة القرامطة مؤسسا لحركة من هذا الطراز فى النصف الثانى من القرن التاسع (الثالث الهجرى) . . . . واستطاع أن يؤلف بين أهل الايمان وبين الزنادقة : وأن يجعل منهم حزبا يعمل على اسقاط الدولة العباسية . . وكان يدعوا إلى احتقار الجسد ، والاستهانة بالماديات وإلى اشتراك

---

(١) د . طه حسين : مقدمة رسائل أخوان الصفا ص ٨ ويناقش الاستاذ محمد سليم الجندى فى كتابه الجامع فى أخبار أبى العلاء ص ٢٦٠ وما بعدها اراء الدكتور طه حسين فى العلاقة بين المعرى واخوان الصفا .

(٢) دى بور « تاريخ الفلسفة فى الاسلام ص ١٤١ اخوان الصفا — يسمون أنفسهم : أخوان الصفا وخلان الوفاء ، وأهل العدل وأبناء الحمد (هامش — دى بور ص ١٢١) .

جميع أعضاء الجمعية المتآخين فى الخيرات ، وإلى التضحية بالنفس فى سبيل الجماعة، وإلى أن يكون الإنسان مواليا لرئيسه مطيعا له حتى الموت ، لأن الجماعة التى ألفها كانت طبقات بعضها فوق بعض ، مما يقضى بالطاعة والتضحية ...(١)

وقد تغلغل القرامطة فى جسد الدولة الاسلامية ، وهاجموا مكة المكرمة ، وانتزعوا الحجر الأسود ، وقطعوا الطريق على الحجاج ، وعاثوا فسادا فى جنوب العراق ، وهددوا العباسيين تهديداً خطيرا ، وقد تمركزوا فى منطقة الإحساء ، وأسسوا لهم دولة مرهوبة الجانب ،وحتى عام ٤٤٣هـ وجد الرحالة ناصر خسرو عندما زار الإحساء — عاصمتهم — أنهم كانوا يقيمون على باب البيت الذى فيه قبر مؤسس مذهبهم فرسا بسرج ولجام ، لايغادر مكانه لاليلا ولانهارا ، ويقولون أنه للمهدى يركبه متى ظهر . ويحكى أبو العلاء المعرى عمن سافر إلى اليمن أن بها فى عهده جماعة كلهم يزعم أنه القائم المنتظر ، فلايعدم جباية من مال يصل بها إلى خسيس الآمال ..(٢).

لقد أصبحت دعوى المهدى المنتظر تجارة يتكسب بها بعض من يملكون المهارة على خداع العامة ، ولكن البحث فى أصول هذه الدعوة أوغيرها يشوبه شىء كثير من الغموض وإن كان أبو العلاء المعرى يرى أن هذه الدعوات هدفها التكسب بالتدين والاحتيال من أجل السحت يقول متز(٣) ولن يستطيع أن نتبين مقدار إيمان الناس بدعوى هؤلاء المدعين ، ولامبلغ رغبة هؤلاء الناس فى التكسب بهذا التصديق بدعواهم ، كما لن نستطيع معرفة مقدار مافى تلك الحركة بجملتها من اخلاص وتدين ... على أنه ينبغى أن نلاحظ أن اليمن كانت دائمة من أغرب الاقاليم فى العالم من حيث الروحانية ، وأن روحها أبعد عن الروح الأوربية من

---

(١) دى بور « تاريخ الفلسفة فى الاسلام ١٢٢ ، ١٢٣

(٢) ادم متز : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع ج ٢ ص ٤٨

(٣) نفس المصدر السابق .

الروح المغولية مثلا . يقول أبو العـــلاء المعرى : ومازال اليمن منذ كان معدنا للمتكسبين بالتدين ، والمحتالين على السحت بالتزين .

وأغلب ظنى أن هذه العلاقه التى يقيمها «دى بور» بين اخوان الصفا والقرامطة لاتقوم على أساس تاريخى ثابت ، أما الأساس التنظيمى الذى يرى فيه «دى بور» وجه الشبه ، وهو الطبقات التى يتفانى صغيرها فى خدمة كبيرها ، فيكاد يكون هذا النظام موجـودا فى كل التنظيمات السرية قديما وحديثا ، والتى تعتمد أساسا على فكرة الولاء المطلق للرئيس ، ونفس هذا الولاء نجده عند الشيعة بجميع فرقهـا ، والاسماعيلية أيضـا حتى ليحـكى أن « سنان شيخ الجبل » كان يأمر أحد الأتباع بإلقاء نفسه من قمة قلعة « الموت » الشاهقة فيذعن لأمره على الفور ، وكان يدلل بذلك على نفوذه المطلق على نفوس الحشيشية (١) .

وكانت تعاليم إخوان الصفا ذات صبغة إنسانية رفيعة فى بعض جوانبها ، فهم يأمرون من يدخل معهم بالتفـانى فى خدمة الجماعة ، بكل مايملك من مال وجهد ، وكانت فلسفتهم تقدس العمل والسعى فى الأرض ، وترى أن من واجب العالم أن يعطى علمه للجاهل ، وعيبهم الأساسى — فى رأيى — أنهم جعلوا العلم وقفا على طبقة عليا ، ولم يشيعوا علمهم بين العامة حتى يستبصروا به ، ولعلهم كانوا يرون فى بعض جوانب علمهم شيئا يجب الحرص على سريته :

وهم ينادون بأن يكون الواحد منهم مخلصا حتى الموت ، إذ أن ملاقاة الموت فى سبيل صلاح الأخوان هى عندهم الجهـــاد الصحيح ، وكانوا يقولون الحج الى مكة بأنه مثل ضربه الله لطوف الإنسان على هذه الأرض ، فأوجبوا على الانسان

---

(١) وردت هذه الكلمة فى الكتب الاسلامية القديمة المعتبرة مثل ابن الأثير ، وعبر عنها صاحب كتاب الروضتين « بالحشيشية » واحدها « حشيش » ولما أراد الافرنج نقلها الى لغتهم اختاروا الصيغة الأولى فقالوا « Assaasins » (أحمد زكى باشا — فصل فى رسائل اخوان الصفا ص ٢٢).

أن يساعد أخاه فى هذه الحيـــاة بكل مايتسع له جهده ، فيجب على ذى المال أن أن يجعلى للفقير حظا من ماله ، وعلى ذى العلم أن يعلم أخاه الجاهل ، غير أن العلم - كما نراه فى رسائل الاخـــوان حبس على خاصته المستبصرين من أفراد الطبقة العليا(١) :

وكان اخوان الصفا يجتمعون أسبوعيـا للدراسة والتعلم وتركوا مجموعة من رسائلهم المشهورة التى تعتبر مراة تنعكس فيهـا عقليـة المجتمع الاسلامى فى القرن الرابع الهجرى ، وتختلط فيهـــا الثقافات الهندية والفارسية والعربية، وكما يصفها الدكتور طه حسين :

ورسائل إخوان الصفاء هذه تمثل الحياة العقلية فى ذلك العصر كما تمثل الحياة السياسية فهى مرآة تنعكس فيها الحيـاة العقلية إنعكاسـا مباشرا . ونحن نرى فيها هذه الحياة واضحة جلية : نرى أن العقل الاسلامى فى القرن الرابع كان قد وعى مانقل إليه من فلسفـــة اليونان وحكمة الهنـد وآداب الفرس والآداب العربية والإسلام وغيره من الديانات السماوية وغير السماوية وجمع ذلك ورتبه ولاءم بينه وحاول أن يكون منه مزاجا واحدا مؤتلفا هو خلاصة الثقافة التى يجب على الرجل المستنير حقا أن يظفر بها ويأخذ منها بالحظ الموفور(٢) .

ويربط د. طه حسين(٣) بين رسائل إخوان الصفا وبين اللزوميات ورسالة الغفران لأبى العلاء المعرى من ناحية شيوع الثقافات الأجنبية - وبخاصة مذاهب الهند وأساطيرها الشعبية - التى وجدت طريقها فى الفلسفة والأدب معا .

كما يرى أن أبا العلاء المعرى كان يحضر المجالس الفلسفية التى كان يعقدها اخوان الصفا فى بغداد ، وكذلك كان يحضـر المجمع الخاص الفلسفى الذى كان

---

(١) دى بور : تاريخ الفلسفة فى الاسلام ص ١٢٤

(٢) الدكتور طه حسين : مقدمة رسائل اخوان الصفاء ص ١٠

(٣) نفس المصدر ص ١٠ ، ١١

ياتلف يوم الجمعة بدار عبد السلام البصرى ، وفيه يقول من قصيدة بعث بها إليه:

تهيج أشواقى عروبة[١] : أنها إليك زوتنى عن حضور بمجمع

وكأنه هذا المجمع السرى ، الذى أسماء إخوان الصفاء [٢] ، لشيوع هذا اللفظ بين المسلمين فى ذلك العصر . ودلالته الخاصة على جماعة فلسفية تشترك فى الأغراض والآراء ، وذلك حيث يقول :

كم بلدة فارقتها ومعـــاشر يذرون من أسف على دموعا
وإذا أضاعتنى الخطوب فلن أرى لوداد إخوان الصفاء مضيعا
خالالت توديع الأصادق للنوى فمتى أودع خـلى التوديعا

كما يرى الدكتور شوقى ضيف[٣] أن رسائل إخوان الصفا كانت وليدة القرمطية وأنها أثرت فى المتنبى أستاذ أبى العلاء : وقد تكون رسائل إخوان الصفا متأخرة فى عصر المتنبى قليلا ، ولكنها على كل حال وليدة القرن الرابع الذى عاش فيه كما أنها وليدة القرمطية بنوع خاص، وليس من شك أن عناصرها كانت سائدة فى أوساط القرامطة لعهد المتنبى غير أن الدكتور شوقى ضيف ينفى فى الطبعات الأخيرة من كتابه[٤] رأيه فى قرمطية المتنبى، ولست أشك فى أن النتيجة التالية لذلك هى أن رسائل إخوان الصفا ليست وليدة القرمطية وان تكن قد تأثرت بها كفكرة كان لها أنصارها ودعاتها وسيوفها المحاربة .

وأغلب ظنى أن أبا العلاء قد عرف طريقه إلى تلك المجامع الفلسفية لأخوان الصفاء ، ينهل منها شيئا من فكرهم وفلسفتهم ، ويرى الأستاذ أحمد أمين أنه لم يكن عضوا عاملا فى إخوان الصفا وإن كان عارفا لأرائهم أو على صلة ببعض أعضائها

(١) عروبة : يوم الجمعة
(٢) د . طه حسين : تجديد ذكرى أبى العلاء ص ١٤١
(٣) د . شوقى ضيف : الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ص ٢٢٥
(٤) طبعة ١٩٦٨ من الفن ومذاهبه فى الشعر العربى .

«غير أننا نرى أن أبا العلاء قد قطع صلته بالعالم وبالجمعيات منذ عاد من بغداد كسير النفس، كاسف البال، رهين المحبسين. وتدل عيشته بعد ذلك على نوع من المعيشة الانفرادية القاسية التي لا تسمح بأن يكون عضوا في جماعة»(١).

وأيا ماكان أمر إخوان الصفاء، جماعة تعنى بالتربية الروحية العقلية، أو حزب صفوة تسعى إلى تغيير شكل الحياة السياسية في ذلك العصر، فإنهم قد أثروا تأثيرا كبيرا في كثير من الأحزاب المتطرفة والجماعات الفدائية:

«وقد ظهرت آراء إخوان الصفاء في جملتها من جديد عند فرق كثيرة في العالم الاسلامي، كالباطنية والاسماعيلية والحشاشين والدروز أو غيرهم».(٢)

وينقل العلامة أحمد زكي نصا عن المجلة الآسيوية يقول:

«أن سنان بن سليمان الملقب برشيد الدين هو من أجل وأفخم رؤساء الاسماعيلية قد خدم في الموت المقدمين الذين كانوا قبله، وزاول علوم الفلسفة، وأطال نظره في كتب الجدل والخلاف، وأكب على مطالعه رسائل إخوان الصفاء»(٣).

كما أفلح إخوان الصفاء في غرس الحكمة اليونانية في أوساط الناس، بينما كانت قبل ذلك قاصرة على قصور السادة والأمراء؛ ولذلك فإن الإمام الغزالي في كتابه «المنقذ من الضلال» لا يعترف بفلسفة إخوان الصفا ويعتبرها فلسفة العامة من الناس. «وقد أفلحت الحكمة اليونانية في أن تستوطن الشرق، وذلك عن طريق إخوان الصفا، على حين كادت فلسفة المدرسة الأرسططاليسية لا تثمر إلا في جو مصطنع هيأه لها الأمراء. والامام الغزالي يرمى بفلسفة إخوان الصفا جانبا ويعدها فلسفة العامة من الناس، غير أنه لا يجد بأساً في أن يقتبس منها ما فيها من

---

(١) أحمد أمين: ظهر الاسلام ج ٢ ص ١٤٦.

(٢) دي بور: تاريخ الفلسفة في الاسلام ص ١٣٦.

(٣) أحمد زكي: فصل في رسائل اخوان الصفاء ص ٣٣، ٣٤

خير ، وهو مدين لفلسفتهم بأكثر مما يعترف به » (١) .

غير أن المظنون به أن إخوان الصفا يختلفون عن الاسماعيلية وأن تلاقيا فى بعض الجوانب ،ذلك لأن إخوان الصفا يعتمدون على الجانب الفكرى فى كفاحهم من أجل التغيير الاجتماعى ، ويستندون — بقدر أكبر إلى التربية الروحية على التفكير ، أما الاسماعيلية فكان الجانب التطبيقى والعملى معروفا فى نظريتهم وكانت لهم سلطة دنيوية فى بعض المراحل ولذلك فان قول الدكتور على النشار « بأن رسائل إخوان الصفا عمل إسماعيلى بحت ، وكان يتخذ لنشر الدعوة الاسماعيلية بحمل(٢) هذه الجماعة أكثر مما تحتمل لقد أحدثت هزة فكرية فى المجتمع ،واستقطبت كثيراً من المفكرين والأدباء حولها ، وبسطت فلسفة أرسطو ونشرتها ، ودعت إلى التعاون والأخاء والعمل الجاد والالتفاف حول قيادات فكرية جديدة .

ثانيا ـ الاسماعيلية والدروز :

إن الحديث فى الدعوة الاسماعيلية أكثر غموضا من البحث فى جماعة إخوان الصفا ذلك لأن التقية والستر أصل من أصول الاسماعيلية ، ولذلك يصعب على الباحث تتبع منابتها وأصولها ، « فى مثل هذه الدعوة الاسماعيلية اتخذ أصحابها التقية فأحكموا « الستر » لأنها بدأت فى عهد إرهاب وإضطهاد شديدين للشيعة عامة وأهل البيت خاصة ، فاضطر الشيعة إلى اتخاذ التقية »(٣) .

وليس يعنى هذا إجازة الربط بين الشيعة وطائفة الاسماعيلية التى يكفرها الكثير من الشيعة ، بقدر ما يعنى إلقاء الضوء على حياة الاضطهاد والخوف التى عاش فيها

---

(١) دى بور : تاريخ الفلسفة فى الاسلام ص ١٣٦ ، ١٣٧ ويقول الغزالى فى المنقذ من الضلال ص ١٣ ـ ١٤ و ص ١٩ عن فلسفة اخوان الصفا أنها خليط من حق وباطل ، وأنها بالاجمال فلسفة ركيكة ، وأنها على التحقيق « حشو الفلسفة »

(٢) د . على سامى النشار : نشأة الفكر الفلسفى فى الاسلام جـ ٢ ص ٣٩٢ .

(٣) د . محمد كامل حسين : المجالس المستنصرية ص ب

الشيعة ، وكانت هذه الحياة أرضا خصبة يبذر فيها دعاة الشيعة بذور الأمل للناس جميعا بأن المنقذآت لاريب وهو المهدى المنتظر الذى سيملأ الدنيا عدلا كما ملئت جوراً وظلما ، وقد التقط الاسماعيلية هذا الأصل الشيعى فى الدعـــوة إلى إمام معصوم يخلص الناس من عذابهم .

ويربط الدكتور محمد كامل حسين بين الدعوة الاسماعيلية وبـــين الظروف الاجتماعية القاسية التى سادت أرجاء العالم الاسلامى فى ذلك الوقت فيقول :

« وكانت الشعوب فى هذه الامارات تتطلع إلى منقذ ينقـــذهم من الأمراء ويعمل على أن يملأ الدنيا عدلا كما ملئت جوراً ، أى أن هذه الشعوب المعـذبة كانت تتطلع إلى المهدى المنتظر الذى سينشر العدل بين الناس ، وهذا هو أول عامل فى الدعوة الشيعية استغله دعاة الاسماعيلية المنبثين فى كل مجتمع ، فنشروا بـــين الشعب أحاديث كثيرة عن عدل أئمة الاسماعيلية ، وأنهم ماقاموا بتأسيس دولتهم الا لخير الانسانية ورفاهية المجتمع مما جعل الناس فى جميع البـــلاد الاسلامية ينظرون الى خلفـاء الدوله الفاطمية الفتية نظرتهم الى أملهم فى الخـــلاص من شقائهم ، واعتنق كثير منهم المذهب الاسماعيلى لا اعجابا منهم بالعقيدة الاسماعيلية انما لأملهم فى أن يحكم الأئمة بلادهم فيسود فيها العدل والسلام [1].

وأما البحث عن الاسماعيلية فى القرن الرابع الهجرى الذى يهم دراستنا فهـو أيضا مشوب بكثير من الصعاب والمزالق ، لأن مصادر البحث فى هـذا الوقت قاصرة على روايات أخى محسن التى حفظها لنا النويرى والمقريزى ، وهى روايات مشكوك فى صحتها ، ويقول متز » فى ذلك » .

« أما مذهب الاسماعيلية فى القرن الرابع الهجرى فلا نعرف عنه الا القليـل وأكبر مصدر يرجع تاريخه الى ذلك العهد ، هو ما حكاه أخو محسن وحفظه لنا

---

(١) محمد كامل حسين : طائفة الاسماعيلية ص ٣٧

النويرى والمقريزى ، وترجمه دى ساسى ، وهو كتاب مطعون فى مصدره لأنه مأخوذ عن كتاب فى الرد على الاسماعيلية لابن رزام ، وقد أوجس صاحب الفهرست خيفة من النقل عن هذا الكتاب ، فهو يروى عنه ويقول : أنا أبرأ من العهدة فى الصدق عنه والكذب فيه » (١) .

ويورد البغدادى فى كتابه « الفرق بين الفرق » تعريفـــا لفرقة الاسماعيلية فيقول : « وهؤلاء ساقوا الأمامة الى جعفر وزعموا أن الأمام بعده ابنه اسماعيل، وافترق هؤلاء فرقتين : فرقة منتظرة لاسماعيل ابن جعفر ـ مع اجماع أصحاب التواريخ على موت اسماعيل فى حياة أبيه ـــ ، وفرقة منهم قالت كان الأمام بعد جعفر سبطه محمد بن اسماعيل بن جعفر وقالوا أن جعفر نصب ابنه اسماعيل للأمامة بعده ، فلما مات اسماعيل فى حياه أبيه علمنا أنه انما نصب اسماعيل للدلالة على أمامة ابنه محمد بن اسماعيل (٢) .

ومعنى هذا أن الاسماعيلية تعد فرقة غالية من فرق الشيعة التى تعتد بالأمامة وتعتبرها أصلا المذهب تفترق به عن غيرها من الفرق والمذاهب يقول سماحة الامام محمد الحسين ال كاشف الغطاء فى بيان أهمية الأمامة عند الشيعة:

قد أنبأناك أن هذا هو الأصل الذى امتازت به الأمامية وافترقت عن سائر فرق المسلمين ، وهو فرق جوهرى أصلى وما عداه من الفروق عرضية»(٣)ويسبغ الشيعة على الامام صفات السمو والامتياز والعصمة ، فهو إنسان مختـار من بين البشر يحرس الشريعة ويهدى الأمة إلى (الأمر بالمعروف والنهى عن المنكـر) الذى هو من أهم الواجبات شرعا وعقلا وهو أساس من أسس دين الاسلام وهو من أفضل العبارات وأنبل الطاعات (٤).

---

(١) ادم متز : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ج ٢ ص ٥٠ .

(٢) البغدادى : الفرق ص ٥٨ ، ٥٩

(٣) الامام محمد الحسين ال كاشف الغطاء : أصل الشيعة وأصولها ص ٧٨

(٤) المرجع السابق ص ٧٨

ولذلك فان الامام معصوم عند الشيعة لأنه هو الأمين على الشريعة والقائم لها ، والصادق فى تفسيرها :

« وفى رأى الشيعة أن الامام أسمى رجل من بين البشر إذ أن الله اختاره ليكون حارسا على هذه الوديعة المقدسة التى أودعهـا إياه . لذلك كان الامام معصوما لأنه المحافظ على الشريعة »[1].

وكان الاسماعيلية فى بداية الأمر لايختلفون مع الشيعة إلا فى شخص الامام، وكان الشيعة بدورهم لايختلفون مع عامة المسلمين فى الأصول الدينية المقررة ، بل أثاروا نقطة فرعية حول الأمامه بعد الرسول ﷺ:

« طائفة الاسماعيلية فرقة من فرق الشيعة أخذت أصولها المذهبية عن الأصول الشيعيـة التى وجدت قبل ظهور الاسماعيلية . تلك الأصول التى لم تـكن فى أول أمرها تختلف عما ذهب اليه غيرهم من المسلمين فى شىء ، وكان الخلاف ينحصر فى نقطة واحدة ليست من صميم الدين فى شىء ، إنما كان الاختلاف حول الأمامه بعد الرسول صلى الله عليه وسلم[2] .

ولكن الاسماعيلية بعدت عن الأصول الشيعيه الأولى وكثرت فرقها الغاليه وآراؤها الغريبه .

ويعدد البغدادى[3] الكثير من فرقهم كالاوسويه ، والمباركية ، والقطعية ، والشامية التى كانت مغرقة فى الضلالة وأجازت على الأنبياء العصيان فى حين أسبغت العصمة على الأئمه وزعمت أن الرسول عليه الصلاة والسلام قد عصى ربه بأخذه الفدية من أسارى بدر غير أن الله عفا عنه ، ومنهم أيضا الزراريه التى

---

(١) د . البير نصرى نادر : أهم الفرق الاسلامية السياسية والكلامية ص ١٩ .

(٢) د . محمد كامل حسين : طائفة الاسماعيلية ص ٣ .

(٣) نفس المصدر صفحة ٥٩ وما بعدها .

تنسب إلى زعيمها زرارة وبدعته المنسوبة اليه أن الله لم يكن حيا ولاقادرا ولا سميعا ولا بصيرا ولا عالما ولا مريدا حتى خلق لنفسه هذه الصفات ، ومنهم أيضا اليونسية ، والشيطانية أتباع محمد بن النعمان الرافضى الملقب بشيطان الطاق وهى كلها فرق ذات أفكار غريبة وخطيرة على الاسلام ، لذلك ينبه « متز » إلى تطور هذه العقائد فى القرن الخامس عما كانت عليه فى القرن الرابع الهجرى ، وذهابها الى الافراط والغلو الذى يطيح بجوهر العقيدة وقد تنبه الشهرستانى كذلك الى هذا الفرق بين عقائد الاسماعيلية الذين قالوا « أن الامام بعد جعفر، اسماعيل نصا عليه باتفاق من أولاده ، الا أنهم اختلفوا فى موته فى حياة أبيه ... » [1] وبين الغالية « الذين غلوا فى حق أئمتهم ، حتى أخرجوهم من حدود الخلافة ، وحكموا فيهم بأحكام الألهية ، فربما شبهوا واحدا من الأئمة بالاله ، وربما شبهوا الاله بالخلق ، وهم على طرفى الغلو والتقصير [2] .

وأدرك «متز» هذا الفرق عند الشهرستانى ، كما حرص على التنبيه عليه فقال :

« على أن المهم هو مانجده عند الشهرستانى من أن بين الاسماعيلية فى القرن الرابع الهجرى وبين متأخريهم فى القرن الخامس الهجرى بونا بعيدا ، وأننا يجب أن نفرق بين إعتقاد الخليفة المعز وبين إعتقاد شيخ الجبل تفرقة تامة» [3]

إذ أن الدعوة الاسماعيلية قد أذاعت بين العامة بعض الغازها ومعمياتها حتى تستطيع السيطرة على عقولهم ، فكان دعاتها يبثون بين الناس أن أئمتهم يعرفون الغيب ويكشفون أسرار المستقبل القريب والبعيد إلى الحد الذى أشاع سخرية الناس بهم،وبدأت الدعوة تفقد رونقها وقوتهافىعهد المعز لدين الله (٣٤١-٣٦٥ هـ) وعهد العزيز بن المعز (٣٦٥-٣٨٦ هـ) .

---

(١) الشهرستانى « الملل والنحل ص ٢٧٨ .
(٢) نفس المصدر السابق ص ٢٨٨ .
(٣) ادم متز : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ج ٢ ص ٥١ .

« ذلك أن الدعاء فى مصر فى عهد المعز لدين الله وعهد العزيز بن المعز أذاعوا أن الائمة يعرفون الغيب ، وأنهم يعرفون حركات النجوم ، والكواكب ومنها يستطيعون معرفة مايريد معرفته ، ثم أن عندهم كتابا يسمى « الجفر » ورثوه عن الأمام جعفر الصادق يستطيعون به معرفة هذه الغيبات، حتى أن أحد علمائهم وهو جعفر بن منصور اليمن وضع لهم كتاب « الفترات والقرانات » فيه مايعلمون به الغيب ، أذاع الدعاة ذلك كله فانقسم الناس فى مصر بين مصدق ومكذب،ومنهم من سخر من معرفتهم الغيب هذه حتى أن العزيز بالله صعد المنبر يوم جمعة ليخطب الناس على عادة الأئمة الفاطميين فوجد على المنبر رقعة كتب فيها(١)

بالظلم والجور قد رضينا وليس بالكفر والحماقة
أن كنت أعطيت علم غيب فقل لنا كاتب البطاقة

وقد صور أبو العلاء أولئك الدعاة الذين أصبح همهم التكسب ببث الدعوة فى نفوس الناس بأن الأمام يعرف حقيقة نواياهم ، وهذالون من نقده الذى يؤثر فيه السلامة وعدم أغضاب أئمة الاسماعيلية :(٢)

علم الأمام - ولا أقول بظنه أن الدعاة بسعيها تتكسب

وفخر الدين الرازى أجرأ القدماء الذين تحدثوا عن العقائد الباطنية عامة والاسماعيلية بصفة خاصة ، فهاجمها هجوما قاسيا ، وبين خطورتها على الدين وقال عنهم أنهم من الذين يتظاهرون بالأسلام وإن لم يكونوا مسلمين ، فقال عندذكر الباطنية « أعلم أن الفساد اللازم من هؤلاء على الدين الحنيفى أكثر من الفساد اللازم عليه من جميع الكفار ، وهم عدة فرق . ومقصودهم على الاطلاق أبطال الشريعة بأسرها ونفى الصانع . ولا يؤمنون بشىء من الملل ولا يعترفون بالقيمة إلا أنهم لا يتظاهرون بهذه الأشياء إلا بالأخر »(٣)

(١) نفس المصدر السابق ص ١٥١ .
(٢) اللزوميات جـ ١ ٢٥٤ .
(٣) فخر الدين الرازى : اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص ٧٦ .

ثم يفصل بعد ذلك بدء الدعوة الإسلامية، ويتحدث عن عبد الله بن ميمون القداح وسير الدعوة بعده إلى أن يصل إلى الحسن بن الصبــاح الذى سار إلى المستنصر وأخذ منه أجازة الدعوة ورجع إلى بلاد العجم ليضل الناس . ويبدو أن دعوة الحسن بن صباح كانت قويه فى زمن الرازى وأن تلاميذه كانوا منبثين فى أرجاء بلاد العجم أيضا يقيمون الفتنة ويشعلون الأحقاد .

ويتهكم الرازى على أئمة تلك الدعوة لأنهم جهلا. ويرى، أمراء مصر بهـذه الصفة ، فأين ذلك الامام . ومن هو . لأن الذى ينصـون عليه بالامامة فى غاية الجهل لأن أمراء مصر الذين كانت دعـــوة الباطنية كان أكثرهم جهلا فساقا ».(١)

وإستطاع الاسماعيلية نشر موجة الذعر والخوف بين الناس ، بواسطة دعاتهم الذين كانوا يتقنون السحر والشعوذة ، ويستطيعون بواسطته أن يبهروا عقـول العامة وأن يسيطروا عليهم ، « وكان السحر والشعوذة والنيرنجـات منتشرة فى أوساط الغلاة فكان على الدعاة أيضا إتقانها وإستخـدامها حتى يموهوا على عوام الناس كما إستخدموا أيضا الحيل الهندسية وما لا يسبر غوره الجماهير الغافلة».(٢) ولذلك خشى بطشهم الكثيرون من المفكرين والشعراء فابن حزم يجتزىء فى ذكرهم، وأبو العلاء يسكت عنهم لقربه من طائلة يدهم أما ابن النديم فيفصل فى بيـــان مذهبهم « ومما يؤسف له ان ابن حزم يكاد يسكت عن الاسماعيلية سكوتا تاما يدعو إلى الأستغراب وهو يكتفى بأن يقول أنهم والقرامطة طائفتان خارجتان عن الأسلام جملة وقائلتان بالمجوسية المحضة . وكذلك سكت عنهم أبو العلاء فى رسالة الغفران فلم يقل إلا قليلا جداً . ولعل وجوده على مقربة من سلطانهم هو الذى أمسك لسانه عنهم . فليس عندنا معلومات تثق بصحتها فيما يتعلق بهم إلا عنـــد

---

(١) نفس المصدر السابق ص ٧٧ ، ٧٨ (هكذا فى الاصل) .

(٢) د . على سامي النشار : نشأة الفكر الفلسفى فى الاسلام جـ ٢ ص ٤٠٠ .

صاحب الفهرست . وهو يذكر أنه كان عندهم سبع درجات من الأتباع خلافاً لما ذكره أخو محسن من درجات تسع ، ولكل طبقة كتاب يتضمن ما تعرفه وبسمى بالبلاغ ، والبلاغ الأول للعامة ، والثانى لمن فوقهم قليلا ، أما الثالث فهو لمن دخل فى المذهب سنة ثم يعطى بعد ذلك بلاغا كلما طال بقاؤه سنة اخرى. ولكن ابن النديم لم يحدد متى يبلغ الأنسان الدرجة السابعة ، ومتى يعطى البلاغ السابع ، وإكتفى بقوله عن هذا البلاغ أنه هو الذى فيه نتيجة المذهب والكشف الأكبر وهو يقول انه قرأه. فوجد فيه امراً عظيما من إباحة المحظورات والوضع من الشرائع واصحابها ». [1]

وتعتبر الدرزية نتاجا للمذهب الأسماعيلى إذ أنشأها محمد بن اسماعيل الدرزى المعروف بأنوشتكين النجارى فى القاهرة وكان يدعو إلى التناسخ والحلول، ويزعم أن روح آدم قد إنتقلت إلى على بن أبى طالب ثم إنتقلت روح على إلى الحاكم بأمر الله صفوة سلالته [2]. وقد أعجب الحاكم بالدرزى وتبنى رسالته التى كتبها فى شرح مذهبه وقد إنتشرت هذه الدعوة فى الشام وأصبح لها دعاتها وفدائيوها أيضا .

والخلاصة أن هذه الدعوات — وغيرها كثير — كانت أمراضا إجتماعية خطيرة زعزعت عقائد الناس الراسخة ، وإستهوت طلاب الرزق الرخيص ، ولعبت بعقول العامة ، والزمت العقلاء الصمت والسكوت خشية البطش، وإتخذها الحكام أداة سرية يفرضون بها سلطانهم ، ويرهبون بها رعيتهم ، إلا أن الدين الأسلامى ظل قويا فى النفوس ، وكانت جذوره الممتدة تقاوم عواصف الملحدة والعاملين على هدم العقيدة .

---

(١) ادم متز : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ج ١ ص ٥١ .

(٢) محمد عبد الله عنان : الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية ص١١٥، ١١٦ .

ثالثا ـ المتصوفة :

يمثل المتصوفة طائفة هامة فى مجال بحثنا نظراً للموقف المعادى الذى وقفه أبو العلاء منهم نظراً لتكلفهم الزهد والورع وهم بعيدون عنه ، ولحركاتهم الغريبة من رقص وإنشاء ومجون وتحليل محرمات ، فيقول عنهم مرة(١):

صوفية شهدت للعقـــل نسبتهم   بأنهم ضأن صوف نطحها يقص
لاترقصن مهيرات مـــــكرمة   فللمهارى قديما يعرف الرقص
تواجد القوم من نسك بزعمهم   والله يشهد مازادوا كما نقصوا
لانال خيراً فتى أمست أنامله   مدارى السرح موصولا بها المقص

فهو يعظم الزهاد والمتنسكين، ولكنه يهاجم اولئك الذين يطلقون شعورهم كالنساء ويضفرونها ويقصونها مثلهن، ثم ينصرفون عن العبادة إلى الرقص بحجة الوجد وسقوط التكاليف عنهم .

ويكرر هجومه على المتصوفة مرة ثانية لأنهم يعمدون إلى الكذب والخداع ولم يرضوا بنسبتهم إلى الصوف(٢)

صوفية مارضوا الصوف نسبتهم   حتى أدعوا أنهم من طاعة صوفوا
تبارك الله دهر حشوه كذب   فالمرء منا بغير الحق موصوف

ولذلك فان البحث فى هذه الطائفة يلقى الضوء على عصر ابى العلاء وأدبه . وأول المباحث فى هذا الموضوع تتناول نشأة هذه الطائفة التى يعتقد أنها إنحدرت من نمو وزيادة نزعة الزهد الأسلامى التى نشأت باتباع تعاليم القرآن الكريم الذى دعا المسلمين إلى الورع والتقوى ، وزهد فى شأن هذه الحياة الدنيا ووعد المتقين بجنات ونعيم ، . فالقرآن إذن قد أعطى الناحيتين حقهما : ناحية الترهيب وناحية

---

(١) اللزوميات : جـ ٢ ص ٨٢

(٢) اللزوميات ، جـ ٢ ص ١٠٥ .

الترغيب وحرك فى قلوب المؤمنين مشاعر الخوف والرجاء. ووصف الله نفسه بأنه جبار منتقم معذب كما وصف نفسه بأنه غفور رحيم ودود ، فكان لكل هذا أثره فى دفع أتقياء المسلمين الى التقرب من الله بالعبادة والمجاهدة والزهد فى الدنيا طمعا فى الثواب وفراراً من العقاب »[1]

كما كان أقبال المسلمين على الدنيا بعد الفتوح الاسلامية نظراً لكثرة الخيرات ووفرتها أثره فى إزدياد نزعة الزهد ، وتجلت هذه النزعة فى صورة معارضة قوية لتيار الفناء فى اللذات والشهوات ، وتظهر آثار هذه الثورة ضد مطامع النفس من جهة ومغريات الحياة من جهة أخرى . من بين ثنايا اقوال الصوفية فى كل العصور ، ولكنها اظهر ماتكون فى مواعظ الحسن البصرى ووصايا المحاسبى « ويرجع بعض الباحثين[2] بنزعة الزهد الاسلامى إلى اصول جاهلية متمثلة فى الحنيفية قبـــل الاسلام . ولا شك ان هذه النزعة كانت ايضا مقابلة لنزعة المغالاة فى الفحش او الاستهتار بالعقائد الروحية والمقاييس العقلية التى تدعو إلى وجـــود الله الواحد الأحد .

وينتمى الصوفية إلى هذه النزعة الزاهدة ولذلك فانهم يعتبرون الحسن البصرى مؤسس طريقتهم على رأى نيكلسون :

« وسرعان ماتحول الزهد إلى التصوف فان الحسن البصرى . وهو اشهـــر ممثلى حركة الزهد يعد فى نظر الصوفية وأحداً منهم ، وهم محقون فى ذلك لأن الحسن البصرى كان ينزع إلى حياة روحية خالصة فى عبادته ، غير قانع بمجرد الصور الشكلية فى ادائها . ويروى القشيرى عنه أنه قال «مثقـال ذرة من الورع السالم خير من الف مثقال من الصوم والصلاة » ويروى صاحب الكامل له قوله:

---

(١) د . أبو العلا عفيفى : التصوف ٦٢ ، ٦٨

(٢) د . شوقى رياض « رسالة دكتوراة عن شعر الزهد فى العصر العباسى الاول — مخطوطة باداب القاهرة اشراف د . شوقى ضيف .

« حادثوا هذه القلوب فانها سريعة الدثور ، وأقدعوا هذه الأنفس فانها طلعة ، وإنكم الا تقدعوها تنزع بكم إلى شر غاية ، ومع هذا كله فان هؤلاء الزهاد لم يكونوا إلا رواداً فى الطريق الصوفى»(١)

وقد كثر الجدل حول اشتقاق كلمة «الصوفى» التى عرفت بها هذه الطائفة :

«فجمهور الصوفية يذهبون بأنه مشتق من «الصفاء» ، وأن الصوفى هو احد خاصة أهل الله الذين طهر الله قلوبهم من كدورات هذه الدنيا . ويذهب بعضهم إلى أشتقاقها من «الصف» واحد الصفوف ، بمعنى أن الصوفى — من حيث حياته الروحية ـ فى الصف الأول لإتصاله بالله : أو من الصفة أشارة إلى أهل التصوف متصل بأهل «الصفة» وهم إسم أطلق على بعض فقراء المسلمين فى صدر الأسلام ، كانوا ممن لا بيوت لهم فكانوا يأوون صفة بناها الرسول خارج المسجد بالمدينة . ولكن هذه الإشتقاقات لا يجيزها فى اللغة العربية قياس كما يقول القشيرى وغيره. وهنالك إشتقاق واحد لا يخالف القياس ، وهو نسبة الصوفى إلى الصوف .وبه قال أبو نصر السراج مؤلف أقدم كتاب عربى معروف فى التصوف لأن الصوف كان لباس الأغنياء ورمزالأولياء والخاصة كما يظهر من اخبار الصوفية وآثارهم.

ولكن جوزيف فون هامر عارض فى قبول هذا الرأى وذكر فى كتابه تاريخ البلاغة عند الفرس أن الصوفية ينسبون إلى الهنود القدماء المعروفين باسم الحكماء العراة (Gymnosophists) (٢) وأن الكلمتين العربيتين « صوفى » وصافى مشتقان من نفس الأصل الذى اشتق منه الكلمتان اليونانيتان (سوفوس » و (سافيس)(٣)

---

(١) نيكلسون (ترجمة أبو العلا عفيفى) ; فى التصوف الاسلامي وتاريخه ص ٣ .

(٢) وهو اسم : اطلقه اليونان على بعض الهنود الذين كانوا يهيمون على وجوههم عراة أو لا يضعون قليلا من الثياب ويقضون أوقاتهم فى التأمل والتفكير فى الله . ومعنى الكلمة الحرفية الحكماء العراة (أبو العلا عفيفى) .

(٣) نيكلسون (ترجمة د. أبو العلا عفيفى) « فى التصوف الاسلامي وتاريخه ص٦٦ .

وقد أخذ التصوف فى النمو والازدهار فى القرنين الثالث والرابع الهجريين فقد أخذ المتصوفة فى تنظيم أنفسهم فى طرق وطوائف تخضع لنظم خاصة ، وتقاليد مرعية :

« ذلك أن الصوفية أخذوا منذ النصف الثانى للقرن الثالث الهجرى ينظمون أنفسهم طوائف وطرقا يخضعون فيها لنظم خاصة بكل طريقة ، وكان قوام هذه الطرق طائفة من المريدين يلتفون حول شيخ مرشد يسلكهم ويبصرهم على الوجه الذى يحقق لهم كمال العلم وكمال العمل : فكان من هذه الطرق : السقطية نسبة إلى السرى السقطى ، والطيفورية نسبة إلى أبى يزيد طيفور البسطامى ، والجنيدية نسبة إلى أبى الحسين النورى ، والملامتية أو القصارية نسبة إلى حمدون القصار [١] .

وكانت هذه الطرق تفرض نظاما قاسيا من الزهد على أعضائها ، يلخصه نيكلسون [٢] كالآتى :

« أما نظام الزهد الذى تفرضه كل طريقة على أصحابها فمختلف باختلاف الطرق ، إذ لكل طريقة قواعدها الخاصة بها ، ولكنها جميعا متفقه فى النقط الآتية :

(١) الاحتفال بدخول المريد فى الطريق بطقوس دقيقة مرسومة. وقد يتطلب بعض الطرق من المريد قبل الدخول فى الطريق أن يمضى وقتا طويلا شاقا فى الاستعداد للدخول .

(٢) التزيى بزى خاص .

(٣) اجتياز المريد مرحلة شاقة فى الخلوة والصلاة والصوم وغير ذلك من الرياضات .

(١) د . محمد مصطفى حلمى : الحياة الروحية فى الاسلام ص ١٠٨ .

(٢) نيكلسون (ترجمة د . أبو العلا عفيفى) فى التصوف الأسلامي وتاريخه ص٦٥ .

(٤) الاكثار من الذكر مع الاستعانة بالموسيقى والحركات البدنية المختلفة التى تساعد على الوجد والجذب .

(٥) الاعتقاد فى القوى الروحية الخارقة للعادة التى يمنحها الله المريدين وأصحاب الوجد وهى القوى التى تمكنهم من أكل جمرات النار والتأثير على الثعابين والاخبار بالمغيبات .

(٦) احترام المرشد أو شيخ الطريق إلى درجة تقرب من التقديس .

ويبدو ان الصوفية بالغوا فى إدعاء الخوارق والمعجزات ، وتنكبوا طريق الزهد الصحيح فى القرنين الرابع والخامس الهجريين إلى الحد الذى دعا «القشيرى» (٣٧٦ — ٤٦٥ هـ) إلى وضع رسالته عن التصوف بعد ما رأى من تنكب رفاقه للطريق الصحيح فقال فى مقدمة رسالته (١) :

« أندرست الطريقة بالحقيقة ، ومضى الشيوخ الذين كان بهم الإهتداء وقل الشباب الذين كان لهم بسيرتهم وسنتهم اقتداء ، وزال الورع وطوى بساطه ، وأشتد الطمع وقوى رباطه ، وارتحلت عن القلوب حرمة الشريعة فعدوا قلة المبالاه بالدين أوثق ذريعة ، ورفضوا التمييز بين الحلال والحرام ، ودانوا بترك الاحترام وطرق الاحتشام ، واستخفوا بأداء العبادات ، واستهانوا بالصوم والصلاة ، وركضوا فى ميدان الغفلات ، وركنوا إلى أتباع الشهوات وقلة المبالاة بتعاطى المحظورات ، والإرتفاق بما يأخذونه من السوقة والنسوان وأصحاب السلطان ، ثم لم يرضوا بما تعاطوه من سوء هذه الأفعال حتى أشاروا إلى أعلى الحقائق والأحوال ، وأدعوا أنهم تحرروا عن رق الأغلال وتحققوا بحقائق الوصال ، وأنهم قائمون بالحق ، تجرى عليهم أحكامه ، وهم محو . وليس لله عليهم فيما يؤثرونه عبث ولا لوم وأنهم كوشفوا بأسرار الأحدية ، واختطفوا عنهم بالكلية وزالت عنهم أحكام البشرية .

---

(١) أبو القاسم القشيرى ، الرسالة القشيرية ط ثانيه ص ٢ ، ٣ .

فالقشيرى يرسم صورة لأحوال المتصوفة حينئذ وقد أستهانوا بالأحكام والشرائع، وانطلقوا يدعون بأنهم فوق مستوى البشر، ولذلك يحق لهم مالا يحق لعامة البشر.

وأول مانلاحظه على صوفية ذلك العصر وقد لاحظه أبو العلاء أيضا — استملاحهم للغناء والرقص والأنشاء، وكان غرامهم بالرقص والأنشاء يذهب إلى حد الأفراط الذى أنتقده الكثيرون من المتصوفة أمثال أبو الحسن الخرقانى (المتوفى سنة ٤٢٥ هـ) الذى يرى أن التصوف ليس مظهرا خارجيا بل هو حقيقة باطنية وهى الفناء فى الله « ليس الصوفى بمرقعته وسجاداته ولا برسومه وعاداته، بل الصوفى من لا وجود له »[١]

غير أن الصوفية إهتموا بمظاهر العبادة وزادوا عليها عنايتهم الشديدة بالغناء والرقص إلى الحد الذى إعتبروه متعة الدنيا والآخرة معا :

« وسرعان ما إخترع خيال أهل التصوف أن فى الجنة كراسى يجلس عليها الصوفية وهى تميل بهم وتدور فتكفيهم مئونة الرقص، وذلك كما قالوا بأن يبعث الله لأهل الجنة معانق من الحور العين، وتنصب لأهلها المراتب والمساند، ثم تغنى الحور العين بأصوات لم يسمع أحسن منها، ويقول الله للحور العين : اسمعن عبادى الذين نزهوا أنفسهم عن مطربات الدنيـــا، وتلذذوا بسماع كلامى وأحاديث الرسول عليه السلام ! فيطرب القـوم ويهيمون ، فتقدم الملائكة لهم كراسى من ذهب، وتقول لهم لاتزعجوا أعضاءكم بالرقص ! فقد كفى ماتعبتم فى الدنيا بالصلاة والعبادة وأجلسوا على تلك الكراسى، وهى تميل بكم وتدور ؟ فيغيبون عن وجودهم من الطرب[٢]

---

(١) د . أبو العلا عفيفى « التصوف ص ٥٤ .

(٢) آدم متز ترجمة أبو ريده : الحضارة الأســلامية فى القرن الرابع الهجرى جـ ٢ ص ٢٠ .

وكان الصوفى يمثل صورة الرجل الفقير العاطل الطفيلى الذى يعتمد فى غذائه وكسائه على إحسان الناس وعطفهم عليه، وكانوا يعتبرون «الكدية» فضلا من أفضال التصوف لأنها تكفيهم مئونة الكفاح الشاق من أجل لقمة العيش « ولم يكن ثم ما يوجب على الصوفية أن يلتزموا الكدية ولكن الخوارزمى يقول : أن الفقير خفيف الظهر من كل حق ، منفك الرقبة من كل رق لا يلزمه أداء الزكاة، ولا تتوجه اليه غوائل النائبات ، ولا يستبطئه أخوانه ، ولا تطمع فيه جيرانه ، ولا تنتظر فى الفطر صدقته ، ولا فى العيد أضحيته ، فانما هو مسجد يحمل اليه ولا يحمل عليه ، وعلوى يؤخذ بيديه ولا يؤخذ من يديه ، فهو أما غانم أو سالم « وكذلك سمى الصوفية فقراء »[١].

وكان بعض سادة الصوفية يعيبون على رفاق الطريق هذه العادة الذميمة ، وهى الإقبال على طعام المضيف لهم بشكل مقزز ، حتى عرف عن الصوفية هذا الشره الغريب فى الولائم ، وكان أغنياؤهم يعملون على اطعامهم فى بيوتهم قبل أن يذهبوا بهم الى الدعوات والولائم خشية انتقاد الجمهور لهم فى طريقة أكلهم .

« وكان الشيخ أبو عبد الله احمد بن عطا الروذبارى المتوفى بصور سنة ٣٦٩هـ وشيخ الشام فى وقته ، سيدا غنيا عالى الهمة رفيع النفس ، فكان اذا دعا أصحابه معه الى دعوة فى دور السوقة ، ومن ليس من أهل التصوف ، لايخبر الفقراء بذلك ، وكان يطعمهم شيئا فإذا فرغوا أخبرهم ومضى بهم ، فكانوا قد أكلوا قبل ذهابهم بقليل فلا يمكنهم أن يمدوا أيديهم الى الدعوة الا بالتمزز ، وانما كان يفعل ذلك لئلا تسوء ظنون الناس بهذه الطائفة فيأثموا بسببهم »[٢]

وغرق الصوفية فى بعض الضلالات مثل زعمهم بأن الشرائع قد سقطت عنهم

---

(١) نفس المصدر السابق ص ٢٠ .

(٢) ادم متز (ترجمة د . أبو ريدة) الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى جـ ٢ ص ٢١ .

لأن الحقيقة كشفت لهم ، وهذا زعم باطل انتقده الكثيرون من أئمة الصوفية الصادقين فى عقيدتهم الصوفية ، الذين يخشون الله ، وحذروا أتباعهم من الإنقياد وراء هذا الزعم الباطل :

« على أنه قد ظهرت عند الصوفية نزعة قديمة الى عدم المبالاة بكل ما فى هذه الدنيا ، حتى بالشريعة ، فيحكى ابن حزم « أن الصوفية من يقول من عرف الله سقطت عنه الشرائع ، وزاد بعضهم : واتصل بالله تعالى وأبلغنا أن بنيسابور اليوم فى عصرنا هذا رجلا يكنى أبا سعيد أبا الخير من الصوفية مرة يلبس الصوف ومرة يلبس الحرير المحرم على الرجال ومرة يصلى فى اليوم ألف ركعة ، ومرة لا يصلى فريضة ولا نافلة وهذا كفر محض ونعوذ بالله من الضلال » (١)

ويحتج الحجويرى على دعوى الصوفية بسقوط الشريعة اذا كشفت الحقيقة فيقول عنها « انها » مقالة الزنادقة من القرامطة والشيعة ومن وسوسوا اليهم من الاتباع » (٢) .

وقد أدى بهم هذا الاستخفاف بالشريعة الى بعض العـــادات التى لا تليق بالزهاد من المتصوفه مثل صحبة الأحداث ومعاشرة الغلمان الى الدرجة التى أثارت عليهم المخلصين من الصوفية الذين استهجنوا هذه المغـــاة فى صحبه الأحداث .

« ويروى عن الواسطى المتوفى بعد عام ٣٣٠ هـ — ٩٣٢ م أنه قال : إذا أراد الله هوان عبد ألقاه الى هؤلاء الأنتان والجيف ، يريد به صحبة الأحدأث ويعترف الجحويرى أيضا فى القرن الخامس الهجرى أنه قد بلغ من جهال الصوفية أنهم قد جعلوا صحبة الاحداث بما فيها من مفاسد قاعدة فى مذهبهم وأن العامة أخذوا عليهم ذلك وأنكروه » (٣)

---

(١) نفس المصدر السابق ص ٢٢ .

(٢) نفس المصدر ص ٢٣ .

(٣) نفس المصدر ص ٢١ — ٢٢ .

مما يؤكد أن أخلاق الصوفية قد بعدت عن العهد الأول لمشايخهم بعدا كبيرا حتى انتقدهم العامة والخاصة ، واضطر رؤساؤهم الى تأليف الكتب ليعرضوا عليهم سيرا من سير الصوفية الاوائل الذين أحسنوا المسيرة وكانوا مثالا طيبا من الحرص على الشريعة والأصول والقواعد الإجتماعية » .

وكتب عبد الكريم بن هوازن القشيرى رسالته المشهورة إلى جماعة الصوفية ببلدان الاسلام وذلك أنه لما رأى انقراض أكثر شيوخ الصوفية المحققين ، وفساد حال الكثير من الباقين ألف رسالته وذكر فيها سيرا من سير شيوخ هذه الطريقة فى آدابهم وأخلاقهم ومعاملاتهم وعقائدهم لتكون قوة للصوفية وعونا على صلاح أمرهم » (١) .

وكان الصوفية يحضون الناس على عدم الزواج رغم أن قدماء الصوفية كانوا متزوجين فالجنيد كانت له جارة تسمى زيتونه ، وقد خدمت هذه الجارية أيضا شيخين من شيوخ المتصوفة غيره ، وكان الشبلى متزوجا ، وكان أبو الحسين احمد بن أبى الحوارى (المتوفى سنة ٢٣٠ هـ) المسمى بريحانة الشام كان متزوجا من أربع نساء وكان له تسعة أبناء (٢) ، ولكن الصوفية فى القرون التالية أخذوا يستحسنون التجرد أو عدم الزواج ، وهى نزعة غير اسلامية على الاطلاق وتجر على دعاتها الكثير من الشكوك ان لم يكونوا من الزهاد الحقيقيين الذين انصرفوا كل الإنصراف الى العبادة مثل أبى العلاء المعرى ، ولابد ان يكون هذا الرأى قد غلب على الصوفية فى القرن الرابع الهجرى حتى يقول الهجويرى فى القرن الخامس:

وقد أجمع شيوخ هذه الطريقة على أن أحسن الصوفية وأفضلهم المجردون فان قلوبهم خالية من الآفات ، وطباعهم معرضة عن المعاصى والشهوات بالجملة فان

---

(١) ادم متز : (ترجمة د أبو ريدة) : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ج ٢ ص ٢٠ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٢

أساس هذه الطريقة هو التجريد وأن الزواج لغيرهم .[١]

وقد أدت هذه الرخص التى اجازها المتصوفة لانفسهم إلى مزيد من الفسوق فى صفوفهم « والغالب انها رخص لا نظير لها ولا حد وتنتهى بمجذوبى العصر الحديث الذين يتفاوتون فى الفسق والتجرد من التبعات» .[٢]

واعتقد الصوفية اعتقادا كبيرا بكرامات أوليائهم ، وبالغوا فى هذه الكرامات كثيرا حتى يضيفوا إلى رصيدهم المعنوى لدى العامة ما يعينهم على إحكام سطوتهم الدنيوية وكرامات الأولياء كثيرة ومتنوعه، وقد تكون اجابة دعوة ، وقد تكون اظهار طعام فى أوان فاته من غير سبب ظاهر ، أو حصول ماء فى زمن عطش . أو تسهيل قطع مسافة فى مدة قريبة ، أو تخليصا من عدو ، أو سماع خطاب من هاتف أو غير ذلك من فنون الأفعال الناقصة للمادة ومنها ايضا الأعاجيب التى تظهر عند موتهم ». [٣]

وترتبط كرامات الصوفية بعقيدتهم المطلقه فى الجبر والتوكل على الله دون ان يسندوا هذا التواكل بالعمل ، فكان الجبر عندهم مساعدا لهم على التكاسل بينما الجبر عند بقية الفلاسفة والمسلمين لا يمنع من العمل ولا يمنع من الجهاد .

« ومعظم كرامات الصوفية انما هى جزاء وتحقيق لهذه الثقة التى بفضلها تبقى خزائن الله مفتوحة للمتوكلين . وكان التوكل اكبر عقيدة للصوفية فى القرن الرابع الهجرى . وكان مذهبهم يقوم على اربعة اصول ، فكان فيه بعد التوكل الصبر والرضا والرجاء . وقد أثر الصوفية تأثيرا قويا فى الإسلام من طريق قولهم بالتوكل حتى طبعوه بطابعهم وهو مايسمى بالإستسلام أو الجبر الإسلامى.
(Muhammedanischer Faralisums)

---

(١) المصدر السابق ص ٢٤

(٢) ما سينيون : دائرة المعارف الاسلامية جـ ٥ ص ٢٧٣

(٣) ادم متز (ترجمة د . أبو ريدة) : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع جـ ٢ ص ٣٢ .

ولم يكن للقول بالجبر عند المتكلمين ولاعند المنجمين من الأثر فى الإسلام ما كان لتوكل الصوفية ، وما ذلك إلا لأن الصوفية كانوا يطبقون قاعدة التوكل جادين كل الجد فى شئون الحية اليومية(١).

ويبدو أن قاعدة التواكل الذى يحتقر العمل هذه كانت ذات أثر بالغ فى تفكير الصوفية ، وجعلت الكثيرين من المسلمين ذوى النزعة العقلية كالمعتزلة يقفون منهم موقف المعارضة . حتى أن الحكام أنفسهم وقفوا موقف المعارضة والحـــذر من الصوفية ذلك لأن نزوعهم إلى العزلة للعبادة وقراءة القرآن والأوراد الصوفية يشبه أن يكون ثورة سلبية ضد نظم الحكم الفاسدة ، والواقع أن منشأ النزوع إلى التصوف هو ثورة الضمير على ما يصيب الناس من مظالم لا تقتصر على ما يصدر عن الآخرين وإنما تنصب أولا وقبل كل شىء على ظلم الإنسان نفسه .. (٢)

وينبغى الاشادة ببعض رجال الصوفية المخلصين انصافا لهم ، اذ شهد القرن الرابع والخامس الهجريين رجالا من أمثال أبى العلاء المعرى وهو من العباد الزهاد الذين جاهدوا أنفسهم وقمعوها ، واكتفوا بأن يكونوا عابدين لله خاشعين لا يبتغون شيئا فوق العبودية له متبعين سنن الرعيل الأول من المسلمين ، وكان من العادات المحبوبة كثيرا عند كبار المتعبدين فى ذلك العصر أن الواحد منهـــم لا يخرج الا يوم الجمعة للصلاة (٣) .

وكان ابن البغدادى العابد الزاهد (٤٠٤ هـ) يخرج إلى الناس ، وقد انشقت رأسه أو انفتحت جبهته لأنه كان لا ينام إلا عن غلبة وكان لا يخلو أن يكون بين يديه محبرة أو قدح أو شىء من الأشياء موضوع ، فاذا غلبه النوم سقط على ما يكون بين يديه ، فيؤثر فى جبهته أثرا ، وكان لا يدخل الحمام ، ولا يحلق رأسه ،

---

(١) ادم متز : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى جـ ٢ ص ٢٨

(٢) ماسينيون : مادة « تصوف » دائرة المعارف الاسلامية جـ ٢ ص ٢٦٨

(٣) ادم متز : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى جـ ٢ ص ٥٤

لكن يقص شعره إذا طال بالجلم . وكان يغسل ثيابه بالماء حسب من غير صابون، وكان يأكل خبز الشعير ، فقيـل له فى ذلك . فقـال : الشعير والحنطة عندى سواء » (١) .

وكان بعض أئمه الصوفية المخلصين يتشددون فى الصوم والصلاة والزهد كرد فعل لما ابتدعه بعض مدعى الصوفية من عادات أضرت بالطائفة وسمعتها .

« وفى هذا العصر المتأخر أثرت عن قدماء مشايخ الصوفيه حكايات تدل على الشدة والقسوة فى قمع شهوات النفس والتكفير عن ميولها ويشبه أن تكون هـذه الحكايات إنما اخترعت ونسبت لأصحابها دفعا لما شاع من ركوض بعض المتصوفة فى الشهوات وتعاطيهم المحظورات » (٢) .

وهناك كثير من الروايات عن أخذ الصوفية أنفسهم بالشدة فى مراعاة أحكام الطريق ، وتعذيبهم لنفوسهم وتدريبها على المشاق :

« ويحكى عن أبى محمد رويم بن أحمد البغدادى المتوفى عام ٣٠٣ هـ أنه اجتاز بغداد وقت الهاجرة ببعض السكك ، وهو عطشان ، فاستسقى من دار، ففتحت الصبية بابا ومعها كوز ماء ، فأخذ منها وشرب . فقالت الجارية : صوفى يشرب بالنهار ! ! فما أفطر بعد ذلك اليوم قط . ويروى عن « الجنيد » أن ورده كان فى كل يوم وليلة ثلثمائة وثلاثين ألف تسبيحة ، وأقام عشرين سنة لا يأكل إلا من الأسبوع إلى الأسبوع . على أنه يحكى خلافا لهذا أنه كان بدينا ولذلك كان يشك الناس فى زهده (٣) .

وكان بعض الزهاد يبالغون فى مراعاة أحكام الشريعة « فيحكى عن أبى محمد

---

(١) المصدر السابق ص ٥٥ ، ٥٦
(٢) ادم متز (ترجمة د . ابو ريدة) : الحضارة الاســلامية فى القرن الرابع
(٣) نفس المصدر . ص ٢٥ .

عبد الله بن يوسف الجوينى المتوفى عام ٤٢٧ هـ — ١٠٤٦ م - وهو والد إمام الحرمين أنه كان ورعا زاهد متحريا فى العبادات ، ومن ورعه أنه ما كان يستند فى داره المملوكة إلى الجدار المشترك بينه وبين جيرانه ، ولا يدق فيه وتدا ، وأنه كان يحتاط فى أداء الزكاة ، حتى كان يؤدى الزكاة فى سنة واحدة مرتين حذرا من نسيان النية أو من دفع الزكاة إلى غير المستحق .

ويحكى عن والد امام الحرمين الجوينى أنه كان حريصا على ألا يطعمه ما فيه شبهة وقد بكى مرة وأمه مشتغلة بطعام ، وكانت عندهم جارية مرضعة للجيران فأرضعته مصة أو مصتين فأنكر أبوه ذلك ، وقال هذه الجارية ليست لنا وليس لها أن تتصرف فى لبنها وأصحابها لم يأذنوا بذلك ،وقلب ابنه وقوعه حتى لم يدع فى باطنه شيئا إلا أخرجه (١)

والخلاصة أن التصوف فى القرنين الثالث والرابع الهجريين دخلت فيه عناصر غريبة من رقص وغناء ، ومعاشرة للأحداث ، وكـدية ، وتواكل قائم على الجبرية ، ودعوة إلى عدم الزواج ،ومعاشرة للنساء ،وإقبال على المفاسد والشهوات بحجة سقوط التكاليف والشرائع عن الواصلين ، وقد زاد هذا الأمر فى القرن الخامس الهجرى وقد أدى هذا إلى انتقاد عامة المسلمين لهم ، وتأليف الكتب التى ترسم لهم الطريق القويم مثل الرسالة القشيرية ورجوع الصلحاء منهم إلى الشريعة وتشددهم فى تطبيقها .

---

(١) متز (نفس المصدر) : ص ٥٦ .

الكتاب الثاني

نقد المجتمع فى شعر أبى العلاء ونثره

الفصل الأول : العوامل الذاتية

الفصل الثانى : النقد السياسى

الفصل الثالث : نقد عناصر المجتمع

الفصل الرابع : النقد الدينى

الفصل الأول

العوامل الذاتية — :

أ — كارثة العمى
ب — حساسيته المفرطه
جـ — رحلته البغداديه
د — عزلته الجسدية

تناولت فى الكتاب الأول حالة المجتمع الاسلامى فى عصر أبى العلاء ، وبينت ما حل به من فساد فى نواحيه الاقتصادية والسياسيه والاجتماعيه ، وكيف أصبحت الرقعة الاسلاميه من بغداد إلى مصر ميدانا للمجاعه والفقر والحروب والفتن حتى أن الأستار الكثيفة تسدل على مسرح الحوادث المؤسفة ولكن المؤرخين يتناولون تلك الحوادث التى يبلغ بعضها حد الخيال ، فنعجب كيف يمكن لانسان أن يعيش بنفس سويه وروح عاليه فى عصر مثل ذلك الذى صوره التاريخ لنا رقعة سوداء وارجوانيه وصفراء فى شتى حالاتها من الموت أو الحرب أو الجدب .

والانسان ابن المجتمع ، يرضع بلبانه ، ويتغذى بأفكاره ، ويشب على مثله وقيمه تهزه النكبات ، وتقض مضجعه الكوارث ، وتنال منه الحروب ، وتجوعه المجاعات ، ولذلك فإن أبا العلاء كان — من غير شك — متأثراً بمجرى الحوادث الاجتماعيه فى نقده للمجتمع غير أن هناك الأسباب الشخصيه التى تلعب دورها فى تكوين شخصية الإنسان ونظرته إلى الحياة والناس .

أ ـ كارثة العمى :

وقد قابل أبو العلاء الحياة بكارثة طبيعية أراد الله تعالى أن يمتحنه بها ، أو أراد أن يهبه بديلا عنها نفاذ بصيرة ورجاحة رأى ، فقد واجه الحياة طفلا

فى الرابعة من عمره لا يرى من مباهجها شيئا ، ولا يستطيع أن يميز من الألوان إلا لونا يذكرة حين كان محصبا وألبسوه ثوباً معصفراً. فأى كارثة إذن هذه التى أحاقت به منذ أن ولد بالمعرة عند مغيب الشمس يوم الجمعه لثلاث بقين من شهر ربيع الأول سنة ٦٢٣هـ كما إتفقت على ذلك المراجع [1] القديمه ، ولكنه ما أن رأى الحياة ثلاث أو أربع سنوات [2] حتى أصابه الجدرى فى سنه سبع ، أو أواخر سنه ست ، فغشى حدقتيه ببياض ، فعمى [3] ولذلك فإنه لا يعرف من الألوان إلا لونا واحداً . وأما ما يذكره فى شعره من ألوان فهى إستعارة من شعر الآخرين ، يقول القفطى :

« وقال : لا أعرف من الألوان إلا الأحمر، فإننى ألبست فى مرض الجدرى ثوبا مصبوغا بالعصفر ، ، فأنا لا أعقل غير ذلك ، وكل ما أذكره من الألوان فى شعرى ونثرى ، إنما هو تقليد الغير وإستعارة منه » [4] .

وقد لعب الجدرى مع العمى دوراً فى رسم صورة قبيحه لشكل المعرى كما وصفه من رآه .

« قال الحافظ السلفى : أخبرنى أبو محمد عبد الله بن الوليد بن غريب الأيادى أنه دخل مع عمه على أبى العلاء يزوره ، فرآه قاعداً على سجادة لبد .وهو شيخ قال : فدعا لى. ومسح على رأسى ، وكنت صبيا . قال : وكأنى أنظر اليه الساعة، وإلى عينيه إحداهما نادرة ، والأخرى غائرة جداً ، وهو مجدر الوجه نحيف الجسم .

---

(١) الخطيب البغدادى . تاريخ مدينة السلام (تعريف القدماء) ص ٥ ـ والانساب للسمعانى ص ١٤ (تعريف القدماء) وابن الانبارى فى نزهة الالبا ص ١٧ (التعريف)٩

(٢) يختلف القدماء فى تحديد سنة عماه هى ٣٦٧ هـ أو ٣٦٨ هـ .

(٣) ابن الجوزى : المنتظم : ص ١٨ (تعريف) .

(٤) القفطى : أنباه الرواة على أنباه النحاة ص ٣٠ (تعريف) .

ولقد كان إحساس أبي العلاء شديداً بالعمى، وكأنه كان يراه قدراً مكتوبا عليه لا مفر منه قبل أن يولد — وهو حق — ولكن إحساسه بهذا كان مسروراً في تعليقه على بيت المتنبي [1]

« ولما فرغ من تصنيف كتاب اللامع العزيزي في شرح شعر المتنبي ، وقرىء عليه ، أخذ الجماعة في وصفه . فقال أبو العلاء : كأنما نظر المتنبي إلى بلحظ الغيب حيث يقول :

أنا الذى نظـــر الأعمى إلى أدبى
وأسمعت كلماتى من به صمم

ولكن أبا العلاء لم يستسلم ليأس مرير يقتله ، ويقتل شبابه وعبقريته ، فالروايات تقول أنه كان فى مقتبل حياته عاكفا على مايلهو به الشباب فى مثل عمره من لعب بالشطرنج والنرد . وكان خفيف الظل حاضر البديهه ولم يكن يرى فى مأساة عماه إلا رحمه من الله حتى لا يرى الثقلاء والبغضاء .

« وكان حدثنى أبو الحسن الدلفى المصيصى الشاعر [2] — وهو ممن لقيته قديما وحديثا فى مدة ثلاثين سنة — قال : لقيت بمعرة النعمان عجبا من العجب : رأيت أعمى شاعراً ظريفاً ، يلعب بالشطرنج والنرد ، ويدخل فى كل فن من الجد والهزل ، يكنى أبا العلاء ، سمعته يقول : أنا أحمد الله على العمى . كما يحمده غيرى على البصر ، فقد صنع لى وأحسن بى ، كفانى رؤية الثقلاء والبغضاء » [3]

---

(١) ابن خلكان : وفيات الاعيان ص ١٨٣ (تعريف) .

(٢) هو أبو الحسن على بن مأمون الدلفى المصيصى . وقد روى عنه الثعالبي فى اليتيمة (١ : ٢/٢٢ : ٢٨٦) . والمصيصى : نسبة الى المصيصة وهى مدينة على شاطىء جيحان من ثغور الشام .

(٣) الثعالبي : تتمة اليتيمة ص ٣ ، ٤ (تعريف) .

وكان يخالط الحياة فى لهوها وجدها ، وتأتيه المكاتبات من كبار القوم فيرد عليها رداً رقيقا قال (١) : وحضرته يوماً وهو يملى فى جواب كتاب ورد عليه من بعض الرؤساء :

وافى الكتاب فأوجب الشكرا ... فضممته ولثمته عشرا
وفضضته وقرأته فإذا ... أجلى كتاب فى الورى يقرا
فمحاه دمعى من تحدره ... شوقاً اليك فلم يدع سطرا

وكان أبو العلاء راضيا بما قسم له ، يحزن بعض الشىء حين يكاتب الناس ويصف لهم ما حل به كما قال فى رسالته إلى داعى الدعاة الفاطمى :

« وقد علم الله أن سمعى ثقيل ، وبصرى عن الابصار كليل . قضى على وأنا إبن أربع ، لا أفرق بين البازل والربع »

وقد عوضه الله تعالى عن هذه العاهة بقوة ذاكرة خارقة، إذ ما يكاد الشىء يذكر أمامه حتى يلصق بذهنه ، وينقش بعقله حتى ولو طال الأمد ، والروايات تفيض فى ذكر هذه الحوادث التى تنطق عن ذكائه النادر ، وحافظته التى تعى كل شىء .

« كان أبو العلاء متوقد الخاطر ، على غاية الذكاء من صغره، وتحدث الناس بذلك ، وهو إذ ذاك صبى صغير ، يلعب مع الصبيان ، فكان الناس يأتون اليه ليشاهدوا منه ذلك.فخرج جماعه من أهل حلب إلى ناحيةمعرة النعمان، وقصدوا أن يشاهدوا أبا العلاء ، وينظروا ما يحكى عنه من الفطنة والذكاء ، فوصلوا الى المعرة وسألوا عنه ، فقيل لهم : هو يلعب مع الصبيان فجاؤوا اليه وسلموا عليه، فرد عليهم السلام . فقيل له أن هؤلاء جماعة من أكابر حلب جاءوا لينظروك ويمتحنوك فقال لهم: هل لكم فى المفاقاة بالشعر ؟ فقالوا نعم : فجعل كل واحد

(١) نفس المصدر السابق .

ينشد بيتا وهو ينشده على قافيته ، حتى فرغ محفوظهم بأجمعهم ، وقهرهم . فقال لهم : أعجزتم أن يعمل كل واحد منكم بيتا عند الحاجة اليه على القافية التى يريد ؟ فقالوا له : فافعل أنت ذلك . قال : فجعل كلما أنشده واحد منهم بيتا أجابه من نظمه على قافيته ، حتى قطعهم كلهم ، فعجبوا منه وانصرفوا ،(١)

هذه الرواية لها دلالتان ، الأولى أنها تشير إلى مشاركة المعرى فى صباه لأقرانه ولداته من اللعب واللهو ، وإنطلاقه كما ينطلق من فى مثل سنه غير متأثر بما حاق به من عمى البصر ، والثانية أنها تدل على ذكائه النادر ، وتمكنه من الشعر العربى ومحفوظة الوافر منه ، وكأنه يغترف من بحر لا ينفد ماؤه ، ولا يرى قراره . بل لقد بلغ به الأمر أنه يستطيع أن يؤلف فى الحال بيتا يساير القافية التى يريدها منه منافسه دون تردد أو إنتظار .

ولا عجب فى هذا إذا ماعرفناه أنه ينظم الشعر وهو ابن احدى عشرة سنة

« وقرأت بخط أبى محمد الحسن بن القاسم البحترى فى آخر سقط الزند ، وقرأه على التبريزى وعليه خطه ، وذكر أبا العلاء فقال : وقال الشعر وهو ابن إحدى عشرة سنة أو اثنتى عشرة سنة »(٢).

وقد ساعدته هذه الملكة على تحصيل العلم ، ومدارسته ، ومداومة الفكر فيه ، وكان الله تعالى رفيقا به إذ وهبه هذه الذاكرة النادرة ، فمثله لا يستطيع النظر فى الكتب إذا أراد الرجوع اليها أو التحقق من مسألة يريدها ، ولذلك كان مكتبته فى ذهنه دائما يرجع إلى صفوف كتبها المتراصة يقلب فيها بصيرته حين يطلب منه أحد ذلك :

« كان بأنطاكية خزانة كتب ، وكان الخازن بها رجلا علويا فجلست يوما اليه

---

(١) ابن العديم : الانصاف والتحرى ص ٥٥٨ ، ٥٥٩ (تصريف)
(٢) نفس المصدر السابق ص ٥٥٩ (تصريف)

فقال : قد خبأت لك غريبة ظريفة ، لم يسمع بمثلها فى تاريخ ، ولا كتاب منسوخ قلت : وما هى ؟ قال صبى دون البلوغ ضرير ، يتردد إلى وقـــد حفظته فى أيام قلائل عدة كتب وذلك لانى أقرأ عليه الكراسة والكراستين مرة واحدة ، فلا يستعيد إلا ما يشك فيه ، ثم يتلو على ما قد سمعه كأنه قد كان محفوظه . قلت : فلعله يكون يحفظ ذلك . قال : سبحان الله ! كل كتاب فى الدنيا يكون محفوظا له ! وإن كان ذلك فهو أعظم .

ثم حضر المشار اليه ، وهو صبى دميم الخلقة ، مجدور الوجـــه ، على عينيه بياص من أثر الجدرى ، كأنه ينظر باحدى عينيه قليلا ، وهو يتوقد ذكاء »[١].

وتدور الرواية بعد ذلك على حضور المعرى برفقة صاحب له . وكيف أن الزائر أختار بعض الكراسات وأخذ يقرأها عليه ، وهو ينصت باهتمام ، ويستعيد بعض ما يغمض عليه أو يريد مزيدا من التركيز . وبعد أن فرغ الرجل من قراءته يعيد عليه أبو العلاء ما قرأ ، ويقابله الزائر حرفا حرفا فلا يخطىء فى قول مما سمعه ويعجب الزائر غاية العجب ويقول « وعلمت أن ليس فى العالم من يقدر على ذلك إلا أن يشاء الله ».

ويوجه ابن العديم [٢] نقدا لهذه الرواية من حيث مكان حدوثهـا ، لأن أنطاكية كانت بيد الروم منذ سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة أى قبل بعد مولد المعرى ولم تخرج من حوزتهم إلا سنة سبع وخمسين وأربعمائة أى بعد وفاة المعرى فليس معقولا أن يكون مسرح هذه الحادثة أنطاكية ، ويرجح ابن العديم أن تكون قد جرت فى « كفر طاب »[٣] فقد كانت كفر طاب مشحونة بأهل العلم ، وكان بها من يقرأ الأدب ويشتغل به قبل أن يهجمها الفرنج ، وهجمها الفرنج فى سنة اثنتين

---

(١) ابن العديم : الانصاف والتحرى ص ٥٥٤ ، ٥٥٥ (تعريف) .

(٢) نفس المصدر ص ٥٥٥ (تعريف).

(٣) كفر طاب : هى بلدة بين المعرة وحلب .

وتسعين وأربعمائة »(١)

ويتساوى عندى أن تجرى الحادثة هنا أو هناك ولكنها دليل ملموس على قوة حافظته منذ الحداثة ، ولولا هذا ما استطاع تحصيل هذه الثروة اللغوية والأدبية والفلسفية النادرة التى نراها مبثوثة فى شعره ونثره .

ولم تفد هذه الذاكرة الواعية أبا العلاء فقط ، وإنما أفادت أولئك العلماء الذين كانوا يبحثون عن صحائف فقدت من كتبهم ، ولا يدرون شيئا عما فقد ، فكانوا يذهبون إلى أبى العلاء ليجدوا عنده المفقود والمجهول والمظنون به من علوم الأوائل والأواخر .

« ونقل أن رجلا من طلبة العلم باليمن وقع اليه كتاب فى اللغة سقط أوله ، وأعجبه جمعه وترتيبه، فاتفق أنه حج فحمله معه، وكان إذا اجتمع بأديب أراه ذلك الكتاب وسأله عنه : هل يعرفه أو يعرف مصنفه ؟ فلم يجد أحدا يخبره بذلك . فأراه فى بعض الأحيان لبعض الأدباء ، وكان ممن يعلم حال أبى العلاء وتبحره فى العلم ، فدله عليه ، فخرج ذلك الرجل إلى الشام ووصل الى معرة النعمان، فاجتمع بأبى العلاء وعرفه ماحمله على الرحلة اليه ، وأحضر ذلك الكتاب ، وهو مقطوع الأول . فقال له أبو العلاء : أقرأ منه شيئا فقرأ عليه . فقال له أبو العلاء : هذا الكتاب اسمه كذا وكذا ، ومصنفه فلان بن فلان . ثم ابتدأ أبو العلاء فقرأ له أول الكتاب ، وأكمل النسخة وقيل : أن الكتاب المذكور هو « ديوان الأدب » « للفارابى والله أعلم »(٢)

ومهما يكن من أمر هذه الروايات من المبالغة أو التهويل أو الشطط ، فان أغلب الظن أنها تحمل قسطا كبيراً من حقيقة ذلك الشاعر النادر . تحمل صفة من

---

(١) نفس المصدر السابق ص ٥٠٦ (تعريف) .

(٢) ابن فضل الله العمرى : مسالك الابصار ص ٢٤٩ (تعريف) .

صفات النبوغ التى يعوضه بها الرحمن الرحيم عن فقده لبصره وعدم امكانه مداومة القراءة حين يشاء أو حين تعوزة الحاجة .

وكانت رحلاته العلمية سعيا وراء الكتب والاستزادة بالمعرفة معينا له على اثراء مكتبه الذهنية الواعية، التى تصنف العلوم، وتدرك أسرارها، وتهضم معانيها.

« ولما كبر أبو العلاء ، ووصل الى سن الطلب ، أخذ العربية عن قوم من بلدة كبنى كوثر أو من يجرى مجراهم من أصحاب ابن خالويه وطبقته ، وقيد اللغة عن أصحاب أبن خالويه أيضا وطمحت نفسه الى الإستكثار من ذلك ، فرحل الى طرابلس الشام، وكانت بها خزائن كتب قد وقفها ذو واليسار من أهلها ، فاجتاز باللاذقية ، ونزل دير الفاروس ، وكان به راهب يشدو شيئا من علوم الأوائل ، فسمع منه أبو العلاء كلاما من أوائل أقوال الفلاسفة ، حصل له به شكوك لم يكن عنده ما يدفعها به، فعلق بخاطره ماحصل به من بعض الانحلال(١) وانما سقت هذا النص لا لأدلل على عقيدة المعرى — فلذلك موضعه — وانما لنرى من خلاله كيف كان طالب العلم شغوفا بأن يضيف الى ذاكرته الواعية العلم المقروء والمسموع معا .

وساعدته أيضا هذه الذاكرة الواعية على خدمة المجتمع فى معاملاته اليومية الجارية ، وقد كانت له قدرة خارقة على استيعاب ما يذكر أمامه حتى ولو كان بلسان غير لسانه . وحكى عنه تلميذه أبو زكريا التبريزى ، انه كان قاعدا فى مسجده بمعرة النعمان يقرأ عليه شيئا من تصانيفه ، فدخل مغافصة ، (٢) المسجد بعض جيراننا للصلاة فرأيته وعرفته ، وتغيرت من الفرح . فقال لى أبو العلاء : ما أصابك؟ فحكيت له أنى رأيت جارا ولم يسبق أن رأيت أحدا من بلدى منذ سنتين. فقال لى : قم وكلمه ، فقلت : حتى أتمم السبق(٣) فقال : قم انا انتظرك . فقمت

---

(١) القفطى : أنباه الرواة على أنباه النحاة ص ٣٠ ، ٣١ (تعريف)

(٢) مغافصة = مفاجأة .

(٣) السبق ، بالتحرك ، يراد به الدرس . ولم تنص عليه معاجم اللغة . ولا تزال تستعمل عند الفرس بهذا المعنى (استينجاس ص ٦٤٩)

وكلمته بالأذربيجية شيئا كثيرا ، الى ان سألت عما أردت . فلما فرغت وقعدت بين يديه قال لى : أى لسان هذا ؟ قلت : هذا لسان أهل اذربيجان . فقال : ماعرفت اللسان ولا فهمته ، غير انى حفظت ما قلتما ثم اعاد لفظنا بلفظ ما قلنا فجعل جارى يتعجب غاية التعجب . ويقول : كيف حفظ شيئا لم يفهمه ؟(١)

وتدل هذه الرواية على ادب التلميذ أبى زكريا التبريزى الذى يرى جارا له يدخل المسجد — وهو لم ير مواطنا من بلده منذ سنتين — وهو يقرأ على ابى العلاء درسا ، فلا يستطيع ان يستأذن استاذه الا ان يفضحه صوته وتتغير نبراته من الفرح ، فيسأل الأستاذ عن سر تغيره ، ويجيب بما طرأ ويطلب منه المعرى ان يرحب بمواطنه ويطمئنه على الدرس وانه سينتظره ريثما يأتى . ويسمع المعرى الحديث المتداول بين التبريزى ومواطنه بالاذربجية فيطبع فى ذهنه ويستطيع اعادته رغم أنه لا يفهم هذه اللغة .

ومثال ذلك قصة جار المعرى الأعجمى الذى غاب عن بيته فأتاه زائر من مواطنيه وترك عند المعرى رسالة شفوية نقلها المعرى كما سمعها الى جاره عندما عاد وكان فيها الأنباء السيئة عن موت أهل ذلك الجار الأعجمى الذى أخذ يبكى ويصرخ عند اخباره بالتسجيل الصوتى الذى وعاه المعرى ونقله بأمانة (٢)

وقصة ذلك السمان جار المعرى الذى فقدت منه اوراق حساب كانت جارية بينه وبين احد عملائه فلما ذهب الى المعرى املى عليه نسخة كان قد سمعها من ذلك الحساب المفقود ، فلم يمض الا ايام يسيرة فوجد السمان الرقاع وقد جذبتها الفأر الى زاوية فى الحانوت ، فقابل بها ما املاه ابو العلاء ، فلم يخطىء فى حرف واحد (٣)

---

(١) ابن فضل الله العمرى : مسالك الابصار ص ٢٢٤ (تعريف) .

(٢) نفس المصدر السابق ص ٢٢٥ (تعريف) .

(٣) نفس المصدر السابق ص ٢٢٦ .

وهذه الروايات تزدحم بها صحف من ترجموا لحياة ابى العلاء المعرى رغم غلوها وبعدها عن الواقع .

وتصور رواة هذه الأساطير ان ذاكرته القوية قد عوضته كثيرا عن فقد بصره غير انه كان يدرك عمق مأساته حين يتحدث فى شعره عن فقده لقوة من قواه الطبيعية فلا يستطيع ان يسعى فى الأرض كما يسعى الناس :

ومالى طرق السير ولا السرى لأنى ضرير لا تضىء لى الطرق

ويرجو من وهبه الله البصر أن يتصدق به على الأعمى ، فيأخذ بيده ليهديه الطريق ولكنه يطلب أيضا من ذوى الأفهام أن لا يسكنوا عن أفهام الصم الذين لا يسمعون صوت العقل :

تصدق على الأعمى بأخذ يمينه لتهديه وأمنن بافهامك الصما

ويدعو إلى الرحمة بالأعمى ، وإلى عدم إيذائه ، ويصف الخلق كلهم بأنهم كلهم عميان أن لم يرحموه :

إذا مر أعمى فارحموه وأيقنوا وان لم تكفوا ان كلكم أعمى

ويرى أن كل الناس فى عمياء مظلمة،وأنهم يتصادمون جميعا فى ظلام دامس:

وبصير الأقوام مثلى أعمى فهلموا فى حندس نتصادم

ويرثى لأعمى البصيرة والعقل الذى لا يمكن أن يهتدى ، بينما أعمى البصر تهديه عصاه :

أعمى البصيرة لا يهديه ناظره إذ كل أعمى لديه من عصا هاد

ويشكر عمى البصر لأنه صانه ، وصان جسمه عن الانحراف فى طرق مجهولة العواقب :

ذهاب عينى صان الجسم آونة عن التطوح فى البيد الأماليس

ويعجب كيف يهدى الناس وهو أعمى والناس أيضا كلهم عميان لا يعرفون شكل الحقيقة ، ولا يهتدون إلى الطريق السوى ، ويرى أن العصا أفضل للضرير من قائد فاجر عاص يقوده إلى التهلكة والدمار :

أنا أعمى فكيف أهدى إلى المنهج والناس كلهم عميان
والعصا للضرير خير من القا ئد فيه الفجـــور والعصيان

لقد شعر أبو العلاء بكارثته لكنه لم يسمح لها بأن تلتهمه ، ولم يطأطىء لها رأسه . وإنما سارت حياته فى التحصيل العلمى أروع ما تكون وساعدته على ذلك ذاكرة نادرة ، وحفظ سريع واسع ، وإدراك تام لما ينبغى عليه أن يختاره لمحفوظه ، فكانت ذاكرته أشبه بالفهرست يستدعى منه المعلومات التى يريدها فى أسرع وقت، كما لو كانت يده تمتد إلى كتب متراصة مفهرسة بعناية ودقة متناهيتين وقد أغناه هذا الإدراك النادر عن عين مبصرة تهديه .

ب ـ حساسيته المفرطة :

يتمتع أبو العلاء بحس بالغ الشفافية ، يجعله يرى ما لا يرى النـاس ، ويحس ما لا يحسه غيره . وقد كان هذا سلاحا ذا حدين أفاده بقدر ما أضره .

أفاده بأن جعله قادرا على النفاذ فى نفس متحدثه ، ومعرفة دخائله، وأسراره إلى حد يشبه المعجزة ، وأضره بأن جعله يتمعن أفعال الناس تجاهه ، ويتلقى نقدهم المر بآلام نفسية عنيفة ، ويذود عن نفسه بعنف وضراوة فى بعض الأحيـان . أما من الناحية الأولى ـــ ناحية الفائدة ـــ فقد كان قادرا على تمييز أشكال الناس من طول أو قصر ، وكذلك على معرفة أصواتهم ، والتفرقة بين لهجاتهم ومثال ذلك ، أن أبا محمد الخفاجى ، لما دخل على أبى العلاء بن سليمان المعرة. سلم عليه ، ولم يكن يعرفه أبو العلاء ، فرد عليه السلام وقال : هـذا رجل طوال . ثم سأله عن صناعته ، فقال : أقرأ القرآن . فقال : اقرأ على شيئا منه . فقرأ عليه عشرا . فقال له : أنت أبو محمد الخفاجى الحلبي ؟ فقال نعم : فسئل عن ذلك فقال: أما طوله

فعرفته بالسلام . وأما كونه ابا محمد فعرفته بصحة قراءته وأدائه بنغمة أهل حلب ، فانى سمعت بحديثه[١] » .

وتبالغ بعض الروايات حينا فى مدى إدراك المعرى ، وحدسه الذى لايخطىء وأظن أن هذا يرجع إلى صدق حدسه فى بعض الأمور ، فعمم الرواة البعض على الكل وزادوا فيه وأضافوا من خيالهم الكثير من الخوارق التى تنسب اليه وإلى حساسيته التى تستطيع أن تكشف رسولا سريا أوفده الخليفة القائم العباسى إلى المعز بن باديس الصنهاجى بالقيروان حين اراد اقامة الخطبة لبنى العباسى وقطعها عن الفاطميين فى مصر ، ومر الرسول بالمعرة فأدركه أبو العلاء وأخفى أمره :

« وقد ذكر ابن بسام المغربى فى كتابه المعروف بالذخيرة أن أبا الفضل محمد ابن عبد الواحد البغدادى ، نفذ من بغداد ، رسولا عن الخليفة القائم بأمر الله ، إلى المعز بن باديس الصنهاجى ملك القيروان ، حين رام الخطبة لبنى العباس ، ومخالفة ملوك مصر العبيديين فلما اجتاز بالمعرة اجتمع بأبى العلاء المعرىفاستنشده فأنشده قصيدة لامية يمدح بها صاحب حلب ، فقبل المعرى بين عينه ، وقال له : بأبى أنت من ناظم ! وما أراك إلا رسول أمير المؤمنين القائم إلىالمعز بالقيروان، فاطو خبرك ، فالعيون لم ترك ، فلحق بالمعز »[٢] .

وأغلب ظنى أن أمثال هذه الروايات تساق لتأكيد تعصب المعرى للخلافة العباسية السنية واضماره العداء للعبيد بين المنتسبين للفاطميين فى مصر . بدليلأنه أخفى أمر رسول الخليفة إلى المعز بن باديس مما يوحى بتعصبه للسنة . وبجانب هذا فهى تدل على مبالغة بعض الروايات فى تصوير فطنته وحساسيته .

وهناك بعض الروايات التى يسوقها محبو المعرى مثل ابنالعديم،تستقيمروايتها مع العقل والمنطق ، ومثال ذلك ادراكه لمنشد يقول شعرا فى رثاء ولده أنه هو

---

(١) ابن العديم « الانصاف والتحرى ص ٥٦٢ (تعريف) .
(٢) نفس المصدر ص ٥٦٣ (تعريف) .

نفسه صاحب الشعر وقائله ، لما لاحظه من تأثره البالغ ، وهذا أمر لامعجزة فيه ولا غرابة مثل الرواية السالفة .

« بلغني أن أبا العلاء بن سليمان كان يعجبه قصيدة التهامي ، التي يرثي بها ولده ، وأولها :

حكم المنية في البرية جاري ما هذه الدنيا بدار قرار

قال : فكان لا يرد عليه أحد من أهل العلم إلا ويستنشده أياها ، لإعجابه بها .

فقدم التهامي معرة النعمان ،ودخل على أبي العلاء ، فاستنشده أياها ، فأنشدها فقال له : أنت التهامي ؟ فقال : نعم ، وكيف عرفتني ؟ فقال : لأنى سمعتها منك ومن غيرك ، فأدركت من حالك أنك تنشدها من قلب جريح ، فعلمت أنك قائلها[1] . ولاشك أن الأب حين يرثي ابنه يكون بكاؤه دمعا سخينا ودما قاني اللون ، ومن السهل ادراك دموع الأب من دمزع الآخرين،وحين ينشدالتهامي شعره في رثاء ولده فان تهدج نبراته ، وصدق قراره ، وعمق أشجانه، كلهاعوامل تكشف عن أبوته المجروحة ، وقلبه المكلوم .

وكانت هذه النفس الشفافة تقابل بالأهانة والمعاملة السيئة من الحاقدين ، وذوى النفوس المريضة ، فكانت تتألم ، وتكتوى بنار الأهانة ومثال ذلك أنه حين ذهب إلى بغداد ، دخل على علي ، بن عيسى الربعي[2] ليقرأ عليه شيئا من

---

(١) ابن العديم : الانصاف والتحرى ص ٥٦٤ (تعريف) .

(٢) على بن عيسى الربعي : هو على بن عيسى بن الفرج بن صالح الربعي أبو الحسن الزهري ، أحد أئمة النحو وحذاقهم ، الجيدى النظر ، الدقيق الفهم والقياس ، أخذ عن السيرافي والفارسي ، وكان يحفظ الكثير من أشعار العرب مما لم يكن غيره يقوم به ، الا أن جنونه كان يحول دون التمكن من الاخذ عنه . ولد سنة ٣٢٨ هـ وتوفى سنة ٤٢٠ هـ
ياقوت ٥/٢٨٣
بغية الوعاة ص ٣٤٤

النحو ، قال له الربعى : ليصعد الاصطبل ، فخرج « غضبا ولم يعد إليه »[١] والاصطبل هى الأعمى بلغة أهل الشام ، ولقد شعر أبو العلاء أنه أهين اهانة بالغة ، حين لم يناده هذا العالم النحوى باسمه وناداه بصفة من صفاته ، نعم لقد كان أعمى ، وهو يدرك ذلك ، ولكن ينادى بيا « أعمى » اهانة بالغة لنفس مرهفة تستدعى منه أن ينصرف عن هذه الدار التى أهانته ولا يعود إليها مرة ثانية ، وكأنه يرى البحترى حين يقول :[٢]

وإذا ما جفيت كنت جديرا ان أرى غير مصبح حيث أمسى

وكان أبو العلاء يفضل أن ينفرد بنفسه حين يأكل ، ويتحاشى أن يراه أحد حتى لا يرتبك فى أكله ، وكان يرى أن الاستتار واجب على الأعمى ، وقد كانت هذه الحساسية الزائدة فى تناوله للطعام ربما أضرت به ، وجعلته عاجزا عن تناول طعامه كما ينبغى ، ولأنه كان يأنف أن يساعده احد فى تناوله . ومثال ذلك أنه « سمع الجماعة يوما يذكرون بطيخ حلب ، فتكلف وسير من ابتاع له منه حملا ، وأحضرهم أياه ، فأفردوا له منه عددا يسيرا ، وتركوه فى سرداب له كان إذا أراد الأكل نزل اليه وأكل مستترا ويقول : الأعمى عورة ، والواجب استتاره فى كل الاحوال ، ولما كان بعد أيام نزل خادمه إلى تفقد المغارة ، ووجد البطيخ بحاله لم يعرض له وقد فسد ، فراجعه فى ذلك فلم يجبه واستدل الجماعة بذلك على أنه ما كان يتفكه . وربما كان يتناول ما يقوم بالاود من أيسر الموجودات »[٣]

وهاهوذا فى مجلس الدرس ، وقد خرج لتوه من تناوله طعامه المكون من عسل التمر ، ويبدو أن اقباله على وجبته المفضلة جعلت بعض الاثار من ذلك

---

(١) ابن الانبارى : نزهة الالبا فى طبقات الادبا ص ١٦ (تعريف)

(٢) ديوان البحترى جـ ٢ ص ١١٥٤ ط المعارف .

(٣) القفطى : أنباه الرواة على أنباه النحاة ص ٣٦ ، ٣٧ (تعريف)

العسل تعلق بثيابه ويلاحظ أحد تلاميذه عليه ذلك ، فيسرع إلى إزالته بما يوحى بحرجه وانفعاله لهذا الحادث البسيط :

« وذكر أنه نزل إلى السرداب ، وأكل شيئا من رب أو دبس ، ونقط على صدره منه يسير وهو لا يشعر به . فلما جلس للأقراء لمحه بعض الطلبه فقال : ياسيدى ، أكلت دبسا ! فأسرع بيده إلى صدره ومسحه وقال : نعم ، لعن الله النهم ! فاستحسن منه سرعة فهمه بما على صدره وأنه الذى أشعر به » (١)

وعانى أبو العلاء كثيرا من الاضطهاد بسبب حرية رأيه ، وبسبب تعصبه للمتنبى ، كما رماه الكثيرون بألسنة حداد كرها لآرائه ، أوحسدا لمنزلته ، وحقدا على علمه ومكانته فى نفوس الناس جميعا .

وهذا هو ابن كثير (٢) يظلم أبا العلاء ويهاجمه ، ويضطرب فى رواية طردم من مجلس الشريف المرتضى ببغداد ويقول أنه كان بمجلس الخليفة العباسى (٣) .

« وكان يوما عند الخليفة ، وكان الخليفة يكـــــره المتنبى ويضع منه ، وكان أبو العلاء يحب المتنبى ، ويرفع من قدره ويمدحه . فجرى ذكر المتنبى فى ذلك المجلس ، فذمه الخليفة . فقال أبو العلاء : لو لم يكن للمتنبى إلا قصيدته التى أولها :

لك يامنازل فى القلوب منازل

لكفاه ذلك . فغضب الخليفة ، وأمر به فسحب برجله على وجهـــه ، وقال

---

(١) نفس المصدر السابق ص ٣٧ (تعريف) .

(٢) ابن كثير : هو الحافظ أسماعيل بن عمر بن كثير البصرى ثم الدمشقى الفقيه الشافعى أخذ عن الحافظ المزى وابن تيمية . وقد انتهت اليه رياسة العلم فى التاريخ والحديث والتفسير ومن تصنيفه غير هذا الكتاب : تفسيره للقرآن الكريم . وقد ولد سنة ٧٠١ هـ كما نص هو على ذلك فى البداية والنهاية (١٤ : ٢١) .

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ص ٣٠٢ (تعريف) .

الخليفة : أتدرون ما أراد هذا الكلب من هذه القصيدة وذكره لها ؟ أراد قول المتنبي فيها :

اذا اتتك مذمتى من ناقص فهى الدليل على انى كامل (١)

وإلا فالمتنبي له قصائد احسن من هذه ، وانما أراد هذا . وهذا من فرط ذكاء الخليفة ، حيث تنبه لهذا . وقد كان المعرى أيضا من الأذكياء ».

والغريب أن يدعى الحافظ ابن كثير الفقيه الشافعى هذا على الخليفة العباسى السنى ، وينفيه عن الشريف المرتضى للشيعى ! .

وقد نقد ابن كثير كثيرا من الروايات التى تبالغ فى اظهار المعرى بمظهر الرجل الذى يأتى بالمعجزات ، وكان ابن كثير فى هذا محقا . وأول تلك الروايات ، رواية الدرهم :

« وأول ما ينقلونه عنه من الأشياء المكذوبة المختلقة من أنه وضع تحت سريره درهم فقال اما أن تكون السماء قد انخفضت مقدار درهم ، أو الأرض قد ارتفعت مقدار درهم — أى أنه شعر بارتفاع سريره عن الأرض مقدار ذلك الدرهم الذى وضع تحته — فهذا لا أصل له » (٢)

فلاشك أن هذا الادعاء يفوق قوة الإنسان ، وأنه من المبالغات التى لاسند لها من المنطق أو العقل ، ولذلك فانى أؤيد ابن كثير فى اعتراضه على هذه الرواية وعلى رواية أخرى تقول :

« وكذلك يذكرون عنه ، أنه مر فى بعض أسفاره بمكان فطأطأ رأسه ، فقيل له فى ذلك ، فقال : أما هنا شجرة ؟ قالوا لا . فنظروا فاذا أصل شجرة كانت

---

(١) فهى الشهادة لى بأنى كامل (ديوان المتنبي بشرح العكبرى)
(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ص ٣٠٣

هناك فى الموضع الذى طأطأ رأسه فيه ، وقد قطعت ، وكان قد اجتازبها قديما مرة ، فأمره من كان معه بطأطأة رأسه لما جازوا تحتها ، فلما مربها المرة الثانية طأطأ رأسه خوفا من ان يصيبه شىء منها . فهذا لا يصح . »(١)

ولو كانت الشجرة قائمة لقلنا ان المعرى سمع حفيف أوراقها ، أو أحس بوجودها — بطريقة ما — ، ولكن مابالنا والشجرة قد اقتطعت وليس لها إلا بقايا جذورها فكيف أحس بوجودها وطأطأ رأسه ، أنه لعمرى أمر يصعب على التصديق كما قال ابن كثير الذى يهاجم أبا العلاء كثيرا ، إلا أنى اتفق معه فى البعض واختلف معه فى الكثير الذى سيجىء بعد .

وكما غضب أبو العلاء من على بن عيسى الربعى حين ناداه بالاصطبل ، غضب أشد الغضب أيضا حين كان ذاهبا إلى مجلس الشريف المرتضى فى بغداد فحدثت مشادة كلامية بينه وبين احد الجالسين :

« دخل يوما أبو العلاء المعرى على الشريف المرتضى ، فعثر برجل ، فقال ، الرجل : من هذا الكلب ؟ فقال أبو العلاء : الكلب من لا يعرف الكلب سبعين اسما (٢)

فهو يرى أن علمه يرفعه درجات ، وأن الكلاب هى التى لاتعلم مثل علمه . ولذلك فقد اهتم السيوطى بنفى تهمة المعرى عن نفسه ونظم أرجوزة يعدد فيها اسماء الكلب ويبدأ أرجوزته بقول : (٣)

---

(١) نفس المصدر السابق ص ٣٠٣ .

(٢) السيوطى : التبرى من معرة المعرى للسيوطى ص ٤٢٩ (تعريف) . وهى ارجوزة ذكر فيها السيوطى أسماء الكلب . وذكر لى أولها ماحمله على تأليفها . وقد نشرتها لجنة أحياء آثار أبى العلاء فى كتاب تعريف القدماء نقلا عن نسختين مخطوطتين بدار الكتب المصرية .

(٣) السيوطى : التبرى من معرة المعرى ص ٤٢٩ ، ٤٣٠ (تعريف) .

« قلت : وقد تتبعت كتب اللغة ، فحصلتها ونظمتها فى أرجوزة ، وسميتها التبرى من معرة المعرى . وهى هذه :

لله حمد دائم الولى ثم صلاته على النبى
قد نقل الثقات عن أبى العلا لما أتى للمرتضى ودخلا
قال له شخص به قد عثرا من ذلك الكلب الذى ما أبصرا
فقال فى جوابه قولا جلى معبراً لذلك المجهل
الكلب من لم يدر من أسمائه سبعين ، موميا إلى علائه
وقد تتبعت دواوين اللغة لعلنى أجمع من ذا مبلغه
فجئت منها عدداً كثيرا وأرتجى فيما بقى تيسيرا
وقد نظمت ذاك فى هذا الرجز ليستفيدها الذى عنها عجز
فسمه — هديت — بالتبرى ياصاح من معرة المعرى

كان أبو العلاء شقيا بوجوده فى هذا الوسط الاجتماعى الذى يقسو عليه كل القسوة ، بينما هو ضعيف لا يستطيع لأذى الناس دفعا ، وقد علم الله أن سمعى ثقيل وبصرى عن الابصار نقيل [1] ، قضى على وأنا ابن أربع لا أفرق بين البازل والربع [2] ، ثم توالت محنى ، فأشبه شخصى العود المنحنى ، ومنيت فى آخر عمرى بالاقعاد ، وعدانى عن النهضة عاد » [3]

فما كان أشقى الشيخ بعجزه ، وما كان أشقاه بزمانه ، وما كان أشقاه بأهل ذلك الزمان الذين لم يرحموا حساسيته المفرطة فأخذوا يوجهون اليه سهام نقدهم

(١) النقيل : الغريب ، أى غريب الابصار . وفى الرسائل الخمس « كليل »

(٢) فى الاصل « التنازل » وانما هو البازل الذى بزلت سنه فى التاسعة والربع : الفصيل ينتج فى الربيع .

(٣) ياقوت الحموى : ارشاد الاريب الى معرفة الاديب ص ١١١ ، ١١٢ (تعريف) رد أبى العلاء على داعى الدعاة الفاطمى .

تارة يتهمونه بالالحاد والكفر ، وتارة يشتمونه بأقذع اللفظ ، وحتى وهو بعيد عنهم فى صومعته لم يسلم من أذاهم ؛ ولم يكن يبغى شيئا على الأطلاق من الحياة « ولست أريد فى رزقى زيادة ، ولا أوثر لسقمى عيادة »

ومع هذا فان الحياة لم ترحم أوتاره الرقيقه ، فأخذت تشد عليها بين الحين والآخر بقبضتها حتى أرهقته أشد الإرهاق وجعلته قلقا حزينا ، وأغلب الظن أن رحلته البغدادية كان لها الأثر البالغ فى حياته ونظرته .

جـ - رحلته إلى بغداد :

كانت الحيـاة فى الشام فى أواخر القرن الرابع الهجرى مرتعا للفوضى بكافة مظاهرها السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، وكان نفـــوذ أصحاب الدعوات الباطنية كالفاطميين الغلاة ، والاسماعيلية ، والقرامطة ، والدروز يمد قبضته نحو حلب وأرباضها ، وكان الجو خانقا يوحى بالتشاؤم فلم يجد المعرى بدا من أن يشد الرحال متجها نحو بغداد ، وهو يومئذ - برغم إضطراب الحياة فيها ، إلا أن الخليفة العباسى يسكنها ، كما كان الشيعة ذوى نفوذ قوى فى كافة أنحاء العراق وخاصة بعد أن قبض بنو بويه على زمام السلطة وكانت الاضطرابات قائمة فى بغداد بين السنة والشيعة أشد ما تكون ، حتى أن ابن الأثير يذكر فى حوادث سنة ٤٤٣ هـ الفتنة التى قامت بين العامة ببغداد وأدت إلى إحراق المشهد على ساكنيه السلام ، وكانت هذه الفتنة وليدة فتن كثيرة سابقة كما يقول الكامل :(١)

« فى هذه السنة فى صفر تجددت الفتنة ببغداد بين السنية والشيعة وعظمت أضعاف ماكانت قديما . . فكان الاتفاق الذى ذكرناه فى السنة الماضية غير مأمون الإنتقاض لما فى الصدور من الأحن » .

وكانت هذه المعارك الأهلية التى تقوم بين الحين والآخر بين عامة بغداد -

---

(١) ابن الاثير : الكامل جـ ٩ ص ٥٩ ، ٦٠ .

شيعة وسنية ـ تمثل انقساما خطيرا فى جسم الأمة الاسلامية أدى إلى نتائج خطيرة فى عصر أبى العلاء كان أبرزها حالة القلق التى اعتملت فى نفوس الناس الذين لا يأمنون على أموالهم ، أو أعراضهم ، أو أنفسهم :

« وقصد أهل الكرخ إلى خان الفقهاء الحنفيين فنهبوه وقتلوا مدرس الحنفية أبا السعد السرخسى ، وأحرقوا الخان ودور الفقهاء وتعدت الفتنة إلى الجانب الشرقى فاقتتل أهل باب الطاق ، وسوق بج ، والاساكفه ، وغيرهم (١) .

ولكن بغداد كانت تمثل أملا عظيما لكل صاحب موهبه يرمى لنفسه الذيوع والانتشار والثروة . وكانت الشام تضيق بعبقريه نادرة المثال المعرى ، فلم ير بدا من أن يشد الرحال إلى بغداد تاركا الشام التى قرن الشؤم بها كما يقول ابن عساكر (٢).

« قال أبو بكر محمد بن القاسم بن الانبارى : والشام فيه وجهان : يجوز أن يكون مأخوذا من اليد الشؤمى وهى اليسرى ، قال الشاعر :

وانحى على شؤمى يديه فرادها   بأظمأ من فرع الذوابة أسحما

ويجوز أن يكون فعلى من الشؤم ، ويقال انجد أتى نجدا ، وأعرق أتى العراق ، وأعمن أتى أعمان ، وقد اشأم أتى الشام ، وبصر وكوف ، وأمن ويامن إذا أتى اليمن » وكانت الشام حقا فى عهده بين شقى الرحى : الروم من الشمال والمصريين من الجنوب بفاطميتهم المزعومة ، وآرائهم الإرهابية ، وفرقهم الفدائية ، وفى الداخل كان البدو ممثلين فى المرداسيين يعيثون نهبا وسلبا للخيرات ، فضلا عن ظروفه الخاصة التى كان يرزح تحتها من كارثة فقد البصر وضيق ذات اليد :

« على أنه كان أسامه بوطنه الضرير والمضرة . فإذا السبب الثانى تبرمه من

---

(١) نفس المصدر السابق ص ٦٠ .

(٢) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق جـ ١ ص ٨

الفتن الماثلة ، والدول الدائلة . وتوثب أجلاف البدو ، وحملة المصريين والغزو ، على ماكان الروميون المجاورون يسومونهم من أنواع الخسف ، ويكيدونهم به من الحيف والعسف فكأن هاتيك الفتن المتوالية رنقت سائغ منهله فعزم على الرحلة والنقلة . بعد أن كان يجمجم بها فى العزلة »[1] .

وأغلب ظنى أن الأسباب المباشرة للرحلة البغدادية كانت تنصب أولا وأخيرا فى قلة ماله ، وحاجاته الشديدة إلى هذا المال ليسد حاجته وحاجة تلاميذه الذين يفدون عليه من كل أنحاء الأرض يلتمسون عنده العلم والمؤونة ، وكان يظن أنه يستطيع فى بغداد أن يحقق الكثير من طموحه المادى هذا وهذه هى طبيعة النفس البشرية ، وحتى لو تعمد أبو العلاء أن ينكر هذا السبب فى رسائله وشعره فاننا نقف مما يقول موقف المتأمل الناقد الذى يأخذ الأمور بحذر ، فلقد كان أبو العلاء فقيرا حتى بعد عودته من تلك الرحلة الخاسرة ، يقول عمر فروخ[2] بهذا الصدد.

ومع الإيقان بأن أسرة والدى المعرى وأسرة أمه كانتا من الأسر الوجيهة الغنية فى المعرة وفى حلب فان المعرى نفسه كان فقيرا . ولقد أصاب الأستاذ المقدسى[3] فى التساؤل عن طريقة للتوفيق بين قول أكثر المترجمين للمعرى بأنه كان فقيرا ، وبين قول بعضهم بأنه كان ينفق فى سبيل اللائذين والمعوزين[4] . ثم أجاب على ذلك بأن المعرى حسنت حاله بعد أن آب إلى المعرة وكثر طلابه ».

غير أن المعرى لم يرتزق من طلابه ، ولربما كان ينفق عليهم أكثر مما ينفق على

---

(١) عبد العزيز الميمنى الراجكوتى : أبو العلاء وما اليه ص ١٠٢

(٢) عمر فروخ : حكيم المعرة ص ٢٤

(٣) انيس المقدسى : امراء الشعر (١٩٣٦) ص ٣٢٢

(٤) ويصف ناصر خسرو فى سفر نامه الكثير من مظاهر غنى المعرى وثروته ويصوره كما لو كان أميرا يدين له أهل المعرة جميعهم بالطاعة ، وكيف لمعرى ياجر انسان يتمتع وسط قومه بمثل ما يصف ناصر خسرو ؟ (ناصر خسرو : سفر نامة ص ٦٢ ٤ — تعريف)

نفسه ، وظنى أنه كان يحرم نفسه ليعطى تلاميذه مايريدون ومصداق ذلك فى رواية ناصر خسرو «سأله رجل : لم تعطى الناس ما أفاء الله تعالى عليك من وافر النعم ولا تقوت نفسك ؟

. . فأجاب : انى لا أملك أكثر مما آكل . وكان هذا الرجل حيا وأنا هنالك(١)

ويحاول أبو العلاء أن ينفى عن نفسه شبهة قصده لبغداد بغرض الارتزاق أو المدح . ونحن نؤيده فى هذا ـ مع تحفظ ـ إذ المعروف عنه أنه لم يكن يرتزق بشعره ، ولو أراد لجنى خيرا كثيرا وهو جالس فى بيته بالمعرة لم يغادر بابه ، وكان الكدح هو الباب الذى يؤدى إلى الرزق الواسع ، وكان المعرى ـ كغيره من البشر ـ يود أن يكون رزقه واسعا . ولكن عن طريق غير الطريق المألوف وقتئذ وهو التمرغ على أعتاب ذوى الثروة والسلطة ، وكان طريقه إلى ذلك محدداً مرسوما ، وهو طريق العلم والتأليف فقط ، فى أى باب يريده ، وفى أى غرض يمليه عليه ضميره أو يهيج له وجدانه أو تسمح به أخلاقه ومثله التى تأنف من المديح والمغالاة فيه ، ولذلك فإن النظر فى قول المعرى :

« وقد فارقت العشرين من العمر ما حدثت نفسى باجتداء علم من عراق ولا شام » (٢)

« وأحلف ما سافرت استكثر من النشب . ولا أتكثر بلقاء الرجال » (٣)

ينبغى أن يؤخذ بالاحتياط اللازم ، ويقابل بقوله فى تعليل عودته من بغداد :

« وكنت ظننت أن الأيام تسمح لى بالاقامة هناك ، فاذا الضارية (٤) أحجا

---

(١) ناصر خسرو : سفر نامة ص ٢٦٣ (تمويف) .

(٢) رسائل أبى العلاء المعرى ص ٣١ ط مرجوليوث ص ٧٦ ط بيروت

(٣) نفس المصدر السابق ص ٣٤ ، ٣٥ ، ص ٨٢

(٤) الضارية من الحيوانات كالاسد والذئب ـ احجا : أشد ولما وتمسكا وعراقها اللحم والعظام اللذان يبقيان من فريستها . ضربتها واحدة الضرب ، بفتح الضاد واسكان الراء وفتحها فيهما . وهو اللبن الحقين الحامض وفى الأصل « بضربتها »

بعرافها . والأمة أنخل بصربتها. والعبد أشح بكراعه (١) والغراب أضن بتمرته ووجدت العلم ببغداد أكثر من الحصى عند جمرة العقبة . وأرخص من الصيحانى بالجابرة . وأمكن من الماء بخضارة وأقرب من الجريد (٢) باليمامة . ولكن على كل خير مانع . ودون كل درة خرساء موحية (٣) أو خضراء طامية » (٤)

وتفسير هذا النص — مع مقابلته بالنصين السابقين عليه — يوضح أن هدف أبي العلاء من تركه بلده والتوجه الى بغداد كان لحاجة فى نفسه ، وهذه الحاجة لم تكن فقط لمقام ببغداد من الناحية العلمية ، أو لوجود دار الكتب بها ، أو التعلم على أيدى أساتذتها ، قد يكون هذا أحد الأسباب ولكن ليس الهدف الوحيد فها هو ذا يذهب ويعود ليشكو مما لاقاه هناك . وكيف أن الخير كثير ومنشور ، ولكن الناس يحرصون عليه كل الحرص ويحبسونه عن غيرهم ، واستبدت بهم الأثرة حتى منعوا غيرهم من الفائدة .

ويرى الدكتور شوقى ضيف أنه سافر الى بغداد ليعرض ذكاءه وعلمه ويتفرج على عاصمة الحضارة والثقافة العربية ، ويؤيده فى هذا قول أبى العلاء :

كلفنا بالعراق ونحن شرخ   فلم نلمم بها إلا شيوخا

---

(١) والكراع مستدق الساق والعبارة مأخوذة من المثل : أعطى العبد كراعا فطلب ذراعا — رسائل المعرى ط بيروت سنة ١٨٩٦

(٢) الصيحانى : ضرب من تمر المدينة أسود صلب المضغة
الجابرة : اسم لمدينة — كما فى القاموس . وليست فى معجم ياقوت
خضارة : علم للبحر
الجريد : سعف النخل وهو كثير باليمامة وقصير الساق

(٣) خرساء : سحابة ليس فيها رعد ولا برق وهى تمنع من النقاط الدر موحيه : معجلة
خضراء طامية : لجة مرتفعة .

(٤) رسائل ابى العلاء المعري ص ٣٠ ط اكسفورد — مرجوليوث ص ٧٣ ، ٧٤ ط بيروت

ولكنه لم يلق هناك ما كان يحلم به من علم وثقافة ورجال، وبعد أن درس حال الناس فى بغداد — وهم قمة رجال عصره فى نظره — عاد يائساً حزينا وعزم على العزلة .

وترجع بعض الروايات أسباب رحيله إلى بغداد ، بأن عامل حلب ظلمه فى وقف كان يدر عليه ما يقتات به ، فأزمع الرحلة إلى بغداد ليرفع شكايته هناك

ولم يكن من ذوى الأحوال فى الدنيا ، وإنما خلف له وقف يشاركه فيه غيره من قومه . وكانت له نفس تشرف عن تحمل المنن ، فمشى حاله على قدر الموجود .

فاقتضى ذلك خشن الملبس والمآكل ، والزهد فى ملاذ الدنيا . وكان الذى يحصل له فى السنة مقدار ثلاثين دينارا ، قدر منها لمن يخدمه النصف ، وأبقى النصف الآخر لمئونته . فكان أكله العدس إذ أكل مطبوخا ، وحلاوته التين ، ولباسه خشن الثياب من القطن، وفرشه من لباد فى الشتاء، وحصيرة من البردى فى الصيف وترك ما سوى ذلك . ولما عورض فى الوقف المذكور بيد بعض نواب حلب ، سافر الى العراق شاكيا ذلك ، فى سنه تسع وتسعين وثلاثمائة (١)

غير أن بغداد لم تكن لتملك شيئا فى شئون حلب التى تسلط عليها فى ذلك الوقت لؤلؤ الكبير أحد غلمان سيف الدولة، ومن بعده منصور بن لؤلؤ الذى كان ظالما عسوفا ، فأبغضه الحلبيون وهجوه هجاء كثيراً(٢) وكانت حلب أميل ما تكون الى جانب العبيديين فى مصر ،وكانوا يمثلون القوة المناوئة لبغداد، فليس من المعقول ذهاب أبى العلاء الى بغداد للشكاية ، ولو أتى الى مصر لكان محقا فى رحلته إذا كانت بسبب ظلامة يريد رفعها لمن يملك سلطة الأمور فى الشام .

---

(١) القفطى : انباه الرواة لى أنباء النحاة ص ٣١ (تصريف) .
(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ص ١٩٨ .

وقد استقبله البغداديون بالحفاوة والترحاب أول الأمر، وقرىء عليه ديوانه سقط الزند، وقصد مجلس الشريفين الراضى والمرتضى، غير أن الملاحظة الجديرة بالاهتمام هى اختلاطه بعامة بغداد وشعبها، وهذه الناحية أهمل الباحثون ذكرها عنه، اذ أن الباحثين يركزون على مدحه للخليفة القائم الذى لم يكن يملك من أمر نفسه شيئاً وكان :

خليفـــة فى قفـص　　　بين وصيف وبغـــا
يقول ما قالا لـــه　　　كما تقـــول الببغـا

وكذلك كان اشراف بغداد وسادتها لعبة فى أيدى الجنود من الأتراك والديلم وكان أكثرهم حسباً وأرفعهم نسباً لا يرفع قامته أمام صغار بنى بويه ولذلك فان الحديث عن لقاء المعرى بسادة بغداد كما يهتم مثقفو العصر الحاضر ودارسوه مثل عبد العزيز الميمنى والدكتور طه حسين وعائشة عبدالرحمن وغيرهم أمر يخالف منطق الحوادث، وما كانت عليه بغداد من انهيار تام فى كافة مرافقها كما أسلفنا فى الحديث عن الحياتين الاقتصادية والسياسية.

وفى ظنى أن أبرز ما فى بغداد هو اللقاء الذى حدث بين المعرى وبين شعب بغداد بين المفكر وبين العامة الذين يقاسون من شتى ألوان الاضطهاد. بين العالم الفقير، وبين عشرات الألوف من الفقراء المجهولين. فسمع اناتهم، وعرف من أفواههم ما لم يعرفه من الكتب التى قرئت عليه فى بغداد.

« أنه لما ورد بغداد مدح القائم بقصيدة، فاستهجن البغداديون شعره وقالوا فيه برودة العجم، فانتقل إلى الكرخ وسكنها، وخالط فضلاءها وسوقتها مدة، وتخلق بأخلاقهم واقتبس من اصطلاحاتهم، ثم أنشأ قصيدة فاستحسنوها وقالوا: تغير شعره ورق طبعه » (١).

---

(١) عبد العزيز الميمنى الراجكوتى : أبو العلاء وما اليه ص ١١٤ .

وكان أبو العلاء يحتقر سادة بغداد بقدر ما كان يجل شعب بغداد . فهذا هو الشريف المرتضى ينتقص من قدر المتنبى امامه ، فما كان من أبى العلاء الا أن قال له : لو لم يكن للمتنبى من الشعر إلا قوله « لك يا منازل فى القلوب منازل » لكفاه فضلا ؟ ، وغضب الشريف المرتضى ، وأمر بطرده من مجلسه لأنه أدرك ما وراء هذه المدحة ، لقد أدرك أن أبا العلاء يكن له احتقاراً يعبر عنه بيت المتنبى :

وإذا أتتك مذمتى من ناقص　　　فهى الشهادة لى بأنى كامل

ان هذا الموقف يحمل أكثر مما فهمه دارسوه من أنه مجرد تعصب أبداه أبو العلاء لاستاذه المتنبى ، ولكن ما وراء هذا الموقف هو عدم مبالاة الشاعر بهؤلاء السادة المصنوعين من الورق ، والذين لا قيمة لهم وسط التيارات الغريبة التى تعصف بالدولة الاسلامية .

كما اصطدم ابو العلاء هناك ببعض العقليات الشاذة مثل على بن عيسى الربعى الذى نعته بالاسطبل أى الأعمى ، ومثل الخلاف الحاد الذى صار بينه وبين الفقهاء ببغداد ، لانه سأل سؤالا بشعر ، يدل على قلة دينه وعلمه وعقله ، فقال :

تناقض مالنا إلا السكوت له　　　وأن نعوذ بمولانا من النار

يد بخمس مئين عسجد وديت　　　ما بالها قطعت فى ربع دينار

وهذا من أفكة . يقول: اليد ديتها خمسمائة دينار، فما لكم تقطعونها إذا سرقت ربع دينار ؟ وهذا من *قلة عقله وعلمه* ، وعمى بصيرته . وذلك أنه إذا جنى عليها يناسب أن يكون ديتها كثيرة ، ليزجر الناس عن العدوان . وأما إذا جنت هى بالسرقة فيتناسب أن تقل قيمتها وديتها ، ليزجر الناس عن أموال الناس ، وتصان أموالهم . ولهذا قال بعضهم (١) : كانت ثمينة لما كانت أمينة ، فلما خانت ،

---

(١) هو القاضى عبد الوهاب المالكى (تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ١٥١) .

هانت. ولما عزم الفقهاء على أخذه بهذا وأمثال هرب ورجع إلى بلده ، ولزم منزله فكان لا يخرج منه » [١] .

فكانت حياته فى بغداد صراعا ضد عناصر كثيرة : السادة الاشراف، والفقهاء والعلماء ، والشعراء الذين يخشون غلبته . وجهلاء لا يقدرونه حق قدره .

ولذلك فان رسائله إلى خاله أبى القاسم على ابن سبيكة عند طلوعه من العراق تنضح بالمرارة والالم ، ولعل ما زاد مرارتها وآلامها موت أمه ، فيقول :

« على إنى والله قد أعلمتها إنى مرتحل وأن عزمى على ذلك جاد مزمع فأذنت فيه . وأحسبها ظنته مذقة الشارب [٢] ، ووميض الخالب . ولكل أجل كتاب . وحزنى لفقدها كنعيم اهل الجنة. كلما نفد جدد وشرحه املال سامع وإفناء زمان» [٣]

والحق يقال عند المعرى دائما ، ان البغاددة قد حزنوا لفراقه ، واظن هذه الدموع هى لجيرانه من العامة الذين اكرموا وفادته بقدر ما يملكون وحزنوا لرحيله وما كانو يملكون الا الاسف والدموع ايضا .

« ورعاية الله شاملة لمن عرفته ببغداد . فلقد افردونى بحسن المعاملة وأثنوا على فى الغيبة . واكرمونى دون النظراء والطبقة . ولما انسوا تشميرى للرحيل ، واحسوا بتأهبى للظعن . اظهروا كسوف بال . وقالوا من جميل كل مقال . وتلفعوا من الأسف ببرد قشيب . وذرفت ع ـن أشياخ [٤] شيب [٥] » .

ويعلق أبو العلاء على هذا الوداع الرائع بأنهم ان كانوا صادقين فى هذا الشعور

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ص ١٠٣ ، ٣٠٢ ، يلاحظ حدة ابن كثير فى مناقشة بيق ابى العلاء وهذا يرجع الى اعتقاده بأن أبا العلاء يتجرأ على الدين واحكام الشريعة .

(٢) كناية عن عدم تحقق ظنها بسفره فظنت كلامه من باب المزح

(٣) رسائل أبى العلاء المعرى ، ص ٢٩ — (مرجوليوث) ص ٦٩ — بيروت .

(٤) أشياخ شيب (ط مرجوليوث)

(٥) رسائل أبى العلاء المعرى : ص ٣١ (مرجوليوث) ، ص ٧٦ بيروت

الجارف الذى أظهروه نحوه فهو منة عظيمة وان كانوا ينافقون، ويظهرون خلاف ما يضمرون فانها عشرة طيبة على الوجهين ويدعو الله لهم بالحفظ شكراً وامتنانا لفضلهم عليه :

« ... والله يحسن جزاءهم . إن كان ما فعلوه حفاظا فهو منة عظيمة، وإن كان نفاقا فهو عشرة جميلة »[1] .

غير أن الملاحظ أن أبا العلاء ينفق جهداً كبيراً فى نفى أن المال كان سببا من أسباب رحلته إلى بغداد كما رحل ذو الرمة من قبل طلبا للرفد والعطاء :

وإنى تيممت العراق لغير ما   تيممه غيلان عند بـــلال

وقد غادر العراق لست بقين من رمضان سنة ٤٠٠ هـ على طريق الموصل وميافارقين بقلب كسير لفقد أمه التى بكاها بعمق وحرارة ، ولفقر أخذ يشدد قبضته عليه :

أثارنى عنكم أمران : والدة   لم ألقها ، وثراء عاد مسفوتا

وعاد الى معرة النعمان ، وتجربة بغداد أمامه بكل أبعادها الأليمة ، فما لبث ان تحسس طريقا جديداً لحياته هو : طريق العزلة الجسدية عن العالم ، والتفرغ التام التأملات والفكر الثاقب النافذ المجتمع والحياة .

د — عزلته الجسدية :

عاد المعرى من رحلته البغدادية — التى أخفق فى تحقيق آماله فيها — وهو يدرك فساد الحياة وفساد الناس ، وأنه من الخير له أن يعتزل المجتمع ، وأن يقبع فى داره ، يفكر وينظر من برجه العاجى على أمواج البشر المتلاطمة التى تتطاحن وتتحارب ، من أجل المطامع الدنيوية .

---

(١) نفس المصدر السابق .

ويبدو أن فكرة العزلة قد خامرته قديما قبل أن يرحل الى بغداد. فهو يكتب الى أهل المعرة عند منصرفه من بغداد يرجو منهم ألا يطرقوا بابه ، وأن يتركوه وشأنه فى منعزله : «بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب الى السكن المقيم بالمعرة ، شملهم الله بالسعادة ، من احمد بن عبد الله بن سليمان ، خص به من عرفه وداناه ، سلم الجماعة ولا أسلمها ، ولم شعثها ولا آلمها . أما الآن فهذه مناجاتى إياهم منصرفى عن العراق مجتمع اهل الجدل ، وموطن بقية السلف بعد أن قضيت الحداثة فانقضت ، وودعت الشبيبة فمضت ، وحلبت الدهر أشطره وجربت خيره شره . فوجدت أوفق ما أصنعه فى أيام الحياة عزلة تجعلنى من الناس كبارح الاروى من سانح النعام . وما ألوت نصيحة لنفسى . ولا قصرت فى اجتذاب المنفعة الى حيزى ، فأجمعت على ذلك واستخرت الله فيه بعد جلائه على نفر يوثق بخصائلهم فكلهم رآه حزما . وعده إذا تم رشدا (١) . فهو يدعو لأهل معرة النعمان بأن يلم الله شعثهم ، وهذه الدعوة تظهر ما فى نفس المعرى من أمان أن ينبذ المسلمون الخلاف فيما بينهم وأن يجتمعوا على الحق كلمة واحدة ، ورأيا واحدا . ثم يناجيهم ، والمناجاة لا تكون إلا للاحباء والاصدقاء والأقرباء ، وكان أهل المعرة جميعا قد أصبحوا هذا الصديق الذى يفتح قلبه للصديق ، ويطلعهم على مكنون سره بعد أن ودع العراق وودع الشباب ، وعرف تجارب الحياة ، وجرب مرها وحلوها فلم يجد بعد ذلك خيراً من البعد عن الناس والاجتناب عنهم ، وهو يرى فى ذلك منفعة لنفسه ولقد عقد العزم على هذه العزلة بعد أن أمعن النظر فيها وبعد أن استشار من يوثق فى رأيهم فأيدوه فى ذلك وعدوا رأيه حزما ورشدا .

وكانت فكرة العزلة قديمة فى نفسه ، ولكن رحلة بغداد جعلتها تخرج نحو حيز التنفيذ العملى ، كانت فكرة فأصبحت الآن تطبيقا . ولعل حياة المعرى الخاصة كانت توحى بهذه العزلة ، ولكن إقبال الناس عليه ، وحبهم لعلمه ومجالسته والتدارس معه جعله غير قادر على تنفيذ ما يريده من بعد عن المجتمع وانفصال عنه ، فلما ترك بغداد أرسل إلى أهل بلده يطالبهم بأن يكفوا عن زيارته فى مسكنه ،

---

(١) رسائل أبى العلاء المعرى (ط مرجوليوث) ص ٣٤ .

لأنه لا يريد أن يجمع بين سوء الأدب حين يرد زائره خائبا ، وسوء القطيعة حين يغادر صومعته ولذلك فهو يقول عن أمر العزلة إنه : ليس نتيج الساعة ، ولا ربيب الشهر والسنة . ولكنه غذى الحقب المتقادمة وسليل الفكر الطويل . وبادرت أعلامهم بذلك مخافة أن يتفضل منهم متفضل بالنهوض إلى المنزل الجارية عادتي بسكناه . ليلقاني فيه فيتعذر ذلك عليه ، فأكون قد جمعت بين سمجين ، سوء الأدب وسوء القطيعة »(١) .

وبدأ المعرى مرحلة جديدة من العزلة عن الناس ، أراد بها أن يغير شكل حياته وأن يترك العالم كما يترك الفرخ البيضة ، ويجلس فى منعزلة لا يرحل عنه حتى ولو هاجم الـــروم البلدة وفر الناس جميعا وأبوا إلا أن يأخذوه معهم فسيكون بئس الفرار ، كفــرار الظبي من صائده ، أى أنه سيكون مضطراً حينئذ للخضوع لرأى الأغلبية وإن كان يفضل المكوث فى داره ، ليبدأ مرحلة خلاصه من هذا العالم :

« ورب ملوم لا ذنب له [illegible] خل امرأ وما اختاره وما سمحت القرون (٢) بالإياب . حتى [illegible] كنبذة فنيق النجوم (٣) . وانقضابا من العالم كانقضاب [illegible] فى البلد إن حال(٥). أهله من خوف الروم. [illegible] القوة مع السواد(٦)

---

(١) رسائل أبي [illegible]

(٢) القرون [illegible]

(٣) يعنى أنه يطرح [illegible]
من الأرض .

(٤) القائبة : البيضة ، والقوب : الفرخ

(٥) ذهب الى مكان آخر .

(٦) الذهاب مع عامة أهل البلد .

كانت نفرة الاعفر أو أدماء (١) (٢).

ولم يأمن المعرى شر الناس وهو فى عزلته تلك ، ترك الدنيا فما تركوه ونبذ المطامع ولكنهم لم ينبذوه ، وكان الطلاب يقصدون داره للعلم، كما كان أهل المعرة يلجئون اليه فى ملماتهم مثلما حدث فى حصار صالح بن مرداس الكلابى لهم ، فهرعوا إلى الشيخ الجليل لينقذهم من جوع الحصار ، ودمار الحرب ، ويصف القفطى مشهد خروج أبى العلاء الى جيش صالح الذى يحاصر البلدة ، بقوله :

ان صالح بن مرداس صاحب حلب ، خرج إلى المعرة وقد عصى عليه أهلها، فنزل عليها ، وشرع فى قتالها ، ورماها بالمناجيق . فلما أحس أهلها التغلب سعوا إلى أبى العلاء ، وسألوه الخروج اليه والشفاعة فيهم عنده ، فخرج متوكئا على يد قائد له. وقيل لصالح: إن باب المدينة قد فتح ، وخرج منها رجل يقاد كأنه أعمى فقال صالح : هو أبو العلاء ! بطلوا القتال ، إلى أن نرى فى أى أمر جاء . فلما وصل إلى الخيمة أذن له ، وأكرمه عند دخوله عليه ، وعرفه شوقه إلى نظره ، ولما استقر بمجلسه قال له: ألك حاجة ؟ فقال له أبو العلاء: الأمير — أطال الله بقاه — كالسيف القاطع ، لان متنه وخشن حداه ، والنهار الماتع (٣) ، قاظ وسطه وطاب أبرداه (٤) . (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين) . فقال له صالح : قد وهبتها لك يا أبا العلاء . ثم قال له صالح أنشدنا شيئاً من شعرك يا أبا العلاء لنرويه عنك ، فأنشد ارتجالا فى المجلس : (٥).

تغيبت فى منزلى برهة   ستير العيوب فقيد الحسد

---

(١) نفرة الاعفر : شروده وهو الظبي الذى يعلو بياضه حمرة ، والادماء: الظبية.

(٢) رسائل أبي العلاء المعرى ص ٨٢ بيروت ص ٣٥ اكسفورد .

(٣) متع النهار : ارتفع النهار

(٤) الابردان : الغداة والعشى

(٥) القفطى : انباه الرواة عن أنباه النحاة ص ٣٥ ، ٣٦ (بتصرف) .

فلما مضى العمر إلا الأقل وحم لروحى فراق الجسد
بعثت شفيعا إلى صالح وذاك من القوم رأى فسد

وهكذا أنقذ أبو العلاء المعرة من تدمير صالح لها ، فقد وهبها له وفك الحصار عنها ورحل . كما أفرج عن أشياخها المعتقلين . ولكن أبا العلاء بتواضع العالم ينكر أن له فضلا على أهل بلده ، فالفضل فضل الله تعالى :

نجى المعرة من براثن صالح رب يداوى كل داء معضل
ما كان لى فيها جناح بعوضة الله ألحفهم جناح تفضل

وكانت عزلة أبى العلاء جسدية فقط ، فهو لم يكن رهين المحبسين لأن ذلك لم يكن ميسوراً له على الاطلاق ، فحياة العلم والتأليف تحتاج الى معاشرة ، الطلاب والدارسين ، وتحتاج أيضا إلى مداومة الاطلاع والبحث ، وكان أبو العلاء محاطا بكوكبة من المريدين المخلصين ، كما كان محاطا بنجوم تواليفه ومصنفاته يقول الدكتور طه حسين فى ذلك ذلك :

« والحق أن العزلة التامة لم تكن ميسورة لأبى العلاء ، وإنما كانت أمنية ضائعة فإنه وإن زهد فى كل لذات الحياة ، لا يستطيع أن يزهد فى العلم والتأليف اللذين قد ملكاه واستأثرا به ، وكلاهما يكلفه عشرة الناس لإحتياجه إلى من يقرأ له ويكتب عنه. لذلك لم يلبث بعد استقراره بالمعرة أن اشتغل بالتعليم ، فالتف حوله الطلاب ، وأخذوا يدرسون عليه اللغة وآدابها ، وما هو إلا الزمن القليل حتى كثر سوادهم حوله. ثم لم تمض على هذا الحال أعوام حتى أخذ الناس يزورونه ويكتبون اليه، فاستحالت عزلته الى أشد أنواع المعاشرة. على أنه لم يأسف لفوات هذه العزلة، لأنه وان كان كثر اختلاطه بالناس فإنه لم يصله بهم الا العلم، وليس فى العلم ما يؤذيه أو يسوؤه »[1] . فالأستاذ العميد يصور كيف اتسعت حلقة

---

(١) د . طه حسين : تجديد ذكرى أبى العلاء ص ١٥٨ .

الدرس حول المعرى حلقة بعد حلقة ، مثلما يحدث حين نلقى حجرا فى الماء ولقد كان المعرى فى المجتمع ذا أثر بالغ فى التيارات الفكرية والأدبية .

ولهذا السبب كثر الحاقدون عليه ، ونفثوا سمومهم حوله ، وكانوا يطرقون بسهامهم المسمومة أبواب عزلته، فتارة يرمونه بالتعطيل والكفر والزندقة، وتارة يرمونه بالترويج للأفكار الهادمة للمجتمع الاسلامى وانقسم الناس فى شأنه بين منكر ومؤيد ولكنه كان كما يقول أستاذه المتنبى :

أنام ملء جفونى عن شواردها ٠ ويسهر الخلق جراها ويختصموا

وكأن الناس لم يرضهم أن ترك لهم لذائذ الحياة ، وطلق مطامعها كما يقول ابن فضل الله العمرى : [١].

«رفض الدنيا وما سلم ، وفرض غاياتها فعمل بما علم ، وتداوى باليأس من مطامعها وداری الناس بترك حظه لهم ، ومع هذا ظلم . نفض يديه من الدنيا وساكنها ،وخفض لديه قدر محاسنها ، وانقطع فى بيت كان له بالمعرة لايخرج منه إلا إلى مسجده ، ولا ينهج طريقا إلا إلى تهجده؟ وأخذ نفسه بالقناعة حتى صارت جنة تقيه المطامع ، ومنة تقويه على مغالبة الأمل الطامع . . . »

وكان أبو العلاء وهو فى منعزلة يغلى بالثورة الفكرية ، ويقلب النظر فى أحوال البشر ، ويرى ماحل بدولة المسلمين من ضعف شديد ، فيأسى ويعبر عن هذا الأسى بسلسلة من الأفكار الواضحة حينا والغامضة أحيانا، وكان مظهره الساكن الساكت يخالف مضمونه الثائر الغاضب . وكما يقول الدكتور طه حسين :

« فقد إضطربت حياته العقلية أشد الاضطراب ، وهدأت حياته العملية أشد الهدوء ، وكان هذا التناقض بين الحياة العملية الهادئة الراكدة والحياة العقلية الثائرة

---

(١) ابن فضل الله العمرى : مسالك الابصار فى ممالك الامصار ص ٢١٧ تعريف

الجامحة ، مظهر شذوذ أبى العلاء ، ثم مظهر نبوغه وتفوقه وإمتيـازه على كل من انتجت الحياة العقلية الأسلامية من الفلاسفة والشعراء »(١)

ونظرة واحدة على سلسلة مؤلفاته تظهر المدى الذى وصل اليه المعرى فى ثرائه الفكرى ، وإهتمامه بما يدور حوله من أحداث المجتمع وأن انعزاليتـه لم تك إلا عزلة جسدية فقط .

« قال الشيخ أبو العلاء رضى الله عنه : لزمت مسكنى منذ سنة أربعمـائة وأجتهدت أن أتوفر على تسبيح الله وتحميده ، الا أضطر الى غير ذلك ، فأمليت أشياء ، وتولى نسخها الشيخ أبو الحسن على بن عبدالله بن أبى هاشم ، أحسن الله معونته ، فألزمنى بذلك حقوقا جمة ، وأيادى بيضاء ، لأنه أفنى فى زمنـه ، ولم يأخذ عما صنع ثمنـه . والله يحسن له الجزاء ، ويكفيه حوادث الزمن والأرزاء »(٢)

ثم يستعرض ياقوت بعد ذلك سلسلة مؤلفاته وهى كثـيرة تدل على ثقـافة موسوعية شاملة لكل جوانب الفكر المعروفة آنذاك ، فكتاب الفصول والغـايات يجمع الكثير من المظات ، وقد أتهمه الكثيرون بالكفر بسبب هذا الكتاب الذى قيل أنه الفه ليعارض به القرآن الكريم ، ووصف ابن الجوزى الفصول والغايات بقوله : « وقد رأيت المعرى كتابا سماه « الفصول والغايات » يعارض به السور والآيات . وهو كلام فى نهاية الركة والبرودة . فسبحان من أعمى بصـره وبصيرته ؟ وقد ذكره على حروف المعجم فى آخر كلماته »(٣)

غير أن المعرى قد بدأ فى تأليف هذا الكتاب قبل رحيله الى بغداد — أى قبل العزلة — وأ كمله بعد عودته وازماعه التفرد فى صومعته ، وهو لم يكن ملحـداً

---

(١) د . طه حسين : المعرى ، اشاعر أم فيلسوف ؟ الهلال ٨ - ٤ - ١٩٣٨ .
(٢) ياقوت الحموى : ارشاد الاريب الى معرفة الاديب ص ١٠١ (مرجف)
(٣) ابن الجوزى : المنتظم ص ٢١ (تعريف)

على الاطلاق وانما أراد أن يصوغ للناس مجموعة من الحكم والمواعظ سهلة الأسلوب جيدة السبك ليسهل حفظها عنه ، وقيل أنه بدأ بهذا الكتاب قبل رحلته الى بغداد، وأتمه بعد عوده الى معرة النعمان ،[١]

والكتاب المعروف بالايك والغصون وهو فى المواعظ وذم الدنيا ايضا ، ولم يؤثر ان يؤلف شيئا فى غير العظات والحث على تقوى الله فأملى هذا الكتاب[٢] ، وكتاب « سيف الخطبة » يشتمل على خطب السنة . فيه خطب للجمع والعيدين والخسوف والكسوف ، والاستسقاء ، وعقد النكاح ، وكان سأله فى هذا الكتاب رجل من المتظاهرين بالديانة ، فصنف له[٣]

وكتاب « سجع الحائم » وجعل مايقوله على لسان الحامة فى العظة والحث على الزهد وكتاب يعرف بلزوم مالا يلزم، أعقبه بكتاب زجر النابح يتعلق بلزوم مالا يلزم يريد بها التشرير والاذية ، فألزم أبا العلاء أصدقاؤه أن ينشىء هذا ، فأنشأ هذا الكتاب وهو كاره[٤] فقدكان أبو العلاء مضطراً الى أن ينافح عن ارائه وهو فى منعزلة وأن يتصدى لهاجميه الذين يحاولون النيل منه ومن دينه وأن يوردوه موارد الهلاك . وله كتاب آخر ، لطيف يعرف بخماسية الراح وهو فى ذم الخمر ، وكتاب اللامع العزيزى فى شرح شعر المتنبي . وهناك أيضا رسالة الغفران التى ألفها قرابة سنة ٤٣٢ ، أو ٤٢٤ هـ كما يقول نيكلسون[٥] وتعتمد عليه عائشة عبد الرحمن[٦] وهى رسالة حافلة بالرمز والنقد الاجتماعى .

---

(١) ياقوت الحموى : ارشاد الاريب ص ١٠٢ (تعريف) .

(٢) نفس المصدر ص ١٠٣

(٣) نفس المصدر ص ١٠٣

(٤) نفس المصدر ص ١٠٥

The date of the Risala is fixed at 424 A. H. by the following (٥) sentence which occur in a passage denying the possibility prediction (Jh, A, S. p. 460).

(٦) عائشة عبد الرحمن : الغفران ص ٨

ونتيجة هذا العرض أن المعرى كان يحمل بين جوانحه عدة عوامل ذاتية تدعوه الى نقد المجتمع أولها ماقوبل به من كف البصر وشعوره بأنه ناقص وقد دعاه هذا الى أن يكون حاد الذاكرة أو أن الله تعالى عوضه عن هذا النقص وقد أثرت هذه فى سلوكه وعلاقاته بالناس كما جعلته شديد الحساسية يغضب لأقل بادرة تهينه أو تنقص من قدره . وقد قصد بغداد علّه يجد فيها مالم يجده فى معرة النعمان من المجد الأدبى والمجد المعنوى (فلا مجد فى الدنيا لمن قل ماله) ولكنه لم يفز ببغيته وقوبل بالعطف والحب من العامة ، وبالحرب المعنوية من الخاصة كما آلمه الزمن بفقد أمه العزيزة الغالية فبكاها أمر بكاء ، وعاد الى المعرة صفر اليدين ، ولكنه أراد الاعتزال وأن يضع نفسه فى محابسه اختيارا وشغل نفسه بالتأليف والبحث والتفكر فى أحوال الدنيا . ولكن ذلك لم يدم طويلا لأن رواد العلم كانوا يقتحمون عليه عزلته ، ويطوقونه بتقديرهم لشاعر وهب نفسه للعلم وطالبيه .

الفصل الثاني

النقد السياسى

يشكل النظام السياسى فى اى عصر فلسفة معينة يقوم عليها . وبالقدر الذى تكون عليه عدالة هذه الفلسفة او جورها بالنسبة للشعب ، يكون موقف المفكر والاديب المخلص ، الذى يأخذ جانبا ، بجوار شعبه وغالبية امته .

وكان النظام الاقطاعى حجر الزاويه فى النظام السياسى القائم فى القرنين اللذين عاصرهما ابو العلاء . وكانت الأرض مقسمة بين الحاكم والأمراء وقادة الجند، بينما كان للعامة الفتات من القطع الصغيرة المزروعة. وبعض الاعمال الشاقة الاخرى، ومزاولة الحرف الصناعية اليدوية ، وكان السعيد منهم هو الذى يستطيع الانخراط فى سلك المحاربين لعله يصل بجرأته وانتهازيته الى المناصب الرفيعة . كما كان علماء الدين والقضاء والفقهاء يتمتعون بمركز سام رفيع وكان هذا الطريق لايسلكه إلا النابهون فى تلك العلم ، كما كان الكثيرون يقومون بجانب التأليف والدرس بمزاولة الحرف اليدوية ليقتاتوا منها . فلم يكن العلم — فى أغلب الأحيان — بضاعة رائجة يكتسب بها. ولذلك كان هم الكثيرين من العلماء ينصرف إلى محاولة البحث عن الرزق ، وكان الشعراء يجدون فى باب المديح سبيلا إلى إستنزاف ثروات الأغنياء ، بينما ظل بعض الشعراء حريصا على نزاهة الكلمة ومترفعا عن التكسب بالشعر .

وكان أبو العلاء المعرى من هذا النفر من الناس الذين نفروا من الحياة ونظروا اليها نظرة التفحص والتدقيق والدرس ، حتى وهم بعض الباحثين وعدوه فيلسوفا صاحب فكرة ورأى ومنهج، وأبتعدوا به أحيانا عن دائرة الشعر ليضعوه فى دائرة الفلسفه. ورد الدكتور شوقي ضيف علي أولئك الذين يزعمون بأنه فيلسوف

من أمثال نكيلسون وهيار ، فيقول :(١)

(كان أبو العلاء برما بالحياة وكان يراها سلسلة الام ، فأكثر من نقـــدها ونقد الذين يعيشون فيها ، واعجب بعض الناس هذا النغم الذى يردده ابو العلاء وراعهم أنه كان صاحب عقل حر بالنسبة لأهل عصره فهو يهاجم الناس والأديان ، فذهبوا إلى أنه كان فيلسوفا ، وحشروه فى زمرة الفلاسفة ، ومن العجب أن نجد مثل نيكسون وهيار يذهبان هذا المذهب ، وليس لرأيهما ولا لمن تبعهما أى دليـل على هذه الفلسفة إلا إذا كنا نعد كل زاهد يدعو إلى الزهـد والتقشف فى الحيـاة فيلسوفا » .

والرأى فيما يذهب اليه أستاذنا شوقى ضيف أن أبا العلاء كان صاحب نظرة لا صاحب فلسفة ، ولم تكن له نظريه متكاملة — كما سنرى — فى نقده نستطيع أن نقيم منها هيكلا كاملا بحيث تنسب اليه ، ويصبح هو علما عليها . إنما هى تأملات شاعر مفكر .

وكان أبو العلاء ذا بصيرة نافذة ، يرى كل مايجرى حوله من الحوادث السياسية الخطيرة فيسجلها ، ويطرقها فى موعظة أو مثل ، أو نقد يوجهه للحكام على تصرفاتهم ، فلم يكن المعرى بعيداً عن الحياة السياسية لانه سجن نفسه سجنا إختياريا ، بل كان يعيش كل دقائق تلك الحياة كما يقول زكى المحاسنى . « ولست أرى أبا العلاء فى مز... ن السياسة . فان كل نأمة من نأمات عصره كانت تقع اليه فيسكبها فى خواطره الشعرية . فلزومياته أصدق شاهد على ذلك ففيها ذكر اكثر الحوادث التى جرت فى زمانه ، وكان معول السياسة عليها من مشارف الشام إلى ارض مصر ومن حلب الى العراق »(٢)

واول مانلمحه من خط سياسى لابى العلاء هو مايذكره فى مقدمة سقط الزند

---

(١) د . شوقى ضيف : الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ص ٣٨٨ .
(٢) زكى المحاسنى : أبو العلاء ناقد المجتمع ص ٦٦ .

من أنه نبا بنفسه من أن يكون ذيلا لحاكم أو تابعا لأمير، ولذلك فقد ترفع بشعره عن أن يكون دعاية لأحد، أو إشادة بعظيم :

« ولم أطرق مسامع الرؤساء بالنشيد، ولا مدحت طالبا للثواب، وإنما كان ذلك على معنى الرياضة، وإمتحان السوس(١). فالحمد لله الذى ستر بغفة(٢) من قوام العيش، ورزق شعبة من القناعة أوفت بى على جزيل الوفر »(٣)

ويدرك البطليوسى فى مقدمة شروح سقط الزند ما يحتويه هذا الديوان من معان بعيدة ومرام خافية، وما يحتويه من نماذج للآراء والمذاهب المختلفة :

« ولعمرى أنه لشعر قوى المبانى، خفى المعانى، لأن قائله سلك به غير مسلك الشعراء، وضمنه نكتا من النحل والآراء، وأراد أن يرى معرفته بالأخبار والأنساب وتصرفه فى جميع أنواع الآداب، فأكثر من الغريب والبديع ومزج المطبوع بالمصنوع فتعقدت ألفاظه وبعدت أغراضه »(٤)

ويحتوى سقط الزند على نقد مباشر للأحوال السياسية والاقتصادية لذلك العصر، ولعل ما لقيه الناس من شدة غير أخلاقهم، وجعلهم يؤثرون مصالحهم الذاتية ويبدون طباع العربى الأصيلة من الكرم والجود وإغاثة الملهوف وغير ذلك من صفات الصحراء الحيدة، غير أن بعض الأمراء فى الشام قد صان هذه الأخلاق، وجعل من نفسه درعا يحمى المسلمين فى أوقات شدتهم العصيبة، ولعل هـذه هى صورة الأمير العربى الذى ينبغى أن يكون عليه بقية الأمراء(٥):

---

(١) السوس : الطبيعة

(٢) غفة : بلغة

(٣) خطبة سقط الزند لابى العلاء ص ١٠

(٤) البطليوسى : مقدمته لشرح سقط الزند ص ١٥ .

(٥) سقط الزند (سفر ثان قسم أول) ص ٨٤ — ١١١

صحبنا بالبدية[1] فى شتـــاء ... وحل شر من صحب الرجالا
إذا سقيت ضيوف الناس محضا[2] ... سقوا أضيافهم شبها زلالا
ولكن بالعواصم من عدى ... أمـــير لايكلفنا السؤالا
حفظت المسلمين وقد توالت ... سحائب تحمل النوب الثقالا
وصنت عيالهم إذ كل عين ... تعد سواد ناظرها عيالا
بوقت لا يطيق الليث فيه ... مساورة ولا السيد إختتالا[3]

وكان البحث عن رجل عربى صحيح العروبة قد أقض مضجع أبى العلاء كما اقض مضجع المتنبى من قبل ، وكان وجود ذلك الامير العربى الذى يتحلى بالشيم العربية الاصيلة شيئا شحيحا فى عصر كثرت فيه المطامع والاهواء وانمحت فيه الملامح العربية او كادت لكثرة العناصر الدخيلة التى حملت معها ادران الدخلاء. ويربط ناجى بين آمال المتنبى وامال المعرى فى قوله[4]

« والمتنبى كان جبارا تام الرجولة ، وأبو العلاء كان كفيف البصر . فأقعدته هذه العله عن السير فى السبيل الذى طرقه المتنبى لبلوغ أمانيه ، وان كانت المرامى البعيدة والأوطار الكبيرة هى هى عند كليهما . وليس ذلك بغريب فى عصر كان الناس فيه فى حاجة الى « رجل » . بل الاصح الى « رجل عربى » صحيح العروبة يدرأ عن الاسلام الفرس والروم والديلم والفاطميين وغيرهم وغيرهم .

أقول « صحيح العروبة » ، فقد كثر المتعربون والمستعربون وصار العـــرب الحقيقيون يسكنون جزءا صغيرا منعزلا عن البادية .. »

وها هو ذا المعرى يمدح أبا الفضائل سعيد بن شريف بن على بن أبى الهيجاء

---

(١) البدية : موضع بالشام
(٢) محضا : لبنا خالصا .
(٣) السيد : الذئب
(٤) ابراهيم ناجي : المتنبي والمعري ص ٩٢٩ الهلال سنة ١٩٣٨

بصفات تشبه تلك التى كان يسبغها المتنبي على سيف الدولة من قبل ، فهو حديد الرأي ، ثاقب العزم جرىء عند الشدائد ، لا تستطيع الاحلاف أن تهزمه لأنه يعتمد على تأييد الله ونصره .

وينطلق فى الحرب منتصرا على كل باغ وظالم(١)

كلا كفيك فى سلم وحرب ... يكون الخوف منها والأمان
فليس بشاغل اليمنى حسام ... وليس بشاغل اليسرى عنان
فكن فى كل نائبة جريئا ... تصب فى الرأى إن خطىء الهدان(٢)
وسائل من تنطس فى التوقى ... لأية علة مات الجبان
فإن تعاون الأملاك جهل ... على ملك يخالقه يمان
يعير سيفه لفظ المنايا ... كما شرح الكلام الترجمان
ويسلك رمحه فى كل باغ ... كما سلك المضيق الأفعوان

وكانت الغارات التى يقوم بها الروم بين الحين والآخر ، ويدهمون فيها ديار المسلمين ، مثار غضب المعرى وسخطه على أولئك الحكام والملوك الذين يتقاعدون عن الجهاد ، ولا يمتطون أفراسهم الكريمة للحرب ، وانما يخافون على عروشهم الهزيلة الضعيفة وعلى ثرواتهم المسروقة فيتركون البلاد نهبا للغزاة . يقول المعرى(٣) ردا على قصيدة بعث بها الشريف أبو ابراهيم العلوى وأولها :

« بعادك أسهر الجفن القريحا ... ودارك لاتنى إلا نزوحا
متى تصبح وقد فتنا الأعادى ... نقم حتى تقول الشمس روحا
بأرض للحمامة أن تغنى ... بها ولمن تأسف أن ينوحا
أعباد المسيح يخاف صحبي ... ونحن عبيد من خلق المسيحا

(١) سقط الزند (سفر ثان قسم اول) ص ٢١٦
(٢) الهدان : الضعيف .
(٣) سقط الزند (٢ : ١) ص ٢٤٥ — ٢٥٠ .

رأيتك واحدا أرحت عزما ومثلك من رأى الرأى النجيحا
ركبت الليل(١) فى كيد الإعادى وأعددت الصباح(٢) له صبوحا
وأعظم حادث فرس كريم يكون مليكه رجلا شحيحا

ويقول التبريزى حين يقدم هذه القصيدة : قيلت هذه القصيدة وملك الروم قد خرج الى أرض المسلمين ، وخاف الناس الذين قربوا منه ، فرحلوا عن أوطانهم (٣)

وقد مر بنا فى تفصيل الحياة السياسية لذالك العصر كيف كان الروم يعيثون فى الحدود الشمالية فسادا ويزحفون فى أعماق الشام وراء الحدود يستولون على المدن ، ويأخذون من السبايا والإموال،ويحرقون من المزروعات ما تناله أيديهم المخضبة بشهداء المسلمين ، فكان الناس يفرون امام جحافل الجيوش الغازية نجاة بحياتهم ، وفرارا بأعراضهم وممتلكاتهم .

وقد خلد المعرى فى شعره القواد الشجعان الذين يقفون للروم بالمرصاد . وهذه القصيدة مدح بها رجلا يقال له على بن الحسين ويعرف بابن المغربى وكان يدبر عسكر بنجو تكين التركى الذى اصطفاه العزيز من امراء الشيعة وكان لقى الروم بموضع يعرف بالروح ، وبين العسكرين نهر ، فخاضه المسلمون الى الروم ، وأوقعوا بهم »(٤)

وكيف لقاء ابن الحسين مخالف يحدث عن أفعاله فيهال
بنى الغدر هل ألفيتم الحرب مرة وهل كف طعن منكم ونضال
وهل أظلمت سحم الليالى عليكم وما حان من شمس النهار زوال

---

(١) الليل : فرس ادهم
(٢) الصباح : الابن
(٣) سقط الزند (٢ : ١) ص ٢٣٧ .
(٤) سقط الزند (٢ : ٣) ص ١٠٤٦

وهل طالعت شعث النواصي عوابسا رعال[1] ترامى خلفهن رعال
لها عدد الرمل المنر على الحصى ولكنها عند اللقاء جبال

فيرسم المعرى فى هذه اللوحة المزدحمة زحف المسلمين فى جيوشهم الجرارة وحملهم على الروم الذين يصفهم بأنهم « بنو الغدر » حتى أصبح نهارهم ظلاما ، وكيف تلاحقت موجات الفرسان المسلمين موجة أثر موجة لا يحصى لها عــدد وكأنها الرمال ولكنها كالجبال حين تلتقى بالروم فتفرق شملهم وتلحق بهم الويلات.

ويتطلع المعرى بعين الاعجاب والتقدير لما احرزه هذا القائد الهمام الذى يمثل الفارس العربى فى عصر عزت فيه الفروسية العربية ويرجو أن يكون هذا المجد الذى حققه المسلمون نموذجا يحتذى به الآخرون ، ويوعد الروم بغزوات أشد نكالا وقسوة ، فسوف يشن المسلمون عليهم كل يوم غارة خفيفة كما انهم سوف يزحفون اليهم اليهم كل عام غزوة كبيرة .

ونرى المعرى فى هذه القصيدة يحث المسلمين على جهادهم المقدس ضد الروم ووجه الخطاب الى الروم منذرا .

فإن تسلوا من سورة الحرب مرة وتعصمكم شم الأنوف طوال
ففى كل يوم غارة مشمعلة[2] وفى كل عام غزوة وتزال
خذوا الآن ما يأتيكم بعد هذه ولا تحسبوا ذا العام فهو مثال
ألا رب أعداء غزاهم فأذعنوا فعاد وهم فيما لديه عيال
وفى الخيل من ماء المخاطة عفة وهن الى ماء النفوس نهال
يردن دماء الروم وهى غريضة ويتركن ورد الماء وهو زلال
وقد علم الرومى أنك حتفه على أن بعض الموقنين يخال
فما كبروا حتى تكونوا فريضة ولا بلغوا أن يقصدوا فينالوا

---

(١) رعال : قطع الخيال .
(٢) مشمعلة : خفيفة وسريعة

كان المعرى يرى أن خير ما يمدح به الحاكم أو الأمير هو موقفه بالنسبة الى الروم ، بل قد بنى مواقفه من الامراء والحكام على هذا الاساس ، وكانت القضية الاولى التى تشغل باله هى تقاعس المسلمين عن الجهاد ، وانشغال ولاة أمورهم بالتنازع والخصام على أمور تافهة . وما أن يلوح أمام خاطره رجل يقود الناس إلى الحرب حتى يسبغ عليه أكمل صفات الشجاعة والفتوة .

ويعبر الشاعر مرارا عن مرارته الشديدة ازاء تهديد الروم للعرب ، ويذكر الناس بأيامهم المجيدة ، ويستنهض الهمم الخائرة فى قوله : (١)

لقد آن ان يثنى الجموح لجام　　وأن يملك الصعب الأبى ذمام
أيوعدنا بالروم ناس وإنما　　هم النبت والبيض الرقاق سوام
فإن لم يكن بين المخاض وحارم　　كتائب يشجين الفلا وخيام
ولم يجلبوها من وراء ملطية　　تصدع أجبال بهـا وإكام

فهو يرى أن الوقت قد حان ليمسك بزمام الأمور قائد حازم يقود الأمة نحو النصر ويجمع شملها الشتيت وآراءها المتفرقة ، ويعجب كيف يهدد بعض الناس بغزو الروم

وقد كان الروم فيما مضى كالنبات تحصدهم سيوف المسلمين حصدا .

ويذكر أولئك الخائفين المهددين بقوة الروم بالأيام المجيدة حيث أوقـــع المسلمون بجيوش الروم فيما بين نهر المخاض القريب من المعرة ومدينة حـــارم القريبة من انطاكية ونحس بغضبته لموقف دعاة الهزيمة ، وبصرخته فى آذان القوم أن يهبوا ويدافعوا عن حرماتهم وديارهم .

ولعل هذا النداء العلائى يكون ردا على الدكتور طه حسين حين قال : (٢)

---

(١) سقط الزند (٢ : ٣) ص ٦٠٢ .

(٢) د . طه حسين : تجديد ذكرى أبى العلاء ص ١٦٠ ، ١٦١ .

« لم يكن لأبي العلاء بالسياسة العملية كبير اتصال ، ذلك لان ذهاب بصره يحول بينه وبين لقاء الملوك والامراء ، إذا لاحظنا أن حياءه كان شديدا ، وأن حرصه على الا يظهر تقصيره عن شأو المبصرين فى الأوضاع العامة كان عظيما . كما أن فطرته ودرسه وفلسفته وجملة حياته المادية والعقلية ، كانت تحول بينه وبين قصور الملوك والأمراء ودواوين المشورة والحكم » .

وليس من لزوم المشاركة العملية فى السياسة أن يتردد على القصور والحكام ، أو أن يحتل منصبا رسميا من مناصب الوزارة أو الدواوين . ولكن الكلمة كانت تحرك كتل العامة وكانت توقظ الضمائر النائمة ، وتخترق استار القصور الكثيفة لتقض مضاجع الملوك والأمراء اللاهين. وهذه لعمرى هى المشاركة العملية الفعالة فى الحياة السياسية .

ويقرن الأستاذ عبد الحميد العبادى بين قصائد أبى العلاء الواردة فى سقط الزند فى مدح الأمراء المجاهدين وبين سيفيات المتنبى وروميات أبى فراس :

« فقصائد أبو العلاء الواردة فى سقط الزند ، والمتصلة بمدح أمراء حلب المناضلين للروم تجرى مجرى قصائد المتنبى المعروفة بالسيفيات والقصائد الروميات لأبى فراس الحمدانى وهى حلقة من حلقات ملحمة الحروب العربيه الرومية . على أن أبا العلاء كما يخيل الينا كان يلحظ فيما بينه وبين نفسه أن روح الجهاد قد فتر عند المسلمين ، وعند قومه خاصة وأنهم أمام استعلاء الروم وكلبهم عليهم قد التزموا خطة الدفاع دون الهجوم » (١)

كما يرى الأستاذ أحمد أمين أن نقده الأخلاقى والسياسى كان نابعا من سلطان عقله وارادته ، وأنه كان يخضع الظواهر الاجتماعية للتحليل والربط بين الأسباب

---

(١) عبد الحميد العبادى : ناحية التاريخ من أدب أبى العلاء المعرى (المهرجان الالفى) ص ٩٨

والمسببات ، فالعقل أداة صالحة لربط الأسباب بالمسببات ، والأمور الإجتماعية والاخلاقية تجارب تحدث فتحدث نتائجها ، تظلم الملوك والحكومات فتسوء حال الامة ، وتعدل فيصلح حالها (١)

وفى ظنى أن الامر لم يكن مجرد تحليل عقلى ، كما يتناول الرجل مسألة حسابية أو منطقية ويستكشف ما وراءها من خطأ أو صواب فى النتيجة . ولكن كان هناك الشعور العميق الخفى الذى يعيش فى قلب كل شاعر عربى تجاه قومه وقبيلته واحساسه بالخطر الذى يحيق بأمته ، وغيرته على تراثها الدينى والحضارة . فالشعر العربى سلسلة متصلة من المشاعر والاحاسيس كما يقول الدكتور شوقى ضيف (٢).

« وقد نظن ظناً أن هذا الشعر الذى يصور عواطف شعوبنا العربية ليس له أصول قديمة إلا فى صياغته وديباجته ، والواقع أن له نسبا قديما فى نفس مضمونه فقد كان الشاعر فى الجاهلية والاسلام يتغنى عواطف قبيلته وفخره ومديحه وهجاءه وتطور ذلك عند المتنبي فاذا هو يستشعر العروبة فى أعماقه ، ويتحدث عن الأخلاق فى عصره وتلاه أبو العلاء يدعو إلى ضروب من الاصلاح الدينى والاجتماعى والسياسى » .

وقد لجأ أبو العلاء إلى كل الوسائل الممكنة ليستنهض السياسيين والقادة العسكريين للكفاح . وصور حال الأمة من الخور والضعف الذى ألم بها، واستعمل الرمز استعمالا ذكيا حين أفرد فى شعره « بابا » للدرعيات، ساق فيها الحوار الممتع الجرىء الذى يعكس تخلى الأمة عن دروعها وبيعها أحيانا .

فهو يصف رجلا لصق به الشيب وترك لبس الدرع . وكأنه يصف الشيخوخة

---

(١) أحمد أمين : سلطان العقل عند أبى العلاء ص ٥٤ (المهرجان الالفى) .

(٢) د . شوقى ضيف : حاضر الشعر العربى متصل بماضيه ص ١٦٦ مهرجان الشعر الثانى بجلس الفنون .

التى لحقت بالأمة العربية والاسلامية وكيف أصبحت تلاقى الدارعين بغير درع (١) .

ألاقى الدارعين بغير درع وأدعو بالمدجج لاتفتنى
كأن جيادهم أسراب وحش أضرعهن من ربد وأتن
وما أعجلت عن زرد حذاراً ولكن المفاضة أثقلتنى
أكلت منكبى سمر العوالى وحمل السابرى أكل متنى
أعاذل طالما أتلفت مالى ولكن الحوادث أتلفتنى

فهو يصور حالة « الرجل المريض » بما ينطبق على الامبراطوريات التى لحق بها الهرم والضعف حين يتلفها الدخول فى حروب مستمرة وفتن متواصلة فهى لاتترك حمل السلاح حتى يوهنها كثرة حمله ، ثم هى تنفق ببذخ وتتلف مالها حتى يلحق بها الافلاس والخراب وتتضافر عليها حوادث الدهر .

وأغلب ظنى أن أبا العلاء نظم الدرعيات لامن أجل استعراض قوة عارضته اللغوية أو إلمامه بالقاموس العربى ولكن ليرمز إلى أحوال لم تكن تجلب إلا السخط والثورة العارمة ، وكما يقول سامى الكيالى (٢) :

« ونستطيع أن نقول أن المعرى كان من أكابر الشعراء الرمزيين وإن كان لايقصد الرمزية لذاتها كما يفسرها النقاد الفرنسيون ولا حاولها كما يحاولها شعراء العصر . ولكن كان المعرى يرمز إلى أشياء يعرضها فى ضباب من الألفاظ المعقدة توارياً عن الافهام البليدة التى كانت تقف له بالمرصاد ، وتفسر كلماته على غير مدلولها ولا تتورع أن تنحله كلاماً لم يقله » .

ويجعل أبو العلاء الدرع وقاية من سيوف الأعداء ، فلما سقط الدرع عن

---

(١) سقط الزند (٢ : ٤) ص ١٧٠٧ .

(٢) سامى الكيالى : أبو العلاء المعرى ص ٦٤ .

المسلين وتوارى ايمانهم سوى بوحدتهم أصبحوا نهبا لسيوف الأعداء وما من درع تحميهم صولتهم أويلجأون اليها فى ملماتهم يسوق هذه الفكرة فى صورة حوار بين الدرع والسيف على النحو التالى (١) .

ألم يبلغك فتكى بالمواضى — وسخرى بالأسنة والزجاج
وأنى لا يغير لى قتيراً — خضاب كالمدام بلا مزاج
حرام أن يراق نجيع قرن(٢) — يجوب النقع وهو إلى لاجى
يقضب عنه أمراس المنايا(٣) — لباس مثل أغراس [illegible]
تعوذ بى حليف التاج قدما — وفارس لم تهم بعقد تاج
فلا يطمعك فى الغمرات وردى — فانى ربة المر الأجاج
فإن تركد(٤) بغمدك لا تخفنى — وإن تهجم على فغير ناج

والبيت الأخير يحمل وراء الرمز معنى بيان فائدة الدرع القوية التى تضطر سيوف الأعداء إلى الصمت والسكوت فى أغمادها ، فاذا تكلمت وتجرأت فهى ليست بناجية من الدرع » .

ويلمس عمر فروخ هذا الجانب الرمزى فى شعر الدرعيات دون تفصيل فيقـول :

« وهكذا يبدو بوضوح أن المعرى أراد أن يتخذ من الحوم حول وصف الدرع وسيلة إلى طرق موضوعات تتعلق بتفضيل المجاهد على القاعد ، وبالتالى بتفضيل الذى ينظر [illegible] يا يبين الجد على الذى يراها لهوا بالنساء خاصة . ثم

---

(١) سقط الزند (٢ : ٤) ص ١٧٢٠ .
(٢) نجيع قرن : دم [illegible] .
(٣) [illegible] عنه حبائل الموت جلدة رقيقة مثل التى تخرج من الولد من بطن أمه .
(٤) تسكت .

أن الشاعر تطرق من هذا إلى اعتبار أوجه كثيرة من أوجه الحياة(١).

ويصف المعرى رجلا ينادى على درعه لبيعها ، ويقول أن سبب رغبته فى بيعها هو حاجته ، وهنا يختلط العامل الاقتصادى بالعامل السياسى حين يضطر الرجال إلى بيع دروعهم من أجل الطعام ، فالقوة الحربية تعتمد على الكفاية الاقتصادية وإذا فقدت احداهما فقدت الأخرى(٢) :

وقال على لسان رجل ينادى على درع :

من يشتريها وهى قضاء(٣) الذيل كأنها بقيـــة من السيل
عيبتها محسوبة إثر الخيل مزادة مملوءة من الغيل(٤)
ليس الذى يملكها بزميل(٥) هدية من ملك لقيل
مال إليها قلبه كل الميل يغنى بها صاحبها عن القيل(٦)
كلفنى إبرازها حب النيل وأن زادى يستباح بالحيل(٧)

ولعل أكثر الأمور أسفا أن يضطر الانسان إلى بيع درعه الذى يحميه ويحمى أهل بيته ويحمى مصدر رزقه من أجل الطعام . وكأن أبا العلاء يريد أن يعطى الصورة المقابلة لما ينبغى أن يكون عليه العربى الذى يأبى أن يبيع درعه حتى ولو رمته الأيام بصنوف الفقر والحاجة لأنه يدرك قيمة الدرع فى حفظ العزة الانسانية التى يعلو ثمنها على أى ثمن آخر يدفع ثمنا للدرع من تاجر ، ولا يصغى الرجل

---

(١) عمر فروخ : حكيم المعرة ص ٣٢
(٢) سقط الزند (٢ : ٤) ص ١٧٧٢
(٣) قضاء : دمال من نفسى
(٤) الغيل : الماء الجارى
(٥) زميل : ضعيف .
(٦) القيل : شرب نصف النهار .
(٧) انما ابرزت هذا الدرع لحب الاطعام والاعطاء .

العربى لأميره الذى يدعوه إلى رأىفاسد أو إلى أن يترك درعه أو يبيعه ، ويصف اعتزازه بنفسه ، ومكانته وسط قومه وهو يملك درعه القوى الأصيل المتين ، ويقابل بين هذا وبين من يطيع النساء أو يلبس القميص الحريرى وكأنه يقارن بين الضعفاء والأقوياء[1] .

صنت درعى إذ رمى الدهر ضر عسى بما يترك الغنى فقيراً
كالربيعين خلت أن الربيعين[2] أعاراهما سرابا غــزيراً
كل بيضاء منهما تمنع الفار س أن يجعل الفرار نصيراً
ليس يبتاعها التجار ولو أعطيت بالحلقتين منها بعيرا
هى حصنى يوم الهياج فمديها عن الآسى واستعدى العــبيرا
شبه عين الغراب طار غراب السيف عنها مثل الرمى كسيرا
أمرتنى الغى العواذل والحـاز م رأيا من لا يطيــع أميرا
وقميصا يبـــلى الفتى كل عام وقميصاى أدركا أرد شيرا
إن فى الدرع ملبد الغاب مذ كنت فكونى فى الدرع ظبيا غريرا[3]
غير انى لبست منها حديدا واستجادت من اللباس حريرا
بين جيرانها وبين الغنى الفا ئض ان ابعث الجياد مغيرا
غــارة تلحق الأ عزة بالذلان او تجعل الطليق اســيرا

وهذه القصيدة تحمل الكثير من نقد ابى العلاء السياسى للأمة العربية ، وإنقسامها بين داع للقوة . وداع للهزيمة ومؤثر للبس الدروع ، ومؤثر النعمة والرفاهية والحرير ويضع امام الرجل العربى الكثير من المبادىء السامية التى ينبغى ان يحتذيها من اجل الاحتفاظ بعزته وكرامته واطلاق سراح اسرى المسلمين والحاق الهزيمة والذلة بالاعداء . وهو لايسوق آراءه السياسية فى صورة حكمةاو

---

(١) سقط الزند (٢ : ٤) ص١٨٧٥ — ١٧٩٢
(٢) الربيعين : النهرين والربيعين (التثنية ـ الشهرين)
(٣) ملبد الغاب : الاسد ، ودرع المرأة : قميصها

موعظة ،لأن الحكمة والموعظة كما يقول ابن عبد ربه « والموعظة ثقيلة على السمع، محرجة على النفس بعيدة عن القبول لاعتراضها الشهوة ومضادتها الهوى ، الذى هو ربيع القلب ومراد الروح ، ومربع اللهو ، ومسرح الأمانى ، إلا من وعظه عليه وارشده قلبه واحكمته تجربته ، قال الشاعر :

ان ترجع الأنفس عن غيها حتى يرى منها لها واعظ

وقالت الحكماء : السعيد من وعظ بغيره لايعنون من وعظه غيره ، ولكن من راى العبر فى غيره فاتعظ بها فى نفسه [١] .

ولذلك لم يلجأ أبو العلاء إلى صيغة الحكمة المباشرة أو الوعظ المباشر حين يريد بيان آرائه السياسية ، وإنما لجأ إلى أن يسوق الأفكار فى صيغة رمزية كما فى الدرعيات يستنهض الهمم الخائرة والنفوس الضعيفة للجهاد وهو متأثر فى هذا الاتجاه بالروافد الهندية والفارسية واليونانية كما يقول الدكتور شوقى ضيف[٢]:

« وعنى الشاعر العباسى فى مدحته بالحكم وأمدته فيها عدة روافد فارسية وهندية ويونانيه فاذا الحكمة تغزو على لسانه ، وكلما أكثر منها طلب السامعون المزيد لما تحمل من مقاييس عربية تصقل خبرتهم وتنمى فهمهم للحياة ، وقدرتهم فى الحكم على الأشياء .

ويسرد أبو العلاء بذكاء بالغ قصة رجل مسن عجوز ،قعد به كبر السن ولحقت به الشيخوخة عن أن يلبس الدرع ، فيصف حال نفسه فى أسى بالغ بقوله [٣] :

أرانى وضعت السرد عنى وعزنى جوادى ولم ينهض إلى الغزو أمثالى
وقيدنى العود البطىء وقيـل لى وراءك أن الذئب منك على بال

(١) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٣ ص ٧٦ (كتاب الزمردة فى المواعظ والزهد).
(٢) د . شوقى ضيف : تقويم تراثنا الشعرى مجلة المجلة العدد ٩٧ (يناير ١٩٦٥)
(٣) سقط الزند (٢ : ٤) ص ١٨١٢ ، ١٨٤٠ .

وآثرت أخلاق السرابيل بعدما   أكون وأوفى أدرع القوم سربالى

ومن سره ثوب يعز بلبسه   فلا تجر منه أم دفر على بال

هلوك تهين المستهام بحبها   وتلقى الرجال المبغضين بإجلال

بنو الوقت أن غروك منهم بحكمة   فما خلفها إلا غرائز جهال

وتزدحم هذه المقطوعة بالصور التي تحض على انتهاز سنى الشباب والفتوة فى الجهاد والغزو ، وبهذه المقابلات التى يعرضها أبو العلاء بين الشيخ المسن الذى أصبح عاجزا عن حماية نفسه حتى أضحى عرضة لافتراس الذئاب له ، ويدعو إلى بغض الدنيا وعدم التعلق بها لأنها كالمرأة الفاجرة تهين من يتملق ويستهام بها حبا ، وتخضع وتذل لمن يظهر لها الكره والبغض ، وكأنه يغمز أولئك الذين تعلقوا بالمظاهر الكاذبة للحياة وآثروا متعها العاجلة ، وكرهوا الجهاد والغزو ، ولذلك فهذا الشيخ يقنط من هذه الحال ، ويرى ـ كما رأى أبو العلاء بعد ـ أن خير ما يفعله هو البعد والاعتزال وسجن النفس ، وكأنه يحتج احتجاجا سلبيا على هذه الحال :

لذاك سجنت النفس حتى أرحتها   من الانس ما أخلاه ربع بإخلال

إذا ما حللت الجدب فردا بلا أذى   فسقيا له من روضة غير محلال

وهو يرى أنه متى حل الأرض الجدبة وهو وحيد لا يؤذيه أحد فستكون بمثابة الجنة لأن الأيام أضحت مزدحمة بالعواطف الشريرة التى جعلته يكره عيشة الجماعة .

ولعل خير ما يعثر عليه الدارس فى الدرعيات هذه المقطوعة الرائعة التى تدور حول ابن يسأل أمه عن درع أبيه ، وهى تمثل أرق وأعنف العواطف البشرية ، وسؤال الابن عن درع الأب يشبه سؤال المواطن وطنه عن السلاح والقوة التى كانت للآباء ، ويخيل لى أن شخصيات هذه القصيدة ترمز إلى معان أوسع وأعمق

وأغزر فهام أولئك فرسان الشباب من العرب يرون حالة الضعف والانحلال التى آلت اليها الامة فيوجهون السؤال إلى امرأة معنوية تمثل الوطن العربى الكبير ، يسألونها بحرارة وسخرية عن مجد الآباء وعن قوتهم ممثلة فى الدرع المفقود . يقول أبو العلاء : (١)

ما فعلت درع أبى أجسرت ... فى نهر أم مشت على قدم
أم استعيرت من الأراقم فارتد ... ت عواريها بنو الرقم (٢)
أم بعتهـا تبتغين مصلحة ... فى سنة والسماء لم تغم
فـلا الثريا بجودها ثريت ... أرض ولا الفرغ مخضل الوذم (٣)
وحوتها جائل على ظمـا ... فى ناضب الماء غير ملتطم
عابسة لم يجد بها الأسد الظبيـة إلا ضعائف الرهـم (٤)
أم كنت صيرتها له كفنا ... فتلك ليست من آلة الرجم
لعله أن يجىء مدرعا ... يوم رجوع النفوس فى الرقم
أم كنت أودعتها أخا ثقة ... فخان والخون أقبح الشيم
أم صالحات البنات إضن بها ... زيادة فى الرعاث والخدم (٥)

فما أصعب السؤال وما أكثر حرج المسئول ؟ فأين ذهبت الدرع ؟ هل كانت لها أقدام فانسلت من باب الدار وغرقت فى النهر أوهربت إلى جهة غير معلومة؟! أم أن الجيار ، قد أعارتها لابيه فعادت من حيث أتت ؟ أم أن امه فى سنة من سنوات الجدب والجفاف باعتها لتستعين بثمنها على موا جهة الكساد والفقر ؟ أم أن أمه

---

(١) سقط الزند (٢ : ٤) ص ١٨٤٩ .
(٢) الأراقم : الحيات ، الرقم = الداهية
(٣) ثريت : نديت ، الفرغ = فرغ الدلو ، الوذم = السيور
(٤) الرهم = جمع رهمة وهى المطرة الصغيرة
(٥) اضن بها — وبخل بها ، الرعاث = القرطة ، الخدم — الخلاخيل .

صيرت الدرع كفنا لأبيه وهذا لايجوز لأنه ليس من لوازم الميت فى قبره أوربما ظنت الام أن الاب يرجع إلى البعث وهو مدرع بدرعه الواقية .

ام انها اودعتها عند انسان تثق به فخان الأمانة وسلب الوديعة وهذا من أقبح الامور ! ام ان بناتها اشترين بثمنها او صنعن منها عقودا وخلاخيل يتزين بها ؟ !

هذه الاسئلة الحائرة تمثل نفسية الانسان العربى حينذاك الذى من يسأل عن القوة وعن السلاح وعن المال : اين ، وأين ، وأين ذهب كل هذا ؟ فلا يجد غير علامة استفهام كبرى لا تزيل دهشته وانما تزيد حيرته .

وبرغم هذا المفهوم الواضح للدرعيات ، وما ترمز اليه من معان فى الفداء ، والفروسية نجد الدكتور طه حسين يقول عنها (١) : « اذن فليس من حق الدرعيات أن يشتد البحث عنها ويطول القول فيها ، وانما الحق لها ان تلحق بما فى سقط الزند من الوصف فانها لاتتجاوز الافتنان فى تشبيه الدرع بالغدير مرة وبعين الجراد مرة أخرى، وفى ذكر بلائها وفى تثلم السيوف وتحطيم الرماح ، وحياطة الدارعين ، واللهجة الجاهلية فيها غالبة ، والاسلوب البدوى فيها ظاهر والغريب بين ألفاظها كثير . وربما عمل الخيال فى التأليف بين الاوصاف الموروثة عن الجاهليين فنظم الشاعر محاورة بين الدرع والسيف ، وأخرى بين غلام وأمرأة باعت درع ابيه وثالثة عن لسان رجل اضطر فباع درعه وهو فى كل ذلك لايزيد عن اختراع الاساليب المختلفة لنظم ما حفظ من وصف الشعراء للدروع .

غير ان هذا الفهم للدرعيات يصور لنا ابا العلاء بصورة غير واضحة وغير مفهومة ايضا والواضح ان لجوءه إلى استعارة اساليب الجاهليين كما يقول الدكتور طه حسين ليست إلا عودة إلى العصور الذهبية للفروسية والاخلاق العربية ، كما

---

(١) د . طه حسين : تجديد ذكرى أبي العلاء ص ٢٠٢ .

ان هذه القصص التى أوردها ليست مجردة عن اهدافها الانسانية والاجتماعية

ويسوق ابو العلاء قصة أب تحضه زوجته على بيع الدرع فى وقت الشدة ليجد للعيال قوتا فيأبى كل الاباء ان يبيع رمز شرفه وعزته ، ويتساءل كيف يبيع درعه ويذهب بعد ذلك للذود عن صغاره وعن وطنه ، وهو يضيق باحداث ذلك الزمان ويقسم بأغلظ الايمان أنه لا يبيع سلاحه ابدا فى سبيل قطيع من الغنم فما قيمة كل هذا اذا فقد الدرع الذى يحميه ويحمى أسرته وكرامته : (١)

قالت سليمى والكريم ينعى
لو كنت مجدودا لبعت الدرعا
تبغى بذاك للعيال نفعا
كيف ألاقى الحرب يوم أدعى
لا منع السرب ليوثا فدعا
ضقت بأحداث الزمان ذرعا
لا والذى أطبقهن سبعا
لا اشترى بالسرد يوما ضرعا (٢)

ويصور ابو العلاء فى موضع آخر صورة الفارس الجميل الشجاع ينزل فى يوم قائظ روضة غناء ، وتقابله هناك جميلة تبغى فتنته ولهوه ، وصرفه عن الجد ولكنه يأبى فتنة النساء ويأبى خمرها ، ولاتذهب بلبه زينتها وعطرها ، ويظل متمسكا بمثله الاعلى وهو اخلاصه لفروسيته ، واعتزازه بسلاحه فلا يخلعه من اجل امرأة ، ولا تلعب الخمر ولا الحسن بعقله وتنسيه واجبه ، يقول أبو العلاء :(٣)

نزلنا بها فى القيظ وهى كروضة سقتها عنان الشعر بين عنانه

---

(١) سقط الزند (٢ : ٤) ص ١٨٦٢
(٢) السرد : الدرع ، ضرعا — قطيع الغنم
(٣) سقط الزند (٢ : ٤) ص ١٨٧١

فلما رأت ضمن الحقيبة جونـه — أبرت على طول الـكمى بنانـه
رمتنى بحبيها (١) وآخر صامت — من النضر لا أعنى به ابن كنانه
وليست وإن جاءت بحلى وزينه — عـلى كدرعى عـزة وصيانـــة
وليس أبوها بالذى أنا بائـــع — ولو ساق فيها إبلـه وحصانه
وما سامحت نفسى بها عند حادث — فلانا فما بالى وبال فلانـه
وجاءت بكأس من سلاف تريغنى — خلابا على قضاء ذات رصانـه
ألم تعلمى أنى مدامة بابـــل — هجرت ولم أقبل خبيثة عانه

هذه روح الفارس العربى كما ينبغى أن تكون ، وكما يريدها أن تكون المعرى ، ولكن هيهات فقد انصرف القواد فى عصره إلى ملذاتهم يعبون منها عبا ، وإلى النساء يصرفون معهن جل اوقاتهم ، وتركوا البلاد وامور العباد لشر البشر يصرفون امورها ، وكانت المرأة تحكم من وراء ستار ، بل لقد كانت القيان والجوارى تلعبن بالامور المصيرية للبلاد فما أبعد المسافة بين حكام هذا شأنهم ، وبين هذا الفارس القوى الذى صوره أبو العلاء .

وكان منطلق الفهم لنفسية الحكام والقواد والفرسان عند أبى العلاء المعرى هو أن الظلم غريزة مركبة فيهم ، وأنه ما من شىء أقوى من الملك الظالم إلا الموت الذى يخلص الرعية منه كما فعل مع كبـــار الحكام والملوك ، يقول أبو العلاء :

« وهل فى الأرض ملك لايجور . ان الله جعل الظلم غريزة فى الإنس ، وسلطهم على كل جنس ، أنوشروان كان قصره من بعد القصر الإران (٢) . قباذ جبذته (٣) من الدهر جباذ (٤) . كسرى أبرواز عمر وماله من مواز ثم هلك . فكأنه ماملك.

---

(١) حبيها : ترطيها ٠
(٢) الاران = التابوت
(٣) جذبته
(٤) جباذ = المنية

بوران ابنته لما بلغ النبي ﷺ خبرها قال لن يفلح قوم اسندوا أمرهم إلى امرأة وكم من ملك عجمي وعربي فقد فقد العاجز والأب . فهذه السبيل أخذت الملوك فما يقول السوقة أو الصعلوك والكرام ما عدل عنهم الاخترام[1] . أما حاتم[2] فما اصطفت عليه المآتم . وأما كعب بن مامة[3] فرأى من اعلام الماء سمامة. وهلك في الأرض البيهاء وآثر أخا النمر بالماء . وفرسان العرب وشجعانها. ما أخطأهم رماء النوب ولاطعانها[4] .

ونظرة أبي العلاء في أن الظلم غريزة في الجنس ليست صحيحة ، لأن في الملوك من لا يظلم ولا يجور ، وفي تاريخ المسلمين حكام من أمثال عمر بن الخطاب وعمر ابن عبد العزيز وكان الاحرى بأبي العلاء أن يبحث عن أسباب الظلم التي تجعل الملوك يجورون على الرعية بدلا من أن يدفع الجنس البشري بالظلم كما قال الشاعر: (والظلم من شيم النفوس) وقد ذهب بعض البـــاحثين مثل الدكتورة عائشة عبدالرحمن[5] إلى البحث في فكرة الخير والشر لعلها تجد أصلا لمذهب أبي العلاء ، وتفسير مناحي تفكيره ، وأغرقت نفسها في مباحث طويلة عن فكرة الخير والشر عند اليونان . وعند المسلمين ، وتفرعت من هذه المشكلة إلى بحث مشكلة أخرى هي الجبر والاختيار ، ناسية بذلك قول الأستاذ أمين الخولي :

« ليس لأبي العلاء بحث بالمعنى الصحيح عن الحقيقة ، وليس هناك إلا خواطر

---

(١) الاخترام = أخذ المنية

(٢) حاتم الطائي .

(٣) هو كعب بن مامة الايادي خرج في ركب معهم رجل من بني النمر بن قاسط وكان ذلك في معظم الصيف . فضلوا عن الطريق وقل ماؤهم فصاروا يقتسمون الماء فيشرب كل واحد منهم بقدر ما يشرب الاخر . ولما انتهى الدور الى كعب رأى الرجل النمري يحدد النظر اليه فسقاه ماء . وفضله على نفسه وهكذا فعل في الغد . ثم ارتحل القوم فلم يكن له قوة على النهوض فتركوه مكانه فمات . فضرب به المثل في تفضيل الرجل صاحبه على نفسه .

(٤) رسائل أبي العلاء المعري ط بيروت ص ١٨٤ ، ١٨٥ .

(٥) د . عائشة عبد الرحمن : الحياة الانسانية عند أبي العلاء ص ٩٧ وما بعدها

منشورة فى جملة أو فقرة قصيرة ، أو منظومة فى بعض شطر أو فى شطر من بيت ، أو فى بيت أو بيتين أو أكثر من ذلك قليلا ، فليس من الأنصاف لتاريخ الفلسفة ولجهد الفلاسفة أن يسمى مثل هذا الصنيع فلسفة وبحثا مهما تتناول هذه المنشورات أو المنظومات من آراء وفكر فلسفية(١) .

وليس هناك ما يدعو الدكتورة عائشة عبد الرحمن(٢) إلى هذه الأسئلة المعقدة: عالمنا الذى نعيش فيه أخير هو أم شر ؟ ثم تبحث عن مذهب التفاؤل عن سقراط ومدرسة الاسكندرية معتمدة بذلك على محاضرات سانتلانا فى الجامعة المصرية القديمة .

ولو كانت أمعنت النظر فى هذه المحاضرات القيمة لأغنتها هذه العبارة عن بحثها ذاك يقول سانتلانا(٣) فى محاضراته عند بيان مذهب سقراط وافلاطون والرواقيين :

« مذهب سقراط وافلاطون أعنى قولهم بأن أصل كل شيء فى الانسان هو الجهل بالخير إذ لا يتأتى لذى بصيرة وعقل أن يختار الشر ، وهو يعلم أنه شر ، وهو يعلم أنه شر فاذا اختاره لايكون ذلك إلا من تخيله شيئا من الخير فيه فيؤول الشر فى الانسان إلى مجرد الغلط أو القصور فى العلم . وقد تلقى الرواقيون هذا الاصل من سقراط فيعدون لأجل ذلك من اتباعه عند المؤرخين . قالوا إذا كان منشأ الشر إنما هو الجهل بالفضيلة إذا وحسن السيرة متوقفة على العلم الحقيقى وان من علم الأشياء على ما هى عليه لابد له من أن يتبع فعله علمه حتى صارت الحكمة عندهم جامعة للعلم والعمل معا ، والخير كله موقوف على تهذيب العقل والضمير » .

---

(١) أمين الخولى : رأى فى أبى العلاء ص ٩٥

(٢) د . عائشة عبد الرحمن : الحياة الانسانية عند أبى العلاء ص ٩٧ وما بعدها .

(٣) سانتلانا : محاضرات فى الجامعة المصرية القديمة ج ١ ص ٣٢٢ — ٣٢٤ — مصورة لدي الدكتور علي سامي النشار .

وهذه العبارة تغنى الباحثة كثيرا عن الغوص وراء الفلسفات اليونانية والاسلامية فسألة عالمنا الذى نعيش فيه أخير هو أم شر ؟ يجيب عليها النص السابق بأن الخير موجود وكائن فى العالم ولكننا لا ندريه ولا نعدله ، فجهلنا به لا يعنى انتفاء وجوده، وأننا نستطيع الوصول اليه بتهذيب العقل والضمير .

وأما كون الظلم من شيم النفوس كما يرى أبو العلاء ، فلأن النفوس التى تظلم لم تر طريق الخير ولم تصل اليه بالتهذيب العقلى والروحى ولكن النفوس مطبوعة ومجبولة على الخير والظروف هى التى تفسدها .

ونكون أكثر عدلا فى بحثنا لأبى العلاء لو فصلناه عن الفلسفات المعقدة ودرسناه كظاهرة إنسانية ، ندرسه كشاعر ، وليس كفيلسوف ، وقد نبه الأستاذ أمين الخولى إلى المنهج مراراً فى دراسة أبى العلاء ، فقال :(١)

« ان أبا العلاء لا يظهر فيلسوفا بالمعنى المعروف لهذه الكلمة ، ولا له فلسفة خاصة تقوم على منهج تفكير وأسلوب بحث ، ومذهب فى المعرفة ، وتقرر آراء واضحة معينة » .

ونظرة أبى العلاء هنا نظرة المتشائم الذى لا يرى فى الملوك عربا كانوا أو عجما إلا شرا محضا لا سبيل إلى الخير معه . ويرجع هذا الاحساس أو هذه النظرة إلى رهافة شعورة وصدق بصيرته لما يجرى حوله من أحداث العصر ، ويضيف من عنده إلى الحوادث ما يزيدها قتامة وحزنا وسواداً .

« والمتشائمون يستخفون بالدنيا لأنهم لا يرون فيها نعيما يؤبه له . ولا وطرا يستحق أن يسمى اليه . وإنما يعتريهم ذلك من دقة الاحساس وتقزز الخاطر وشدة

---

(١) الاستاذ امين الخولى : رأى فى أبى العلاء ص ١٠٣ والملاحظة الجديرة بالاهتمام أن الدكتورة عائشة تعتمد فى معظم بحثها السابق عن أبى العلاء على آراء الاستاذ امين الخولى ـ رحمه الله ـ ولكنها لا تستفيد بآرائه الصائبة وتعتمد على التعقيد والغموض فى بحثها .

تعريج الألم بنفوسهم إذا مسها طائف منه ولو من بعيد . وناهيك بما يعتريهم من عذاب التناقض بين الفكر والاحساس بين فكر يرى أعظم الأشياء اهون من أن يكون لها شأن خطير ، واحساس يجعل لكل همسة من همسات الحياة شأنا بل شئونا خطيرة[١] .

ولقد أحسن الأستاذ العقاد التعبير عن نفسية الانسان المتشائم الذى يتمثل فى شخص أبى العلاء ، وصوره بدقة من ينظر إلى أدنى خطأ يرتكبه حاكم بمنظار مكبر ويرى كل خطايا العصر ممثلة فى هذا الخطأ ، وتتراكم خطايا الحكام فلا يرى أبو العلاء فيها إلا صورة عامة النفس البشرية التى تتقمص أجساد كافة حكام الارض. ومع هذا فهم أعجز من أن يدفعوا عن انفسهم غوائل الزمان والموت الذى يحصد الطيب من أمثال كعب بن مامة الايادى الذى يضرب به المثل فى تفضيله صديقه على نفسه حين استبد بهم العطش فى رحلة الصحــراء ، أو حاتم الطائى الذى كان مضرب الامثال فى الكرم ، كما حصد بوران ابنة ملك الفرس التى حكم عليها النبى عليه السلام بالفشل فى قيادة قومها لأن المرأة لا تصلح للقيادة السياسية ، وهذا يتسق مع فكر أبى العلاء المعادى للمرأة فى معظمه ، وكما حصد الموت أيضا كسرى أنوشروان وقبــاذ وغيرهم من شجعان العرب وفرسانها . ويتساوى فى الموت الملوك والصعاليك على حد سواء . وكأن ما فقدوه من مساواة فى الدنيا يستطيع الموت أن يحققه فى الآخرة .

ولقد كان ابو العلاء برما بالسياسة والساسة لأنهم يحكمون بدون عقــول توجههم وترشدهم :[٢]

يسوسون الأمور بغير عقل ... فينفذ أمرهم ، ويقال : ساسه
فأف من الحيـاة ، وأف منى ... ومن زمن رئاسته خساسه

---

(١) عباس محمود العقاد : مطالعات ص ٨٦ ، ٨٧ .
(٢) لزوم مالا يلزم ط بيروت ج ١ ص ٣٥

ويحمل لفظ (عساسة) كل مرارة أبي العلاء وغضبه من ساسة ذلك العصر الفاسدين .

ويرسم ابو العلاء فى القصيدة التالية نهجا سياسيا للحاكم الصالح يسير عليه فى إدارة دفة الأمور فى بلاده ، فيقول :[1]

أيا والى المصـــير لا تظلمن ... فكم جاء مثلك ثم انصرف
وقد أبر النخل ملاكه ... وقبض غيرهم فاخترف[2]
إن القول حرفة كاذب ... فان القضاء به ما انحرف
فلا ترسلن حبال الرجا ... وأمسك بكفك منها طرف
تواضع إذا ما رزقت العلاء ... فذلك مما يزيد الشرف
ودارك أحسن إلى جارها ... ولا تجعلن لها مشترف[3]
وان ألبس الله ثوب الشفـاء ... فلا تؤثرن عليه الترف
تغيض المياه وقد طالما ... تيممهـــا وارد فاغترف
ومن أمنته خطـوب المنون ... تخوف من هرم أو خرف
يقارف مستكبرات الذنوب ... ويغفل عن ذنبه المقترف
ولى منزل فى الثرى ، ما يزاد ... ولو رامه زائر ما عرف
وقد لمت أن جعدت أدمى ... وما لمت جفنى لما ذرف

ومجموعة المبادىء التى يرسمها ابو العلاء هنا للوالى أو الحاكم أو السياسى تشكل المنهج العلاقى فى السياسة الذى يقـــوم عليه ... الحكام الذين يسيئون السيرة ولا يحسنون شئون الحكومة ، فهو يدعو الوالى إلى أن يعدل فى حكمه ولا يظلم احداً من رعيته ويعظه بأن الكثيرين غيره حكموا وذهبوا وأصلحوا النخل وزرعوا

---

(١) لزوم مالا يلزم جـ ١ ص ١٧١ ط بيروت
(٢) أبر النخل = أصلحه . اخترف — جنى ثمرة
(٣) المقترف = الموضع العالى تعرف منه على سواك .

الأرض وجاء غيرهم ليجنى الثمرة .. ويدعوة إلى الصدق فى القول وعدم المبالغة فى الآمال الكاذبة وأن يكون التواضع دينه فى الحياة مهما بلغ به العلو مبلغه ولأن ذلك يزيده شرفا ورفعة وتقديرا. وأن يقوم برعاية حقوق الجار فلا ينتهك حرماته لأنه أن يشرف عليه يرى النساء ، وهذا تعبير عن مراعاة الدولة لجارتها وحسن سياستها معها . كما يدعوه إلى حسن سياسته لنفسه بأن يرعى نعمة الله التى افاءها عليه ، ويحفظ صحته من الاسراف فى الملذات لأن المياه مهما كثرت وفاضت يجف نبعها بطول الاغتراف ، وغدا يلحق به الشيب وتذله الشيخوخة وأولى به أن يرعى حق الشباب ويحفظ عليه صحته ولا يقارف مستكبرات الذنوب .

وكأن ابا العلاء بذلك يرمى إلى بيان الصورة التى كان الحكام يعيشون عليها فى عصره من اسراف فى الظلم واسراف فى تبديد شبابهم واموالهم ونقض لعهود الجوار ، وكبرياء وترفع على رعيتهم .

وكرر ابو العلاء هذا النهج فى الحكم كثيرا فى شعره ، ولكنه فى القصيدة الآتية اكثر حزما وتهديدا للحكام الظالمين ، يذكرهم بأن حياتهم فوق فوهة بركان، وأنهم اعزة اليوم أذلة فى الغد ، فيقول (١) .

أجمل فعالك إن وليت ، ولا تجر ... سبل الهدى ، فلكل وال عازل
العالم العلوى فيما خبروا ... شيم بها قدر الكواكب نازل
أترى الهلال ، وليس فيه مظنة ... يصبو إلى جوزائه ويغازل
وينال نصب يطيل غناءه ... فله ، كسارى المدلجين منازل
ويقيم فى الدار المنيفة ليلة ... وإذا ترحل لم يعقه الآزل

ونقد أبى العلاء السياسى فى هذه القصيدة يعتمد على المقارنة بين أفعال البشر الذين يضلون عن سبل الهدى ، وبين أفعال الكواكب والنجوم التى تتسم بالدقة

---

(١) لزوم ملا يلزم ج ٢ ط بيروت ص ٢٧٤ .

والادب — إذا جاز هذا التعبير ، وكأنه يعطى للكواكب السيارة عقولا تهتدى بها بينما الساسة لا يهتدون بعقولهم ويتخبطون فى سياستهم العقيمة .

يخلط ابو العلاء — بذكاء نادر — بين خروج الولايه من بيت الوالى ، وبين خروج النفس من جسد الفتى ، وأن خير ما يفعله الوالى هو العفة والبعد عن الدنايا والكذب ويدعو الناس إلى تحرى الصدق فى حكمهم والا يجزلوا فى الكلام والوش ارتقاب العطاء الجزيل ، فيقول : (١)

نفس الفتى وليت له جسدا ان الولاية بعدها عزل
قض الزمان بعفة وتقى فلكل مطعم أكل نزل (٢)
لا خير فى جزل العطاء ، أتى رجلا بأن كلامه جزل
يرجو ، فيمدح غير مرتقب ربا وكل مقاله ..... ازل (٣)
شهرت سيوف القول طائفة كذب وأفضل منهم العزل

ويرجع زكى المحاسنى (٤) هذا الاهتمام الواضح من المعرى بالقضايا السياسية فى عصره إلى صلته بالوزير أبى القاسم المغربى ، السياس الندب الذى لزم والده ، العزيز صاحب مصر ثم تكدر ما بين والده ابى الحسن وبين هذا الحاكم فانتهى الامر إلى قتله ابا الحسن فهرب ابنه ابو القاسم إلى الشام وجعل يلزم الأمراء والملوك فى أمصار العرب ويحمل بعضهم على محاربة بعض من حدود حلب إلى ثغور مصره واتصل بأ . اء العراق . وكان آخر أمره عند أبى نصر بن مروان بميافارقين ،

ولا شك عندى أن أبا العلاء لم يمارس السياسة النظرية بسبب قربه من هذا

---

(١) نفس المصدر السابق ص ٢٧٨
(٢) نفس المصدر السابق ص ٢٢٨
(٣) نزل — ماهيء الضيف
(٤) ازل — كذب
(٥) زكى المحاسنى : نقد الحضارة عند أبى العلاء ص ٦٣ وما بعدها .

الوزير او ذاك . وقد كانت سياسة هذا الوزير ضد مبادىء أبي العلاء الذى كان يرى أن كل بلاد المسلمين بلاده : (١)

اذا مت لم أحفل أبا الشام حفرة   حوتني أم ريم بريمان ومنهال(٢)

ويأسى أشد الاسى للفتن التي تسعى بين صفوف المسلمين من الفرات الى النيل(٣):

وما أذهلتني عن ودادك روعه   وكيف وفي أمثالها يجب النبط
ولا فتنة طائيـــة عامريـــة   يجرق في نيرانها الجعد والسبط
وقد طرحت حول الفرات جرانها   إلى نيل مصر فالوساع بها تقطو(٤)

والاسلام يفيض على الأمة الاسلامية بأسرها من خيره وتوحيده ، فيلغى الفرقة والدسائس والفتن فيما بينها : (٥)

سلام هو الاسلام زار بلادكم   ففاض على السنى والمتشيع

ولا يستقيم منهج أبي القاسم المغربي الوزير الذى يقول عنه زكي المحاسنى أنه عاش حياته يؤلب المسلمين بعضهم على بعض ، ويشعل نار الفتن والحروب مع منهج أبي العلاء الذى كان يتوق إلى وحدة العالم الاسلامي في وجه المصائب والشدائد التي توالت عليه في تلك العصور . فليس معقولا أن يتأثر به ، وأن كان مدحه أو رثاه فذلك لصلات شخصية فقط . ينبغي أن تكون بعيدة عن تقويم منهج أبي العلاء في نقده السياسي . ويقع «بندلي جوزى»(٦) في خطأ فادح حين يرجع جرأة أبي العلاء الفكرية في نقده الاجتماعي بعامة الى تأثره بآراء الاسماعيلية الداعية إلى

---

(١) سقط الزند (٢ : ٤) ص ١٦٨١
(٢) ريمان : اسم جبل
(٣) سقط الزند (٢ : ٤) ص ١٦٣٥
(٤) عمت الفتنة الطائية هذه البلاد فالقادر الجليد فيها كالعاجز البليد .
(٥) سقط الزند (٢ : ٤) ص ٢٠٤٣
(٦) بندلي جوزى : من تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام جـ ١ ص ١١٤

الحرية الفكرية ، والجرأة فى تناول المسائل ونقدها ، فيقول :

« إن الحركة الاسماعيلية مهدت السبيل لنشر الأفكار الحرة فى العالم الاسلامى وجرأت الناس على المجاهرة بها بعد أن كانوا يخافون فيما هو أقل منها خطـرا ، ونظلم أبا العلاء لو أرجعنا أسباب جرأته السياسية إلى آراء الاسماعيلية التى لم تلصق به طويلا .

ولقد كان أبو العلا حرا فى تفكيره ، يأبى أن يقيد نفسه بالتزام معين نحو فكرة محددة .

ولو كان أبو العلاء يحتاج إلى رعايه وزير أو أمير لاجاب أبا نصر صـدقه ابن يوسف الفلاحى بالايجاب لما استدعاه إلى حضرة الأمير عزيز الدولة ، ولكنه يتحايل إلى الاعتذار بشتى الاعذار ، ويبالغ فى التهوين من شأن نفسه حتى يكون له العذر فى عدم الذهاب الى حضرة الأمير ، فيقول :

« وأن العامة عهدتنى فى صدر العمر استصحب شيئا من أساطير الاولين فقالت عالم . والناطق بذلك هو الظالم . ورأتنى مضطرا الى القناعة فقالت زاهد وأنا فى طلب الدنيا جاهد . وزاد تقول العامة على حتى خشيت أن أكون أحدا الجهال الذين ورد فيهم الحديث المأثور « إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من صدور النـاس ولكن يقبض العلم بموت العلماء حتى اذا لم يبق عالم أتخذ الناس رؤساء جهـالا فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا » . فغدوت حلس ربع . كالميت بعد ثلاث أو سبع . وحدثت عله كنى عنها فى المستمع وعاقت عن الحضور بالجمع . »(١)

فهو من أجل الاعتذار ينفى عن نفسه صفة العلم ، ويدعى بأنها صفة أسبغها عليه العامة وهـو لا يستحقها وإنما كان يعيد ويكرر شيئا ممـا قاله الأولون فى أساطيرهم وحكاياتهم وهو من أجل الإعتذار عن مصاحبة ذوى الجاه والسلطان

---

(١) رسائل أبى العلاء المعرى (ط) اكسفورد ص ٥٩ ، ٦٠ .

ينفى عن نفسه صفة الزهد والقناعه ويدعى أنه يلهث وراء مطالب الحياة وزيفها. وهو يخشى على الناس أن يظنوا به العلم فيضلهم عن سواء السبيل كما جاء فى الحديث المأثور . ويدعى انه أصبح عاجزا عن القيام وعن حضور صلاة الجمعة وهو يخلص من هذا الى أن صيته وشهرته غلبت حقيقته ، وكأنه بذلك ينفر عزيز الدوله منه ويهون من زيارة كان عزيز الدولة يأمل فيها :(١)

« وانما ذكرت ذلك لينتهى الى حضرة السيد عزيز الدولة أعز الله نصره أنى تخلفت عن خدمته بمرض . منع أداء المفترض . وأن الذكر ليطير الرجل وغيره الخطير كم من شجرة شاكة ظلها ليس برحب . وثمرها غير عذب . اسمها السمرة وكنيتها أم غيلان ، تذكر فى افاق البلاد . وغيرهما من أشجار الثمار انذكر نكر والارماء لاتوجبه للشىء الاسماء. رب أسود كريه الرائحة يسمى كافورا أو عنبرا.

وقبيح الصورة من البشر يدعى هلالا أو قمرا . وكيف يتأدى العلم الى وأنا رجل ضرير وكفى من شر سماعه . ونشأت فى بلد لا عالم فيه ، وانما تشبث النامية بالجوازع

ولم أكون صاحب ثروة فكيف الحداء بغير بعير . والاباض مع فقد التوتير »

كان أبو العلاء ـ بعد قراءة هذا النص ـ يتجنب صحبة الحكام لما فيها من اضرار أهمها التبعية المفروضة ، فضلا عن كون حكام ذلك الزمان لم يمثلوا فكرة أو مذهبا ينافح عنه الشاعر كما نافح المتنبى عن سيف الدولة مثلا ، بل أن ابا العلاء يرى فى هذه العلاقة نوعا من النفاق الذى لا يرتضيه لنفسه ولا لنفس ممدوحه وقد جاهر بهذا الرأى حين أرسله أهل المعرة شفيعا لهم لدى صالح بن مرداس الكلابى ، فقال :(٢)

---

(١) نفس المصدر السابق ص ٦٠ .

(٢) لزوم ملا يلزم ط بيروت ج ١ ص ٤٠٤

تغنيت فى منزلى برهـة ستير العيوب فقيد الحسد
فلما مضى العمر الا الأقل وحم لروحى فراق الجسد
بعثت شفيعا الى صـالح وذاك من القوم رأى فسد
فيسمع منى سجع الحمـام وأسمع منه زئير الأسـد
فلا يعجبنى هـذا النفـاق فكم نفقت محنـة ما كسد

وهكذا كان شيخ المعرة يتأفف من قرب العظماء ومن أعطياتهم وهباتهم لأنه يعرف مراميها ومغزاها وهو استعباد قلبه، ولذلك رفض كل العروض التى زينت له حياة الدنيا .

ومضى فى طريقه مرفوع الرأس والهامة والجبين ، لا يقصد أميرا أو حاكما إلا لشفاعة فى مظلوم مثلما تشفع لهذا الغلام المحبوس من أجل أمه المسكينة الحزينة.

وقد نفذت رقعتى بالأمس اليه اطال الله بقاءه أحثه فيها على اطلاق محبوس فى اطلاقه صلاح . وما سألته أن يصفح عن جنايته ولا يتجاوز عن ذنبه .

وفى هذه السيرة (١) جاءت أمه محزونة كئيبة ، تزعم أن طملا (٢) دخل عليها فى الجهمة (٣) فذبح لها ولابنها أربعا من أمات الكيك(٤) . وهى متفجعة لذلك كأنها من الدجاج الذى زعم الاسكندر لملك فارس انه كان يبيض الذهب. والدجاجة اذا سمحت بذات الغرقى ، فهى عند الفقير أكرم من الناقة الغزيرة . والجدى عند المعدم مثل عليان (٥) عند كليب وائل . ولعل أصوات هذا الدجاج كان فى اذن هذا النصرانى أحسن من غناء معبد والغريض . فأما أمه فلا شك أنها

---

(١) الغداة الباردة .
(٢) لص فاسق
(٣) آخر الليل .
(٤) الدجاج
(٥) اسم جمل كان من كرام الابل

تعد البيض من أكبر عدة وأنفس ذخيرة . تعضد به عينها إذا اشتكت، وتجمع منه الفاردة بعد الفاردة (١) فتبتاع به دهنا للمصباح . والعجيب لغبارة هذا اللص كيف لم يعنف الى الدجاج شيئا من الدقيق ليكون قد جمع بين الخبزة والخبرة . ولو كان هذا النصرانى جنى جناية لما وجب على دجاجة ذبح .

وأن تأخر اطلاقه جاز أن يسرق الدقيق وغيره . فان رأى أن ينظر فى أمره فعل ان شاء الله . (٢)

وكأن الجاحظ هو الذى يعرض القضية هنا . قضية الفتى النصرانى الذى ارتكب ذنبا فحبسه الوالى . فذهبت أمه الضعيفة فى يوم بارد تشكو للمعرى كيف هجم عليها لص فاسق فى آخر الليل وقد خلت الدار من ابنها الذى يحميها واخذ دجاجة من دجاجها الذى يمثل ثروتها واعتمادها عليه فى حياتها . ويبين اهمية الدجاجة فى حياة الفقراء وكيف يعتمدون على بيضها فى شراء الدهن للمصباح ، وكيف أن غناءها فى أذن النصرانى السجين وأمه احلى وأشجى من غناء معبد والغريض معا . بل أن أمه اذا مرضت عينها تعالجها بالبيض. وفى أسلوب سهل ضاحك ساخر يعجب المعرى لهذا اللص الذى لم يسرق الدقيق أيضا ليصنع خبزه . وكأنى أراه يبتسم ، بل ويضحك من اعماقه وهو يطلب من الحاكم أن يطلق سراح السجين قبل أن يسطو اللص الفاسق مره أخرى على بيتهم فيسرق ما تبقى من الدجاج والدقيق معا . وقد حطم ابو العلاء أسطورة التعصب الدينى الذى رأيناه عند تاذرس النصرانى وزير صالح بن مرداس والذى نكل بأهل المعرة صورة الصراع بين المسيحيين والمسلمين . ولكنه فى اعماقه البعيدة كان يمثل صورة الصراع بين الظالم والمظلومين . بدليل أننا لا نجد صورة لهذا الصراع فى وساطة المعرى لاطلاق سراح هذا الفتى النصرانى شفقة به وبأمه .

---

(١) الواحدة بعد الواحدة

(٢) رسائل أبى العلاء المعرى ط بيروت ص ٢٢٥ ، ٢١٦

لم يكن شيخ المعرة يطمع فى قرب الحكام ، وهو الذى ملأ الدنيا صراخا من ظلم الحكام وجورهم وعسفهم (١)

مالى غدوت كقاف رؤبة (٢) قيدت فى الدهر ، لم يقدر لها أجراؤها
أعللت علة قال ، وهى قديمة أعيا الأطبة كلهم إبراؤها
مل المقام فكم أعاشر أمة امرت بغير صلاحها امراؤها
ظلموا الرعية واستجازوا كيدها فعدوا مصالحها وهم اجراؤها (٣)

فأبو العلاء يرى أن أمراء الرعية هم خدمها واجراؤها ، وأن دورهم الحفاظ على مصالحها والسهر عليها لأن الرعية تعطيهم المال والأجر على ذلك ولكنه يرى ، الأمور تسير فى غير هذا الخط السليم ، فالامراء يأمرون ويحكمون ويظلمون ولا يسهرون على راحة الناس . ولذلك كره مقامه فى هذه البلد ووسط هذه الأمة التى تحكم بهذه الطريقة الظالمة .

ويثور المعرى على أولئك الذين يقعدون ساكتين لايطرقون طرق المعالى ولا يسعون إلى الحرب والكفاح المقدس فى انتظار قدوم المهدى المنتظر ، ويثور على كثرة المذاهب السياسية ، من دعاة المهدى المنتظر ، إلى الزنج ، والقرامطة ويرى فى هذه المذاهب السياسية تجارة يتجر بها الرؤساء ليتسنموا ذروة الحكم ليس غير ، وهو يوجه الحديث بقوة وعنف إلى كل ملوك البلاد : (٤)

ياملوك البلاد ، فزتم بنسء الـ ـعمر والجور شأنكم فى النساء (٥)

---

(١) لزوم مالا يلزم ط بيروت ج ١ ص ٥٤

(٢) رؤبة ، هو الرجاز رؤبة بن العجاج . وقافه هى أرجوزته التى رويها القاف المقيدة وصف فيها مفازة ، ثم انتقل الى مدح ابى مسلم الخراسانى ومطلعها وقاتم الاعماق خاوى المخترق .

(٣) عدوا مصالحها ، تجاوزها .

(٤) لزوم مالا يلزم ط بيروت ج ١ ص ٦٦

(٥) نسء العمر : أى تأخير الاجل . النساء : طول السير

ما لكم لاترون طرق المعالى   قد يزور الهيجاء زير نساء
يرتجى الناس أن يقوم إمام   ناطق ، فى الكتيبة الخرساء (١)
كذب الظن لا إمام سوى الـ   عقل ، مشيراً فى صبحه والمساء
فاذا ما أطعته جلب الـ   رحمة عند المسير والارساء
إنما هذه المذاهب أسبا   ب لجذب الدنيا إلى الرؤساء
غرض القوم متعة ، يقو   ن لدفع الشماء والخنساء (٢)
كالذى قام يجمع الزنج بالبصـ   ـرة والقرمطى بالأحساء (٣)

وينكر أبو العلاء فكرة المهدى المنتظر لأنه يقدس العقل ، يرى أنه الأمام الحقيقى الذى يهدى إلى سواء السبيل ، ولم يكن يفهم هذه الرموز التى يدعيها منتظرو المهدى القادم ولعل هذا ينفى عنه صفة الاسماعيلية التى أسبغها عليه « بندلى جوزى» (٤) .

كما تنفى عنه صفة التأثر أو التبعية لمذهب سياسى أو فكرى معين وكان هاديه ومرشده دائما هو العقل :

« أما العقل فقد قال أبو العلاء أنه اعتمده أصلا أول المعرفة وصرح بإيمانه به ، وألح فى الدعوة إلى الائتمام به والاهتداء بهديه (٥).

---

(١) الكتيبة الخرساء : التى لا يسمع فيها صوت لكثرة الجلبة الإمام الناطق لأنه يدعو الى نفسه وهو المهدى المنتظر والناس خرس أو صامتون لأنهم لا يفهمون الدعوى

(٢) الشماء : المرتفعة قصبة انفها الخنساء : التأخر انفها عن وجهها مع ارتفاع فى الارتبة وأراد بهما العزيزة ، والذليلة

(٣) الزنج : جيل من السودان والذى جمعهم فى البصرة للخروج بهم على المسلمين محمد ابن أحمد وادعى أنه أحد حفدة سيدنا على بن أبى طالب . القرمطى هو أبو القاسم بن ذكرويه خرج فى أيام المكتفى العباسى .

(٤) بندلى جوزى : من تاريخ الحركات الفكرية فى الاسلام ج ١ ص ١١٤ ومابعدها

(٥) د . عائشة عبد الرحمن : الحياة الانسانية عند أبى العلاء ص ١٠

ويسخر أبو العلاء بمن يدعى الملك وينادى بأن الملك لله وحده ، وأن كل ملك أرضى يفنى ويذهب :(١)

لا ملك الملك المقصور نعله   وكل ملك على الرحمن مقصور (٢)
مضت قرون وتمضى بعدنا أمم   والسر خاف إلى أن ينفخ الصور

ويخطىء أبو العلاء فى رأيه حينا حين يدعو إلى مداراة الظالم وتقبيل يده ، مادام المظلوم غير قادر على قطع هذه اليد الظالمة ، وهو يعمم قضية الظلم هنا ولا يخص بها الحكام أو الساسة ، وإنما يرمى كافة بنى آدم الذين أشعلوا نار الضغينة فى النفوس . (٣)

يقول لك العقل ، الذى بين الهدى
إذا أنت لم تدرأ عدواً فداره (٤)
وقبل يد الجانى الذى لست واصلا
إلى قطعها وانظر سقوط جداره
... رأتك البرايا ظالما يا ابن آدم
وبئس الفتى من جار عند اقتداره
ونالت أذاة عنه جاراً ونائيا
وأمن منه ضيغم فى خداره
... وما برحت فى الصدر للضغن أنؤر
عجبت لها لم تشتعل فى صداره (٥)

---

(١) لزوم مالا يلزم ط بيروت جـ ١ ص ٤٤٦
(٢) المقصور — لقب عمر بن حجر آكل المرار ، لقب به لاقتصاره على ملك أبيه
(٣) لزوم مالا يلزم جـ ١ ص ٥٢٨ ط بيروت .
(٤) تدرأ : تدفع دفعا شديدا
(٥) الصدار : قميص يستر به الصدر والمنكبان

وكأنه يرى المسلمين وهم يتطاحنون ويفترس بعضهم بعضا ، ويطعن الجار جاره بينما العدو رابض فى مكمنه كالأسد لا يقترب منه أحد . ومع ذلك فأنه ينصح بتقبيل يد الجانى ، واظهار المودة له والخضوع لسلطانه ، وأى ضعف أشد من هذا الضعف الذى يدعو اليه أبو العلاء ؟ وهل يدعو العقل إلى الاستكانة والضعف بينما الواجب على المسلم أن يقوم الظالم بيده أو بلسانه أو بقلبه وهذا أضعف الأيمان . وكيف يبتسم هذا مع شعور المعرى بأن المسلم أصبح غريبا فى دياره يسير فيها وكأنه يطأ أرض « عاد » التى خربت وأصبحت لا وجود لها (١).

والحر فى أوطانه متغرب فتظنه فى مصره بوبار (٢)

ويرجع سبب تناقض أفكار أبى العلاء أحيانا إلى أخذه بالتقية الفكرية وهو لا يفصح عن أفكاره بالقدر الكافى حتى لا يقع تحت طائلة الحكام الذين يوجه اليه سهامهم ، ولذلك يلجأ أحيانا إلى التراجع والظهور بمظهر الخاضع المستكين لكى يمهد لنفسه أرضا يبذر فيها بذور ثورته ونقده . وقد تنبه عمر فروخ إلى هذه الناحية فى أدب المعرى ، فقال : (٣)

« يأخذ المعرى بالتقية الفكرية فهو لا يحب أن يصرح بارائه لاعتقاده أن ذلك مضر به ومضر بالناس . ولذلك يلجأ أما إلى كتمانها (ولعله كتم كثيراً عما كان يعتقد) وأما إلى الأعراب عنها بصورة رمزية وتراكيب معقدة أو بالتلميح فقط وإما يذكر الحقائق مجردة من كل تعليق وتعليل ثم يذكر معها أمورا ينفر منها بعض الناس بطبعهم فاذا وازن الناس بين ما قبلوه وهم يستحسنونه ، وبين ما يرفضونه عادة وهم بلا ريب يستقبحونه ثم رأوا أن الأمرين شبيهان أدركوا

---

(١) لزوم ما لا يلزم جـ ١ ص ٥٨٨ ط بيروت
(٢) وبار : كانت محلة عاد ثم لم تسكن بعد أن أهلكهم الله .
(٣) عمر فروخ : حكيم المعرة ص ٢٠٥

ماأراده المعرى من غير أن يذكره هو صراحة ، ولعل هذا النص يفسر التناقض الذى يقع فيه أبو العلاء حينا ولعله يريد هذا التناقض عامـــدا حتى يلبس نقده الاجتماعى ثوب الغموض وينقذ نفسه بدفع الاتهام عنها إذا دعت الحاجة إلى دفاع.

ويعنف أبو العلاء أحيانا فى نقده السياسى ولا يأبه بعقاب قد يلحق به حين يتعلق الأمر بالأمن والحفاظ عليه. وقد كان اللصوص يعيثون فسادا فى الأرض ولا يأبهون بسطوة حاكم أو أمير مما يعرض أرواح وأموال الرعية للخطر الدائم المستمر ولذلك يوجه المعرى القول إلى أحد الأمراء معنفا : (١)

أما لأمير هذا المصر عقل يقيم عن الطريق ذوى النجوم ؟
فكم قطعوا السبيل على ضعيف ولم يعفوا النساء من الهجوم
هم ناس ، ولو رجموا استحقوا بأنهم شياطين الرجـــــوم
إذا أفكر اللبيب رأى أموراً ترد الضاحكات إلى الوجوم
إلى الليثين ترسل باقتدار نوائبها يد القدر الهجوم
فمن أسد يعد من الضوارى ومن أسد يعد من النجوم

أن مخاطبته للأمير بأنه لا عقل له يستطيع به أن يدبر أمور الرعية لهو من القسوة والقوة بحيث لانجد نقدا سياسيا أقوى فى صراحته من هذا النقد الذى يرمى به أبو العلاء كا يرى بالسهام القاتله. وهو يبرر بعد ذلك تهمته للأمير بوصف هؤلاء اللصوص الذين حرموا الناس الأمان والاستقرار وهددوهم فى كل أوان وهو فى نظرته إلى الأمير بأنه أجير عند الرعية من واجبه حمايتها ، وذلك لأن المجتمع عنده يقوم على أسس العدل والمساواة وأنه لا فرق بين أمير

---

(١) لزوم مالا يلزم جـ ٢ ص ٤٦٥ ط بيروت

وحقير فالكل متقاربون حتى وأن اختلفت مستوياتهم . يقول فى الفصول والغايات :

« الناس كبنائك أن كان غير متساو ، فانه ليس بمتباعد الشاو ،
كلنا ذو عيب ، رجل يظهر مالديه ، ورجل يستر ربه عليه ...»(١)

ويرى أبو العلاء أن الأمة جميعها يخدم بعضها بعضا ، وأن الانسان مهما صغر حجم العمل الذى يقوم به ، فانه يلعب دوراً حيويا بالنسبة لحياة الناس جميعا ،

ويضرب مثلا لذلك بأعضاء الجسم ، وأن الأقدام خلقت المشى وأما الكف فان لها وظائفها الأخرى ، وأن أهل البادية وأهل الحاضرة متساويان فى الفضل والخدمة (٢)

المرء كالنار تبدو عند مسقطها ... صغيرة ، ثم تخبو حين تحتدم (٣)
والناس بالناس من حضر وبادية ... بعض لبعض وإن لم يشعروا خدم
وكل عضو لأمر ما يمارسه ... لامشى الكف بل تمشى بك القدم
وعالم ظل فيه القول مختلفا ... ومحدث هو من رب له القدم
فاذخر لنفسك خيرا كى تسر به ... فإن فعلت ، وإلا عادك الندم

ويرى أبو العلاء أن الشعر لا يحمل كل الأفكار التى يريد أن يعلنها للناس فيلجأ إلى النثر كما فى كتاب الفصول والغايات الذى اتهمه الناس بمعارضته للقرآن الكريم . ولكن نظرة على النقد السياسى فى كتاب الفصول والغايات توحى لنا أن هدف ابى العلاء كان توصيل فكرته إلى الناس بأسلوب نثرى يسهل حفظه كما يسهل

(١) الفصول والغايات ص ١٤٤
(٢) لزوم مالا يلزم ج ٢ ص ٢٦٨ ط بيروت
(٣) مسقطها : أى سقوطها من الزند عند ابتدائه

حفظ القرآن الكريم ،وها هو ذا يوجه كلامه إلى بغاة الآثام ، وولاة أمور الآنام قائلا : (١)

«يابغاة الاثام ، وولاة أمور الانام ، مرتع الجور وخيم ، وغبه ليس بحميد والتواضع أحسن رداء ، والكبر ذريعة المقت ، والمفاخرة شر كلام . كلنا عبيد الله ، فما بال الرجل يقول : عبدى فلان والعبودية فى عنقه ألزم له من طوق الحمامة ، ومؤتى الملك ملكه قاصر الصعلوك على عدمه . وكاسى الجميل حلة الجمال... يتيه الانسى والسرفة (٢) أصنع من الآدمى، تتخذ لنفسها بيتا فى حطام الشجر ورفات النبات يعجب له الراءون ويعجز عنه العاملون .

فأين الزندقة ومحاذاة السور والآيات فى هذا الكلام . وإنما أراد أبو العلاء أن يوجه نقدا إلى طبقة من الناس تتيه على البشر وتقترف الآثام والمعاصى وتسرف فى الظلم ، فوجهها إلى مخلوقات الله الصغيرة التى يفوق صنيعها صنيع البشر ، ويعجزهم تقليدها .

ويدافع الدكتور شوقى ضيف عن طريقة أبى العلاء فى الفصول والغايات بقوله : (٣)

« إن الفصول والغايات لم يقصد بها إلى إلحاد ولا إلى زندقة ، ولا إلى معارضة القرآن ومناقضة ، ومن أين يأتيها هذا وهى تنساق كلها فى التمجيد والتحميد والثناء على الله » .

وإن كان هذا هدف أبى العلاء لكفاه جلالا ولكنه بث فى الفصول والغايات

---

(١) الفصول والغايات ص ٣٩

(٢) السرفة : الأرضة ، أو دويبة سوداء الرأس وسائرها أحمر تضم دقاق العيدان بعضها لبعض وتجعلها بيتا مربعا ثم تدخله وتموت فيه .

(٣) د. شوقى ضيف : الفن ومذاهبه فى النثر العربى ص ٢٨٣ ط ثانية

نظراته النقدية الصائبة فى السياسة ، ولعن الظلم والظالمين ، وطلب من الناس ألا يكونوا ظالمين وألا يخونوا أصدقاءهم أو معاونيهم فيقول :

« لا تكن الظالم ولا معينه ، يزو عنك الشر قطينه ، ولا يحرمك الخالق دينه ، يقطع القرين قرينه ، ويركب المرء سفينه ، ويهجر الأسد عرينه ، يصلح بذلك شئونه ، حتى إذا بلغ حينه ، وسمع خليله أنينه ، وألبس العرق جبينه ، ندم على ما بسط اليه يمينه ، طبع النائم ، على الحلم ، والإنسان على الظلم يظلم الملك خبيره تجبرا ، والغنى فقيره بغيا وتشرراً ، والنظير نظيره خديعة ومكرا ، والعبد أميره خيانة وغدرا (١) .

والخلاصة أن أبا العلاء كان ناقما على الأوضاع السياسية لعصره ، وكان يدعو الى اصلاح هذه الأوضاع بطريق التوجيه والارشاد لا بطريق الثورة والسيف كما كان المتنبى يريد سلفا. وقد بالغ زكى المحاسنى (٢) حين استنتج من شعر المعرى أنه كان عالما بالنظريات السياسية الحديثه كالاشتراكية عن طريق قراءات الترجمات اليونانية . واستدل على هذا ببيت المعرى :

لو كان لى أو لغيرى قدر أنملة من البسيطة خلت الأمر مشتركا

ولكن أبا العلاء كان ينطلق عن إيمان عميق بالمساواة بين البشر وبأن أحداً لا يملك شيئا من هذه الأرض التى نعيش عليها ، وهى مفاهيم دينية لا علاقة لها بالنظريات السياسية اليونانية . وقد كان شيخ المعرة يرى ما يعانيه الناس حوله من ظلم وفقر فى كل الارجاء الاسلامية فقال ما قاله فى نقد الحكام والسياسيين، وركز نظراته نحوهم ليزيلوا عن عيونهم غشاوة الجهل ويعيدوا سيرة أجدادهم العظام فى البطولة والتضحية والفداء ، ومن أجل هذا نظم درعياته ليقارن بين حالى

---

(١) الفصول والغايات ص ٣١١

(٢) زكى المحاسنى : أبو العلاء ناقد المجتمع ص ٧٦ .

الأمة الاسلامية فى قوتها وضعفها ، فى منعتها واستسلامها لضربات الروم .

ويوجه نقده بعد ذلك إلى اهمال الحكام للاصلاح الداخلى وتغاضيهم عن أمور رعيتهم وانصرافهم إلى ملذاتهم واغراقهم فيها اغراقا يضر بهم كأفراد ، وبأممهم كجماعات .

ويحث الناس حثا على أن يكفوا أيديهم عن معاونة الظالم ، ويعطى مفهوما للامير أو الحـــاكم ، بأنه أجير لدى الرعية ، من واجبه أن يسهر على رعايتها وحمايتها .

الفصل الثالث

نقد عناصر المجتمع

أ - المرأة

تلعب المرأة دوراً حيويا أساسياً فى حياة المجتمع ، فهى التى تربى النشء وتغرس فيهم فضائل العادات . وهى التى تحفظ القيم والعادات وترضعها لأطفالها ولذلك فان المجتمعات السعيدة هى التى تحظى بالمرأة الفاضلة التى تصبح محط احترام وتقدير الرجل .

وتختلف نظرة الرجل للمرأة باختلاف الظروف السياسية والاقتصادية . ففى عصور الازدهار والقوة تحظى المرأة بالاحترام والاجلال. خاصة إذا أصحبت النهضة المادية أفكار حضارية متقدمة مثلما فعل الدين الإسلامى فى حياة المرأة العربية، فأعلى شأنها ، وأعطاها حقوقها وصان مستقبلها . وكان الإسلام أكثر الشرائع اعترافا بحقوق المرأة ومكانتها فى المجتمع .

وقد أسهمت المرأة العربية بالكثير فى النهضة العربية والإسلامية . وقفت خلف الرجل الذى يحمل لواء الإسلام فى أقاصى الهند والأندلس تمده بالتشجيع والعون والذاء المعنوى . كما شاركت فى النهضة العلمية والأدبية بقسط وافر ونشأت جيلا من التقاء الصالحين الذين حملوا لواء الفكرة الإسلامية فى أرجاء الأرض .

وبدأت المرأة تفقد مكانتها كلما انحدرت الامبراطورية الإسلامية نحو التفتت والانحلال وكلما شاعت الأفكار التى تدعو إلى اللذات واجتناب الجهاد المقدس ، والقعود عن السعى وكثرة الرقيق الأجنبى وشيوع مجالس الترف واللهو والعبث، وكثرة الفرق السياسية الغالية فى مذاهبها . وانتفاء فكرة الأمن والهدوء لكثرة الانقلابات والمكائد فبدأت المرأة تقبع فى بيتها كسيرة ذليلة ، وأخذ الرجل ينظر اليها على أنها لهوه ومتاعه فقط . وقد جاء المعرى فى وقت اشتدت فيه

المحنة بالأمة الإسلامية ، وشاعت فيها الأفكار الشاذة والعادات المستقبحة ، فلا شك أن تكون نظرته الى المرأة مشوبة بكثير من سحابات ذلك العصر القاتمة:

« وينبغى أن نقر بأن العهد العباسى الذى انصرف فيه خلفاؤه ، وأمراؤه الى شئون السياسة وفتنتها جعلهم يرمون حبل المجون على غارب الأمة . حتى بدت أواخر أيام العباسيين متداعية الأخلاق ومؤذنة بالانحلال ، شأن الأمم فى نهاية عهودها بالمدنية ، كقديم أثينا وروما وحديث باريس . فوجب أن تستهدف المرأة فى مثل هذه العصور لنقد المصلحين الذين يرومون الاخلاق لبقاء الأمم[1] .

وكان أبو العلاء يعنى بالناحية الأخلاقية فى نقد المجتمع ، ويرى أن التهذيب أول وسائل الاعلاء فى مجتمع أصبح يمثل ميدان صراع بين حضارات مندثرة للروم والفرس والعرب ، وصاحبت هذا التحلل الحضارى أمراض اجتماعية خطيرة ، وتلك عصور يشيع فيها الفساد ، وتندر فيها العصمة ، ويكثر فيها اغتنام الفرص ، والتهافت على اللذات ، ولا سيما على ملتقى الطريق بين حضارة الروم ، وحضارة العرب وحضارة الفرس . وكلها فى ذلك العهد حضارات أخذت فى الزوال ، ولم تستبق من المناعة والتماسك ما يزجر النفوس ويعصم الأخلاق ويحيى شرائع الآداب »[2] .

ولم يكن أبو العلاء يكره المرأة كرها غريزيا بل اضطره الى ذلك الكره فساد المجتمع حينذاك ، وكان مبعث نقده المر لها رغبته فى اصلاحها وبيان مسالك الهدى لها والدليل على ذلك أنه كان يحب أمه حبا جما ، وكان يستشيرها فى كل أموره مثلا استشارها قبل رحلته الى العراق فأذنت له :

« على أنى والله قد أعلمتها أنى مرتحل ، وأن عزمى على ذلك جاد مزمـــع

---

(١) زكى المحاسنى : أبو العلاء ناقد المجتمع ص ٢٤ .

(٢) عباس محمود العقاد : رجعة أبى العلاء ص ٥٠ .

فأذنت فيه . وأحسبها ظنته مذقة الشارب[1] ، ووميض الخالب . ولكل أجل كتاب . وحزنى لفقدها كنعيم أهل الجنة . كلما نفد جدد . وشرحه أملال سامع وفناء زمان » [2] ونعاها بشعر يقطر دمعا ودما : [3]

سمعت نعيها صمى صمام — وإن قال العواذل لا هَمام
وأمتنى إلى الأحداث أم — يعز على أن سارت أمامى
وأكبر أن يرثيها لسانى — بلفظ سالك طرق الطعام
مضت وقد اكتهلت وخلت أنى — رضيع ما بلغت مدى الفطام
فياركب المنون أما رسول — يبلغ روحها أرج السلام

ولاشك أنه كان يرى أمه نموذجا فريدا من النساء يود أن يكن عليه من رفعة الأخلاق وطيب المنبت ، وإخلاص للمبادىء وحب للابناء وورع وتقى وعبادة.

وكان قلبه يخفق للمرأة التى يحبها ، شأنه فى ذلك شأن كل رجل رقيق الحس، مرهف الشعور . وله فى الغزل قصائد تفيض بما فى قلبه الكبير الصادق وهو يصف حينا تمنع حبيبته ودلالها فى شعر عذرى طاهر . فيقول [4]:

أسالت أتى الدمع فوق أسيل — وما لت لظل بالعراق ظليل
أيا جارة البيت الممنــع جاره — غدوت ومن لى عندكم بمقيل
لغيرى زكاة من جمال فان تـكن — زكاة جمال فاذكرى ابن سبيل
وأرسلت طيفاً خان لما بعثته — فلا تثقى من بعده برسول
خيـال أرانا نفسة متجنيــا — وقدزارمن صافى الوداد وصول

وهو يصرح حينا باسم حبيبته أمامه التى كلفته فى حبها ما لايطيق ، ومــع

(١) كناية عن عدم تحقق ظنها بسفره فظنت كلامه من باب المزح .
(٢) رسائل أبى العلاء المعرى ص ١٢٩ اكسفورد ، ٦٩ بيروت .
(٣) سقط الزند (٢ : ٤) ص ١٤١٢ .
(٤) سقط الزند (٢ : ٣) ص ١٠٤٠ .

هذا فهو لا يسلو هواها ، وهو يستعذب حبها بمرارته وحلاوته معا (١).

ولقد ذكرتك يا « أمامة » بعدما	نزل الدليل إلى التراب يسوفه
والعيس تعلن بالحنين إليكم	ولغامها كالبرس طار نديفه (٢)
فنسيت ما جشمتنيه وطالما	كلفتنى ما ضـرنى تكليفه
وهواك عندى كالغناء لأنه	حسن لدى ثقيله وخفيفه

وكان أبو العلاء يعظم المرأة التى تهب حياتها من أجل عمل شريف يصون عرضها وينفع الناس ، ومثال ذلك الرواية التى أوردها عن لقاء ابن القارح فى رسالة الغفران بحوريتين من حور الجنة ، فيحكى قصتها فى الحياة الدنيا بما يوحى بوجهة نظره (٣) :

« فتستغرب إحداهما ضحكا . فيقول : مم تضحكين ؟ فتقول : فرحا بتفضل الله الذى وهب نعيما ،وكان بالمغفرة زعيما ، أتدرى من أنا ياعلى بن منصور فيقول: أنت من حور الجنان اللواتى خلقكن الله جزاء للمتقين ، وقال فيكن « كأنهن الياقوت والمرجان » فتقول : أنا كذلك بأنعام الله العظيم . على أنى كنت فى الدار العاجلة أعرف بحمدونه ، وأسكن فى باب العراق بحلب ، وأبى صاحب رحى وتزوجنى رجل يبيع السقط فطلقنى لرائحة كرهها من فى ، وكنت من أقبح نساء حلب . فلما عرفت ذلك زهدت فى الدنيا الغرارة ، وتوفرت على العبادة،وأكلت من مغزلى ومردنى فصيرنى إلى ما ترى . وتقول الأخرى : أتدرى من أنا يا على بن منصور ؟ أنا توفيق السوداء التى كانت تخدم فى دار العلم ببغداد على زمان أبى منصور محمد بن على بن الخازن . وكنت أخرج الكتب للنساخ فيقول : لا إله إلا الله ، لقد كنت سوداء فصرت أنصع من الكافور . فتقول : أتعجب من هذا والشاعر يقول لبعض المخلوقين ؟ :

---

(١) سقط الزند (٢ : ٣) ص ١١٠٣

(٢) البرس : القطن

(٣) رسالة الغفران ط المعارف ص ٢٧٨ ، ٢٧٩ .

لو أن من نوره مثقال خردلة في السود كلهم لابيضت السود

ففى هذه الرواية يحترم المعرى المرأة احتراما كبيراً ، خاصة هذا النموذج الذى يدرك حقيقة نفسه كما أدركتها حمدونة الدميمة باعترافها وهى بعد طلاقها من زوجها الذى يمتهن مهنة وضيعة تتفرغ لكسب قوتها بعمل يدها من مغزلها ، وكذلك توفيق السوداء التى عملت فى دار الكتب تناول النساخ ما يريدون من نسخ فكانت مكافأة الله عز وجل لهما أن جعلها من الحور العين وأسبغ عليها من نعمائه ما عوضها عن شقوة الحياة الدنيا .

وأغلب الظن أن البداية لموقف أبى العلاء من المرأة كانت عندما انصرف الشباب عن حياة الجد والكفاح والسعى ، وفارقوا دروعهم وسيوفهم ، وتركوا أعراض المسلمات نهبا للغزاة الروم ، وأعطوا ظهورهم لآمال أمتهم فيهم واتجهوا إلى المرأة يدفنون بين أحضانها شبابهم الغض. ونرى هذا المفهوم واضحا على لسان امرأة تنصح ابنها بالانصراف عن الزواج والتفرغ لحياة الحرب والجهاد (١) ، فتقـــول :

عليك السابغات فانهنه	يدافعن الصوارم والأسنة
ومن شهد الوغى وعليه درع	تلقـــاه بنفس مطمئنـة
فحن إلى المكارم والمعالى	ولا تثقل مطاك بعبء حنه
فانى قد كبرت وما كعاب	ملائمة عجـوزا مقسئنة
فلا تطع الدوالف مرسلات	فكم أوقعن فى أرض بجنه
يقلن فلانه أبنة خير قوم	شفـاء للعيـون إذا شفنه
لها خدم وأقرطة ووشح	وأسورة ثقائل إن وزنه
فبادر أخذها الخطاب واحذر	فواتك أنهـا علق المضنه
رزان الحلم لو رزئت سهيلا	أو الشعرى لما نهضت مرنه
رجاح لا تحدث جارتيها	بنجوى من حديثك مستكنة

(١) سقط الزند (٢ : ٥) ص ٢٠٠١ .

كأن رضابها مسك شنين ... على راح تخالط ماء شنه
فلا تستكثر المجمات فيها ... فإعراس بتلك دخول جنه
إذا قبلتها قابلت منها ... أريج الروض فى زهر مغنه
تغنت من غنى مال وصبر ... وأما بالقريض فلم تغنه
وليست بالمغنة فى جدال ... وإن جدلت كما جدل الأعنه
أولئك ما أتين بنصح خل ... ولادن المليك ولايدنه
وقد أملن أن يأخذن يوما ... رشاك ولم يقمن بما ضمنه
ولو طاوعتهن لجئن منها ... بأخت الغول والنصف الضفنه
إذا جاورتها نبذت جوارى ... وإلا تلف لى ذنبا تجنه

وهذه القصيدة التى تصور خبرة المعرى بأوصاف المرأة الجميلة ، التى يعددها على لسان أم الفتى حين تشكف لابنها زيف كلام الخاطبة حين تريد خداع الشاب الذى يبغى عروسا فتقلب له الأمور وتصور له القبيح حسنا فى هذا الحوار الممتع الذى نرى فيه واقعية أبى العلاء وخبرته بشئون الحياة الجارية من حوله . كما يكشف أيضا عن السبب الأول الذى دعاه إلى نبذ المرأة ونصح الشباب بتجنبها وهو ان ينصرفوا إلى القضية الاساسية وهى الكفاح وخوض الحرب بنفس واثقة مطمئنة أما السبب الثانى الذى يورده أبو العلاء وهو أن أم الفتى قد أصبحت عجوزا مسنة تثقل عشرة عروس ابنها عليها فهو لمجرد تحليل نفسية أم الفتى التى تكره لابنها حمل عبء الزواج .

ولا ينكر المعرى دور المرأة فى الحياة الاجتماعية . ولكنه يحدد لها وظيفتها فى الجلوس بالبيت وتعلم الغزل كصناعة تفيد منها قومها وبيتها : (١)

علموهن الغزل والنسج والرد ... ن ، وخلوا كتابة وقراءة (٢)

---

(١) لزوم مالا يلزم جـ ١ ص ٦٣

(٢) الردن : الغزل ، وتنضيد المتاع .

فصلاة الفتاة بالحمد والإخلاص تجزى عن يونس وبراءة (١)
تهتك الستر بالجلوس أمام السـ تر ، إن غنت القيان وراءه

ولا شك أن هذا الشطط فى الحجر على حرية المرأة وتعلمها حتى أشرف ما يتعلمه الانسان وهو القرآن الكريم لم يكن مقبولا فى عصر أبى العلاء ولا فى العصور التى تلته بعد ذلك . ولعل جوره هذا على المرأة يرجع إلى تشاؤمه الشديد فى هذا الموضع ، ورغبته فى عدم الاكثار من النسل حتى لايزداد شقاء البشرية بهم ، حتى أنه يتمنى لو أن الوليد يموت ساعة أن تلده أمه لأنه إنما يضر أمه ثم يغير الحياة بعد ذلك ويضاربها :(٢)

فأف لعصريهم : نهار وحندس وجنسى رجال منهم ونساء (٣)
وليت وليدا مات ساعة وضعه ولم يرتضع من أمه النفساء
يقول لها من قبل نطق لسانه تفيدين بى أن تنكبى وتسائى

فقد كان ضجرا بالليل والنهار ، كما كان ضجرا من الرجال والنساء معا ، بل كان ضجرا من الحياة برمتها وزاهدا فى ملاذها ومتعها المشروعة .

وكان أبو العلاء يقدس العقل ويمعن النظر فى أحوال المرأة ، ويحذر من معاشرتها وينصح من رزق حليلة أن يعمل على رضاها ويحذر إغضابها (٤).

بعمرك ! ما غادرت مطلع هضبة من الفكر إلا وارتقيت هضابها
أقل الذى تجنى الغوانى تبرج يرى العين منها حليها وخضابها
فإن أنت عاشرت الكعاب فصادها وحاول رضاها واحذرن غضابها (٥)
فكم بكرت تسقى الأمر حليلها من الغار إذ تسقى الخليل رضابها (٦)

(١) تجزى : تغنى ، لغة فى تجزىء ، يونس وبراءة من سور القرآن الكريم
(٢) لزوم مالا يلزم جـ ١ ص ٦٣ .
(٣) العصر هنا اليوم والليلة ، الحندس : الليل المظلم
(٤) لزوم مالا يلزم جـ ١ ص ١١٦ ، ١١٧
(٥) فصادها : من صاداه أى داراه .
(٦) الغار : الغيرة .

ويرى الأستاذ أحمد أمين أن موقف أبي العلاء من المرأة يتفق مع موقف إخوان الصفاء ويتخذ من هذا التشابه دليلا على تأثره بهم ، فيقول :

« ولهم — أي لإخوان الصفا — في النساء رأي سيء ، وأن لها وظيفتين فقط ، الانسال . وأن يكن ازواجا للذين لا يستطيعون التعفف . وعلى الجملة وظيفة المرأة ان تطيع زوجها ، وتقر في بيتها وتتعفف . وهي لا تصلح النظر في العلوم ، ولا للتفكير في أمر الدين وقالوا : اعلم يا أخي أن هذا الرأي والاعتقاد جيد للنساء والصبيان والجهال والعوام ومن لا ينظر في حقائق العلوم لا يعرفها . ويقولون في موضع آخر : ولا يليق بالعقلاء أن يعتقدوا هذه العقائد فضلا عن الحكماء بل النساء والجهال والصبيان . وربما كان ما نراه في لزوميات أبي العلاء من الحملة على المرأة وفسادها وطلب قصرها على منزلها دون القراءة والكتابة ، ورميها بالاعتقاد في الخرافات والأوهام ، نتيجة للقسم الأول من حياة أبي العلاء حينما كان على الأرجح يدين بتعاليم اخوان الصفا » (١)

غير أن نظرة أبي العلاء المرأة — في ظني — لم تكن نتاج فلسفة خارجية عن ذاته وإنما كان موقفه منها جريا على فساد الرأي العام للعصر بالنسبة المرأة ، كما كان ناتجا من موقفه النفسي الخاص إزاء عجزه عن ممارسة الحياة الطبيعية من حب ومطارحة غرام أو زواج . إذ أن ممارسة هذه الأمور تعطي لونا عميقا للنظرة العقلية التي ينظرها أبو العلاء — فان أشد الناس تصوفا وزهدا في الحياة واغرابا في مذهبه كان يمارس الحياة الزوجية وهو أبو المهاجر رباح بن عمرو القيسي صاحب مذهب الخلة ، وهو علم من أعلام الروحانية أسس مذهبه على الزهد . ذهب فيه إلى القول بالخلة التي استحل بها السرقة والزنا وشرب الخمر والفواحش كلها لا على وجه الاباحة ولكن كما يحل للخليل أن يأخذ من مال خليله . ذهب كذلك إلى اباحة المحرمات احتقارا للدنيا ولكل ما فيها وعدم

(١) أحمد أمين : ظهر الاسلام جـ ٢ ص ١٦٠.

اشغال القلب بالمجاهدة ولقدكان رباح يدعو إلى الرهبنة ويقول أن الانسان لا يصير صديقا حتى يترك امرأته كالأرملة ويذهب إلى مزابل الكلاب وأن كان هو فى حياته الخاصة يسير على غير ذلك فلقدكان متزوجا، والصورة التى بقيت لنا عن زوجته التى يعدها الشعرانى ضمن الصوفية هى هذه العبارة التى قالتها له فى أحد المواقف بينهما ياشهواتى أذهب التمس شهوانية مثلك (١)

فهذا الزعيم الروحى — برغم كل آرائه المتطرفة فى الزهد - كان يمارس حياته الزوجية والمفكرون بحاجة إلى أن يعيشوا كما يعيش الناس، لا أن ينعزلوا ويحكموا على الامور من غير مراس ولا تجربة ، وربما كان ابو العلاء متأثرا بنظرة الصوفية فى القرن الرابع الهجرى الذين كانوا يدعون إلى التجرد « ففى كتاب بستان العارفين لابى الليث السمرقندى الحنفى المتوفى عام ٣٨٣ هـ — ٩٩٥م حض من يستطيع الاستغناء عن الزواج ان يظل حصورا وأن يتفرغ إلى عبادة الله »(٢)

ولم يحافظ الصوفية على مبدأ عدم الزواج إذا كان الشبلى متزوجا (٣) وكان ابو عبد الله محمد بن خفيف الشيرازى المشهور المتوفى عام ٣٧١ هـ من نسل أبناء الملوك ولكنه تصوف وكانت النساء يتقربن منه تبركا حتى يتزوجهن « وقد عقد أربعمائة نكاح ولكنه كان يقبل الزواج ، ثم يطلقهن قبل الدخول بهن » (٤) وكان هذا الزواج عند الصوفية يسمى الزواج الظاهرى كما حكاه الحجويرى (٥) فى القرن الخامس لدرجة أن أحد شيوخ الصوفية فى القرن الثالث عشر عاشر زوجته خمسة وستين عاما دون أن يقربها . وكان الحجويرى يقول عن تفضيل العزوبة على

---

(١) د . عبد الحسن الحسينى : النزاع بين الصوفية والفقهاء فى القرنين الثالث والرابع الهجريين ص ٣٨ .

(٢) ادم متز : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى جـ٢ ص ٢٣

(٣) نفس المصدر ص ٢٣

(٤) نفس المصدر ص ٢٣

(٥) كشف المحجوب ص ٣٦٣ عن متز ص ٢٣

الزواج عند طائفة الصوفية وقد اجمع رأى شيوخ هذه الطريقة على أن أحسن الصوفية وأفضلهم المجردون لأن قلوبهم خالية من الآفات وطباعهم معرضة عن المعاص والشهوات وبالجملة فإن اساس هذه الطريقة هو التجريد ، وأن الزواج لغيرهم (١)

وكاد الهجويرى أن يتزوج وجاهد نفسه مجاهدة عنيفة عاما كاملا حتى قرب دينه من الهلاك كما يقول الى أن من الله عليه بكمال فضله وتمام لطفه وأرسل العصمه الى قلبه الضعيف وخلصه من محنة الزواج كما يراها .

ولذلك فانى — بخلاف الاستاذ أحمد أمين — أرجح أن أبا العلاء وقف هذا الموقف العقلى لاعن استقراء لفلسفة اخوان الصفا ولكن عن تجربة شخصية جعلته يقف موقف الحائر المتردد فى الحكم على المرأة : أهى خير أم شر وكان فى معظم الأحيان يغلب جانب الشر عليها .

ونظم ابو العلاء قصيدة طويلة ضمنها مجموعة من نصائحه وآرائه فى المرأة يبدؤها بتحذير الرجل من الاشارة بالسلام للمرأة : (٢)

ولا ترجع بإيماء سلاما على بيض أشرن مسلمات
ألات الظلم جئن بشر ظلم وقد واجهننا متظلمات (٣)
فوارس فتنة أعلام غى لقينك بالأساور معلمات (٤)

والغريب أن ابا العلاء يرسم صورة بارعة بريشة فنان عبقرى للفتاة حين تتزين وتتحلى للايقاع بالرجل ، فيصف خضابها وبنانها الناعم وكلامها الذى يتكسر ويتثنى ولا مبين أحيانا ولكنه حلو المسمع . ويصف الرائحة الجميلة التى

---

(١) نفس المصدر السابق .
(٢) لزوم مالا يلزم جـ ١ ص ٢٣١ وما بعدها
(٣) ألات الظلم : صاحبات الاسنان التى فيها ظلم وهو ماء الاسنان وبريقها
(٤) معلمات : موسومات بعلامات أو مميزات .

تفوح منها وكؤوس الشفتين المختومتين من أندر الوان الخمر المعتقة ، وكأنا به تراه وقد هام شوقاً إلى إحداهن فأخذ يفصل ما حرم منه فى الواقع بوصف جميل فيه لمحة من لمحات الجنس المحروم : (١)

رأين الورد فى الوجنات حيماً فغادين البنان معنمات (٢)
وشنفن المسامع قائلات وكلمن القلوب مكلمات (٣)
نقمن بماء زمزم لا نصارى ولا مجساً يظلن مزمزمات (٤)
وقد يصبحن عن بر ونسك بأطيب عنبر متنسمات
كأن خواتم الأفواه فضت عن الصهب العذاب مختمات
كؤوس من أجل الراح قدرا ولكن ما يزلن مفدمات (٥)
خزون الريق ليس بكل حال على طلابهن محرمات

وها هو ذا بعد ان رسم هذه الصورة الحلوة التى تجعل الرجل يتوق الى عشرة النساء الجميلات ، يعطيه الجانب الآخر الحزين حين توقعه المرأة فى حبائلها فيجد نفسه مثقلاً بأعباء البنين والبنات ، فاذا كانوا من البنين بات يخوف الثكل أو العقوق أو مايخفى من المصائب والأحداث : (٦)

ولكن الأوانس باعثات ركابك فى مهالك مقتات
صحبتك فاستفدت بهن ولداً أصابك من أذاتك بالسمات

---

(١) لزوم مالا يلزم ج ١ ص ٢٣٢
(٢) الحيم : التدويم ، من حام الطير يحيم ، معنمات : مشبهات بالعنم وهو شجر لين الأغصان يشبه به بنان الجوارى
(٣) كلمن : جرحن .
(٤) الزمزمة : كلام المجوس عند أكلهم وهو صوت يرددونه فى خياشيمهم وحلوقهم فيفهم بعضهم من بعض .
(٥) المفدمات : الاباريق المحكمات السد
(٦) لزوم مالا يلزم ج ١ ص ٢٣٣ .

ومن رزق البنين فغير ناء   بذلك عن نوائب مسقمات
فن ثكل يهاب ومن عقوق   وأرزاء يجئن مصممات

وأما إذا رزق الرجل من زواجه بالإناث فالويل له كل الويل . فابنته تريد زوجا وحليا، وليست لها قدرة على مقابلة الخطوب والأحداث إلا باللوم والشكوى والدموع وإذا هوجم الوطن كن عبئا على المحاربين لأنهن لا يفعلن شيئا يرد غارة الأعداء ولذلك فإن من الأصوب دفنهن ، وأما إذا مات الزوج فأن النسوة اللاتى فقدن أزواجهن يصبحن فى أسوأ حال ، وإذا ظللن كان أولادهن شر الأعداء لمن ظللهن، وهكذا تكون النتيجة للرجل الذى وقع فى الشرك حين يتزوج ويلقى الهوان من ذريته البنين منهم والبنات(١) .

وإن نمط الإناث فأى بؤس   تبين فى وجـــوه مقسيات (٢)
يردن بعولة ويردن حليـا   ويلقـــين الخطوب ملومات
ولسن بدافعات يوم حرب   ولا فى غارة متغشمات(٣)
ودفن والحوادث فاجعات   لإحداهن إحدى المكرمات
وقد يفقـدن أزواجا كراما   فيا للنسوة المتأيمـــات (٤)
يلدن أعاديا ويكن عارا   إذا أمسين فى المتهضمات (٥)
يرعنك إن خدمن بغير فن   إذا رحن العشى مخدمات (٦)

ويسدى النصيحة بعد ذلك بعدم السؤال عن أسماء الجارات ، أو التطلع إليهن فى رواحهن وغدوهن لأن ذلك يجلب المعصية للناظر ، ويجعل العقل الراشد يزل

---

(١) لزوم مالا يلزم ج ١ ص ٢٣٢
(٢) مقسيات جبلات
(٣) متغشمات : ماضيات بجرأة
(٤) المتأيمات : المترملات ، الارامل
(٥) المتهضمات من تهضمه — ظلمه وهضمه .
(٦) مخدمات : ذوات خدم وهي الخلاخيل .

نحو الخطيئة ، ولذلك فإن العاقل من تجاهل النظر إلى الإناث*:

وما الجارات إلا جاريات بعيبك إن وجدن مهيات*
فلا تسأل : أهند أم لميس ثوت في النسوة المتخيات
ولا ترمق بعينك رائحات إلى حمامهن مكمات
فكم حلت عقود النظم وهنا عقودا للرشاد منظمات (١)
وكم جنت المعاصم من معاص تعود بها المعاضد معصمات (٢)

وينبه أبو العلاء إلى زيف عكوف النسوة على العبادة ، وأن هذه العبادة لاتعصم من وقوعهن في الخطأ المهلك ، وتعليمهن القراءة أمر غير صائب لايستحق التشجيع والأولى أن تعكف الحسناء على المغزل تصنع ثوبا وهو أكثر فائدة لهن من العكوف على القراءة والكتابة وهن إذا تعلمن لغة من اللغات رجعن من هذا العلم بما يسوء ويخزى وإذا ذهبن إلى العاقل الرشيد ليتعلمن منه سلبن منه العقل وتركته بعد ذلك (٣).

وليس عكوفهن على المصلى أمانا من غوار مجرمات (٤)
ولاتحمد حسانك إن توافت بأيد للسطور مقومات
فحمل مغازل النسوان أولى بهن من اليراع مقلمات
سهام إن عرفن كتاب لسن رجعن بما يسوء مسممات
ويتركن الرشيد بغير لب أتين لهديه متعلمات

(*) لزوم مالا يلزم جـ ١ ص ٢٣٥ .
(*) مهيات : مولمات
(١) عقود النظم : عقود الجواهر المنظومة .
(٢) المعاضد : الدمالج . معصمات : متنقلات غير ثابتة في مكانها .
(٣) لزوم مالا يلزم جـ ١ ص ٢٣٦
(٤) الغواري : الخادعات .

ويضيف أبو العلاء إلى نصائحه بأن يأمر الرجل من بعصمته ـ إذا أطعن أمره ألا يزرن عروسا والا يسمحن بعجوز ماكرة ساحرة تدعى القدرة على عمل الخوارق بدخول بيوتهن لأن الفساد يدخل معها ويصاحب ركابها ، ويطلب من صاحب الدار أن يسمح لهن بزيارة بيته وإذا دخلن خلسة فعليه أن يشيعهن بالسباب والشتم (١)

وإن طاوعن أمرك فإنه غيدا يزرن عرائسا متيمسات (٢)
أخذن كريش طاووس لباسا ومسكا بالضحى متلغمات (٣)
وأبعدهن من ربات مكر سواحر يمتدين معزمات (٤)
يقلن نهيج الغياب حتى يجيئا بالركاب مزممات (٥)
ونعطف هاجر الخلان كيما يزول عن السجايا المسئمات
وجمع طوائف العمار سهل علينا بالجوالب موذمات (٦)
زعمن بأن فى مغنى فقير كنوزا للملوك مصتمات
فلا يدخلن دارك باختيار فقـد ألفيتهن مذممات
وإن خالسن غرتك إرتقابا فحق أن يرحن مشتمات

وكأن أبا العلاء كان يرى نفسه ، ذلك الشيخ الجليل الذى ربما فكر فى الزواج بعد أن وجد حاجته ماسة له ، ولكنه ينصح من كان فى مثل سنـــه بألا يتزوج فتاة صغيرة السن وينصحه إذا أراد أن يتزوج فعليه بالمرأة التى تقدم

---

(١) لزوم مالا يلزم جـ ١ = ص ٢٢٧
(٢) متيمات ٥ قاصدات .
(٣) متلغمات : اللواتى جعلن الطيب فى ملاغمهن أى فى ما حول أفواههن
(٤) معزمات : سواحر
(٥) مزممات : مشدودة الازمة
(٦) طوائف العمار : الأهل الذين يعمرون فى المكان . الجوالب : الابل الموذمات المشدودات بالوذم وهو السير .

سنها وكثرت محن الأيام عليها لأنها أصلب عودا وأكثر قدرة على مجابهة الاحداث .(١)

ولا يتأهلن شيخ مقل ... بمعصرة من المتنعمات(٢)
فإن الفقر عيب إن أضيفت ... إليه السن جاء بمعظلات
ولكن عرس ذلك بنت دهر ... تجنبت الوجوه محممات(٣)
من اللاتى إذا لم يجد عام ... تفوفن الحوادث معدمات(٤)
من الشمط إعتزلن بكل عود ... وأفنين السنين مجرمات(٥)

ويدعو أبو العلاء إلى الزواج بواحدة فقط : لأن تعدد الزوجات يجلب الكثير من المتاعب ولأن النساء مثل الزجاج أن لم تكن رفيقا به تكسر وتناثرت أشلاؤه ويدعو الرجل فى سن الشباب إلى أن يصون نفسه عن التردى فى مهاوى الغواية : (٦)

وواحدة كفتك ، فلا تجاوز ... إلى أخرى تجىء بمؤلمات
وان أرغمت صاحبة بضر ... فأجدر أن تروع بمعرمات(٧)
زجاج إن رفقت به وإلا ... رأيت ضروبه متقصمات
وصن فى الشرخ نفسك عن غوان ... يزرن مع الكواكب معتمات
فقد يسرى النوى إلى مخاز ... بجنح فى سحائب منجمات(٨)

---

(١) لزوم مالا يلزم : جـ ١ ص ٢٣٨
(٢) المعصرة : المرأة الشابة أو التى راهقت العشرين .
(٣) محمات : مسودات .
(٤) تفوفن الحوادث : أى جلبن الحوادث واستقين منها وهن معدمات فقيرات .
(٥) الشمط : الواحدة شمطاء وهى التى اختلط فى رأسها أبيض الشعر بأسوده
المجرمات : الكاملات .
(٦) لزوم مالا يلزم : جـ ١ ص ٢٣٨
(٧) الضر : الزواج بالضرائر . المعرمات : الشدائد
(٨) المنجمات : التى أقلع مطرها .

ويرى أبو العلاء أن الزواج صيانة المرأة، يحيطها بحمايته، ويمنع عنها الحوادث ويسد إحتياجاتها جميعا وحينئذ ترضى عنه بالسكوت عن نقده ويقول أن هذه نصائح عالم بالحياة خبير بها، وأن طبيعة الجسم البشرى تدفعه إلى طلب المتعة والكفاية منها، وهو أضعف من تحمل هذه الطبائع.(١)

وما حفظ الخريدة مثل بعل ... تكون به من المتحرمات

يحوط ذمارها من كل خطب ... ويمنعها مصاعب مقرمات(٢)

إذا الغاران عزتها بحل ... فدينك بالتورع والصمات(٣)

فهذا قول مختبر شفيق ... ونصح للحياة والممات(٤)

طبائع أربع جشمن أمرا ... فاضن لحمله متجشمات(٥)

ولا يشكل طلب المعرى المرأة أن تتزوج تناقضا فى رأيه . لأنه بعد أن قلب النظر فى أحوال المرأة فى عصره فى هذه القصيدة كان يحاول أن ينقذها وأن يرى لها مخرجا من النقطة المظلمة التى وضعها فيها، فهى تتزين وتتحلى وتجلب الساحرة وتذهب للعروس وتحاول أن تتعلم، وترمى بلحظها وسهامها هنا وهناك لكى تجد رجلا وفى النهاية يرى أبو العلاء أن هذه هى النهاية المحتومة لخير المرأة نفسها وإلا إزداد الفساد فى الأرض، فنصح لها بأن تتزوج لأن الزوج من وجهة نظر المرأة يحميها ويقيها شر الزمن وإن كان هذا الأمر عبئا ثقيلا عليه يؤدى به إلى شر النتائج - كما يرى المعرى - لأنه مطالب بأن يبذل الكثير من الجهد ليرضى أمرأته فيكفيها جسديا ومعنويا ويملأ بطنها بالغذاء ويرضخ لمطالب الطبائع التى تحتم عليه أن يعيش كبقية الجنس البشرى .

---

(١) لزوم مالا يلزم جـ ١ ص ٢٣٩ .

(٢) مقرمات : الفحل الكريم .

(٣) الغاران : الفم والفرج ، عزتها : صرتها من المرة والفداء . الصمات : السكوت

(٤) الطبائع فى الجسم : الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة جشمن أمرا : أى كلفن حمل الأرواح . اضن : مرض .

ويحمد النساء اللائى يحترمن أزواجهن ويبذلن لهم السمع والطاعة . وإذا خرجن من بيوتهن لم يتعطرن ، ويستبدلن المنزل بالغزل ولا يقضين أيام الشباب فى كبرياء وبطر وترفع . وتجىء هذه المعانى فى الفصول والغايات[1] على النحو التالى :

« لا احمد نساء عصين الأزواج ، وقعدن على ظهور الركائب حواج البيت ومعتمرات . العوان لاتعلم الخمرة[2] فاتقين الله فى نفوسكن واذا غدوتن لحاجة فغير عطرات . أنسجن فى النسج . وخذن عيدان العوسج[3] واشتغلن بالمغزل عن الغزل . ولاتلقين بالأشر أشرات »[4] [5]

ويحذر من اختلاط المرأة بالرجل ، حتى ولو كان صبيا صغيرا فى سن العاشرة ولا شك أن هذا تجن واضح على المرأة ، وشك مبالغ فيه نحوها :

اذا بلغ الوليد لديك عشرا	فلا يدخل على الحرم الوليد
فإن خالفتنى وأضعت نصحى	فانت وإن رزقت حجى بليد
ألا إن النساء حبال غى	بهن يضيع الشرف التليد

غير أنه من الخطأ المبالغ فيه أيضا أن تظن موقف أبى العلاء من المرأة منفصلا عن موقفه من الحياة ذاتها . اذ كان يراها شقاء وكان يرى أن المرأة مصدر من مصادر هذا الشقاء لانها تلهى الرجال عن جلائل الأعمال ، وتصرفهم عن التقى والدين والكفاح ، ثم تلهيهم بالزواج وتنجب للبشرية المزيد من التعساء الذين

(١) الفصول والغايات : ص ١١٧

(٢) العوان : المرأة التى ولدت أولادا .

(٣) الخمرة : لبس الخمار — أى أن المرأة المجربة لا تعلم كيف تعمل

(٤) العوسج : شجر من شجر الشوك له ثمر أحمر مدور كأنه خرز العقيق

(٥) الاشر : تحزيز فى أطراف الاسنان يكون فى الشباب . أشرات : بطرات

يخرجون الى الحياة وياليتهم ماخرجوا :[١]

نادى حشا الأم بالطفل الذى اشتملت
عليه : ويحك لا تظهر ومت كمدا
فإن خرجت الى الدنيا لقيت أذى
من الحوادث ، بله القيظ والجمدا[٢]
وما تخلص يوما من مكارهها وأنت لابد فيها بالغ أمدا

ولذلك فانه من الخير للبشرية المعذبة أن يكون هناك عزوف من الرجل عن المرأة حتى لا يكون اللقاء سبيلا لانجاب مزيد من المعذبين فى الأرض . ولذلك فهو لا يمل فى اللزوميات من الدعوة الى تجنب النساء وعدم مخالطتهم ، ويسدى نصائحه أحيانا فى صورة مواعظ ، ولعلة كان يرى الآذان قد سدت عن سماع مواعظه .

« اذا أصبح النصح ثقيلا ، والمساجد قالا وقيلا ، وصارت الامارة غلابا والتجارة خلابا ، فالبيت المخفور ، ومجاورة الفور[٣] ، خير لك من مشيدات القصور والفقير أربح صفقة من ذى التاج »[٤]

ولكنه مع ادراكه لفساد هذا العصر ، وأن النصح أصبح ثقيلا على السمع كما فسدت مظاهر الحياة الاخرى . الا أنه كان يرى ان نصائحه هى الدرر التوالى التى يجب على الناس ان يحفظوها ويعملوا بها . ويجعل قضية الرجل والمرأة جزءا

---

(١) لزوم مالا يلزم جـ ١ ص ٣٢٧
(٢) المصدر السابق ص ٣٥٤ .
(٣) الفور : الظباء .
(٤) الفصول والغايات : ص ٢٠٥

من قضية الحياة المعقدة برمتها :[1]

أشدد يديك بما أقــول فقول بعض النــاس در
لاتدنون من النســاء فان غب الارى مـــر
والباء مثل الباء تخفــ ض للدناءة أو تجــر
سل الفؤاد عن الحيــا ة فإنها شر وشــــر[2]
قد نلت منها ماكفا ك فما ظفرت بما يسر

وقضية الحياة عنده غامضة مظلمة. ولقد ظل يحمل مصباح «ديوجين» يبحث عن الحقيقة ويسأل من يقابله عنها . حقيقة هذا النسل الذى يعمر الارض ، ويرى أن الانتساب الى المرأة أكثر ضمانا وقربا الى الحقيقة كما كانت تفعــل الروم لان انتشار الفساد فى الحياة جعل من الصعب الجزم بصحة الانساب[3]

انما نحن فى ضلال وتعليـ ل فإن كنت ذا يقين فهاته
ولحب الصحيح آثرت الرو م انتساب الفتى الى أمهاته
جهلوا من أبوه الا ظنونا وطلا الوحش لاحق بمهاته[4]

ذلك لان الخير قليل فى الحياة ، وكذلك المرأة العفيفة العاقلة نادرة الوجود أيضا[5] :

اذا كانت لك أمرأة حصان فأنت محسد بين الفريق
فإن جمعت الى الإحصان عقلا فبورك مثمر الغصن الوريق

(١) لزوم مالا يلزم جـ ١ص ٤٢٥
(٢) شمر : بالفم العيب .
(٣) لزوم مالا يلزم جـ ١ ص ٢٤٢
(٤) الطلا : الولد من ذوات الظلف
(٥) لزوم مالا يلزم جـ ٢ ص ٢١٠

ولكن حتى لو كانت المرأة عفيفة وطاهرة وطيبة السلوك فانه يدعو الرجل الى الحذر والحيطة :

ولا تأمن فإن النفس أضحت ... الى النكراء كالريح الخريق
ولا تجعل فناءك مستضاما ... بمطلع يكون الى الطريق

ولكنه حين ينظر الى المرأة كأم، يخرجها من حيز هذه القضية المعقدة ويجعلها رمزاً جميلا للتضحية والايثار والمجاهدة ،وهو يفضل الام على الاب ويراها أولى بالرعاية وأحق بالعطف والشفقة والحنان :(١)

وأعط أباك النصف حيا وميتا ... وفضل عليه من كرامتها الاما
اقلك خفا اذ اقلتك مثقلا ... وارضعت الحولين واحتملت تما
والقتك عن جهد والقاك لذة ... وضمت وشمت مثلما ضم أوشما

وكان ابو العلاء فى هذه النظره متأثرا بحبه الشديد لامه وتعلقه بها ، وان كان الاستاذ محمد سليم الجندى(٢) قد اغفل فى بحثه عن ابى العلاء الصلة بين لزومياته ونظرته الى المراة كجنس عام ثم الى الام كفئة خاصة من هذا الجنس ، وهو ينظر فى ذلك الى امه التى جاهدت وكافحت من اجل تنشئته ثم فارقته وهو غريب فى بغداد ، هذه الام - ولا شك — كانت تمثل نمطا مخالفا من النساء كما يرى المعرى .

والخطأ الوحيد الذى ارتكبه أبواه — فى نظره — أنهما ألقيا به فى أتون الحياة المستمرة ليتلظى بنارها ويخوض صراعها الذى لا ينتهى عند حد . وقد رأى ابن كثير فى هذا الرأى كفراً والحادا . وهو لم يقصد الكفر والالحاد ، يقول ابن كثير(٣).

---

(١) لزوم مالا يلزم جـ ٢ ص ٤١٦ .
(٢) محمد سليم الجندى : الجامع فى اخبار أبى العلاء وآثاره جـ ٢ ص ١١٩٠
(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ص ٣٠٦ (تعريف القدماء)

ويقال أنه أوصى أن يكتب على قبره :

هذا جناه أبي على وما جنيت على أحد

معناه . أن أباه بتزوجه من أمه أوقعه فى هذه الدار ، حتى صار بسبب ذلك إلى ما إليه صار ، وهو لم يجن على أحد بهذه الجناية . وهذا كله كفر وإلحاد قبحه الله .

والواقع أن ابن كثير يبالغ كثيرا حين يرمى أبا العلاء بسوء الاعتقاد وهو الذى ينظر إلى الحياة نظرة الزهد والتقشف ويرى فيها عرضا زائلا وزيفا خادعا وأن الإنسان لايفيد منها إلا العذاب ، ولذلك فان مجيئه إلى هذا العذاب مسئولية الأب الذى أقدم على الزواج من أمه . ونلاحظ أنه يلقى بالجزء الأعظم من اللوم على أبيه ويعفى أمه منه . ويؤيد هذا رأينا أنه كان ينظر إلى أمه كظاهرة فريدة وسط جنس النساء . لا تشبههن وإن كانت منهن . بل أن نقده هذا يسرى على آدم وحواء (١) أيضا ، ويتمنى لو كان آدم طلق حواء لكانت انقطعت سلسلة النسل المتواصل التى أدت بالعالم إلى هذه الشرور التى لا نهاية لآفاقها ، وذلك لأنها ولدتهم فى غير طهر ولذلك فان الاطهار نادرو الوجود فى هذا العالم :

ياليت آدم طلق أمهم	أو كان حرمها عليه ظهار (٢)
ولدتهم فى غير طهر عاركا	فلذاك تفقد فيهم الأطهار (٣)

ويتخذ أبو العلاء من الأخلاق ميزانا يزن به الزوجة والمرأة الصالحة ، فاذا اختل ميزان الأخلاق دعا الزوج إلى طلاقها وهجرانها :

---

(١) لزوم مالا يلزم : جـ ١ ص ٤٦٥ .

(٢) الظهار (شرعا) : تشبيه مسلم عاقل بالغ زوجته أو جزءا منها شائعا كالثلث والربع ، أو ما يعبر به عن الكل ، بما لا يحل النظر اليه من المحرمة على التأبيد ولو برضاع أو صهرية .

(٣) العارك : الحائض .

إذا ركبت إجارها ورأيتها تكلم يوما فى القسّر جارها (١)
فبادر اليها البت واهجر وصالها وقل تلك عنس حل راع هجارها (٢)
وإن شاجرت فى ابن لها أو كريمة عليها فياسرها وخل شجارها
اذا شئت يوما أن تقارن حرة من الناس فاختر قومها ونجارها
فنهن من تعطى الرباح عشيرها ومنهن من تنبي بخسر تجارها (٣)

فالمرأة الفاضلة عنده هى التى تنحدر من أسرة كريمة ويدعو الرجل إلى البحث عن أصل زوجته فى عائلتها لأن منهن الصالحة التى يكسب الزوج بالاقتران بها ، ومنهن التى تلحق بالزوج الخسارة والندم . الا أن أفضل الحلول عنده دائما هو ألا يتزوج الإنسان حتى أنه يفضل الخصاء على الزواج ، وأن الرجل العاقل هو الذى يستدفىء بنور العقل :

خصاؤك خير من زواجك حرة فكيف اذا أصبحت زوجا لمومس (٤)
وان كتاب المهر فيما التمسته نظير كتاب الشاعر المتلمس (٥)
فلا تشهدن فيه الشهود وألقه اليهم وعد كالعائر المتشمس
ولبسك ثوب السقم احسن منظراً وابهج من ثوب الغوى المنمس
وإنك إن تستعمل العقل لا يزل مبيتك فى ليل بعقلك مشمس

ويبلغ به النقد اقصى مراحله حين ينعى على الزوج الذى فرح بعروسه وهو يظنها شمس الضحى فاذا هى افعى تذيقه سمها وإذا سليله حنش سام ايضا وإذا

---

(١) الاجار : السطح الذى لا سترة عليه .
(٢) البت : اراد به الطلاق القطعى . الهجار : حبل تشد به الناقة
(٣) التجار : الواحد تاجر ، والمراد هنا : الزوج .
(٤) يشير الى صحيفة : المتلمس خال طرفه بن العبد وقصتها مشهورة فى كتب الأدب
(٥) العائر : الذى فى عينه عوار ، أى قذى ، والسهم الذى لا يعرف راميه . وربما كان تصحيف العابر أى المار المجتاز طريقه .

الخمرة التى نعم بها قد زال مفعولها وظهرت الآلام المبرحة عقب ذلك (١) :

تزوجتها وهى فيما تظن ... شمس الضحى بأواق ونش (٢)
ينوش بها القلب اوطاره ... فليت مـــآربه لم تنش (٣)
عروسك افعى فهب قربها ... وخف من سليلك فهو الحنش
تنشى الفتى بلذيذ المدام ... فكان الخمار عقيب التنش (٤)

ولكن اذا وقع المقدور فهذه الطامة الكبرى ، ولا تسلم المرأة بعدها أيضا من نقد المعرى وسهامه من جعبة لا تنفد سهامها أبدا ، فهو ينصح الأم التى رزقها الله بالبنات بأن تحسن مراقبتهم ، وتمنع عنهن الإختلاط بما قد يفسدهن :(٥)

نصحتك يا أم البنات فحاذرى ... وساوس ولاج الأساود خناس(٦)
ولا تلبسى الحجلين بنتك والبرى ... لتشهد عرسا واشغلنها بعرناس(٧)

ويوضح أن المرأة تبحث دائما عن الرجل القوى الذى يعانقها حتى ولو كان فقيرا ، وأما الشيخ — ولو كان غنيا — فانه لايصلح للفتاة الزهراء الجميلة البيضاء الشابة . ولعله بهذا يوجه نظر الرجال أيضا الذين يتجاوزون سن الشبـــاب ، ويظلون متمسكين بسراب خادع معتمدين على ثرواتهم ولو أنصفـــوا لتوقوا سبيل الغانيات جميعهن :(٨)

---

(١) لزوم مالا يلزم : ج ٢ ص ٨١
(٢) الأواق : الواحدة أوقية . النش : وزن عشرين درهما
(٣) ينوش : يتناول . لم تنش : لم تصب
(٤) تنشى : سكر الخمار : صداع الخمر : التنش : السكر .
(٥) لزوم مالا يلزم ج ٢ ص ٤١
(٦) الولاج : الكثير الولوج . الأساود الواحد أسود : الحية العظيمة شبه الولاج بها
(٧) الحجلين : الخلخالين : البرى الواحدة برة : الحلقة العرناس : من آلات الغزل
(٨) لزوم مالا يلزم ج ٢ ص ١٧٨

إذا خطب الزهراء شيخ له غنى ... وناشىء عدم آثرت من تعانق
وقل غناء عن فتاة وزوجها ... أخو هرم، أحجالها والمخانق
..وما تستوى الأخدان فيم هذه ... مسن وللأخرى ولى غرانق
توقوا سبيل الغانيـــات فكلها ... كليث الشرى والطيب فيها فرانق(١)

ويلجأ أبو العلاء الى الرمز أحيانا حين يناجى الحمامة ويرمزبها للمرأة وكيف أن زوجها قد كساها من الريش والملابس ما تدفع به قر الشتاء، وجلب لهـا الحلى حول جيدها الجميل ولـكن الدهر يخبىء فى طياته لها الصائدين الذين يحاولون غوايتها، ولـكن بيتها — مهما كان بسيطا — أفضل بكثير من بيت مطلى بالذهب يزينه لها غاو من القوم (٢)

قل الحمامة قد أصبحت شادية ... فهجت الذاكر المحزون تشويقا
كساك ربك ريشا تدفئين به ... قر الشتاء. وحلى الجيد تطويقا
فهل تراعين من باز على شرف ... يهدى إليك عن الفرخين تعويقا
أما ترين قسى الدهر وترها ... رام مصيب أعار النبل تفويقا
يغنيك وكرك عن بيت يزينه ... غاو من القوم إذهابا وتزويقا

وهذه المقطوعة الرمزية الجميلة تحمل الـكثير من العظات والنصائح للمرأة التى يحاول المعرى أن يبين لها طريق الخير دائما، سواء فى خطوط حياتها العريضـة أو فى تفاصيل حياتها اليومية حين تذهب الى الحمام، أو حين تمشى فى الطـريق، أو حين تتصامم عن سماع الأوامر والنواهى فتجلب الفضيحة والعـار للاعمام والأخوال، كما جلبت بنات همام بن مرة لأبيهن الهم والحزن حتى اضطـــر إلى تزويجهن وكان يرفض ذلك، ويكرر أبو العلاء كثيرا أن الزواج مصلحة المرأة وخسارة الرجل لأنه يصونها ويحفظها بينما يجلب المهام الثقال إلى الرجل :(٣)

(١) فرانق : أسد
(٢) لزوم مالا يلزم ج ٢ ص ١٩٨
(٣) نفس المصدر ص ١٣٠

إن شئت أن تحفظى من أنت صاحبة
له فلا تدخلى فى المصر حماما

وإن بدوت فلا يؤنسك مر شقة
ضحى تناجين سوارا وزماما(١)

فكم عصيتن بين [illegible] وناهيــة
وكم فضحتن أخوالا وأعماما

ماصانكن سوى الأزواج من أحـــد
وأول الدهر أعييتن هماما (٢)

ويتبع المرأة حتى فى ذهابها للحج ، فما ذهبت إلا لعرض جمالها ، وكان أولى بها أن تلزم بيتها لتصوم وتصلى هناك ولكنها جاءت إلى الحج لترمى الجمرات وأنظار الغواة تتطالع إلى يديها وهذا ما تريده من ذهابها . وما أتت لزيارة النبي أو التوجه إلى الله وإنما للفتنة المهلكة : (٣)

أتت خنساء مـكة كالثريا — وحلت فى المواطن فرقديها
ولو صلت بمنزلها وصامت — لألفت ماتحاوله لديهــا
ولكن جاءت الجمرات ترمى — وأبصـــار الغواة إلى يديها
وليس محمد فيما أتتـــه — ولا الله القـدير بمحمديها
اذا ما رامت الصلوات خود — يظن هناك أفضل ملحديها

ويكرر كثيرا رأيه فى لزوم المرأة بيتها وعدم خروجها منه ولو كان ذلك

---

(١) مرشقة واما من رشقة ببصره أى نظر اليه . أومن رشقة بالكلام : طعن عليه السوار : من تسور الحجر فى رأسه سريعا الزمام من زم الرجل برأسه : رفعه

(٢) همام : أراد به همام بن مرة . وهو يشير هنا الى خبره مع بناته الثلاث اللواتى كان يأبى أن يزوجهن حتى عرضن له فى كلامهن فزوجهن .

(٣) لزوم مالا يلزم : جـ ٢ ص ٦٢٥

الخروج بقصد الذهاب الى المسجد ، لأن مشيتها وتثنيها فى الطريق ، وفواح العطر منها ومن ملابسها يجعلها هدفا للغواة ومصدرا للفساد ، ويرى الشاعر أن كل ما يفوح منها هو السم الذى يفوح من الافعى ولذلك فان من الافضل لها أن تلزم بيتها بمغزلها حتى يحتويها القبر (١) .

شر على المرأة من حماميها | إرسالك الفاضل من زمامها (٢)
ومشيها تضرب فى أكمامها | يفوح ريا الطيب من أمامها
زائر المسجد فى إلمامها | تأثم والخيبة فى ائتمامها
بأحدل ما عف عن كامها | أعاذها الخالق من أمامها (٣)
وريقها الشروب فى صمامها | سمام أفعى بان من سمامها (٤)
ان نزلت عصماء من شمامها | فلا سقاها الطل من غمامها
اذا احتوى الريم على رمامها | لزومها البيت مع اهتمامها
حتى يجيها الوفد من حمامها | وحلها المغزل فى اتمامها (٥)
أوفى بما تعقد من ذمامها

أن موقف أبى العلاء من المرأة كان قسما من موقفه لقضايا العصر كلها . كان يرى الأحوال الاقتصادية تتردى وتسوء بمرور الايام ، وكان يرى الروم يمعنون فتكا بالثغور وانتهاكا للحرمات . وملوك المسلمين يغرقون فى آثامهم حتى الثمالة وانصراف الناس عن الجهاد والحرب إلى اللذات والمجون والعبث . فلم يجد مفرا من النظر فى مكانة المرأة التى أصبحت عضوا عاطلا فى المجتمع لا تزاول عملا معينا بقدر ما تفسد الاعضاء السليمة فى هذا الجسد المنهار . ولذلك فرق أبو العلاء بين

---

(١) نفس المصدر السابق : ج ٢ ص ٤٧١
(٢) ارسالك الفاضل من زمامها : أى اطلاق حريتها .
(٣) أحدل : المائل العنق .
(٤) السمام الأولى : جمع سم : السمام الثانية هم الانسان ومتخراه وأذناه
(٥) أى بلوغها عمر الهرم .

المرأة الأم التى تشبه أمه والتى جاهدت كثيرا وأمتازت بالتقى والورع ولم تخالط الرجال وقضت حياتها بين صوم وصلاة وتربية لأولادها . وهذا هو المثل الأعلى للمرأة عنده . وبين المرأة التى تخرج للحج أو للصلاة فى المسجد وهدفها هو بيان محاسنها لأنظار الغواة أو تذهب إلى الحمام أو تستدعى رجـــلا ليعلمها قراءة أو كتابة أو يقرأ لها طالعها أو تلك الفتاة التى تتزين بأجمـــل أثوابها وتتعطر بأجمل عطرها وتمشى فى الطريق تتثنى أمام الرجال أو تنظر من بيتها إلى جار تحادثه . أو تستدعى السواحر والخاطبات إلى البيت وهن أشد فئات النساء فسادا وغواية. كما انتقد ابو العلاء جلوس المرأة من غير عمل تزاوله فدعاها إلى أن تعمل بالغزل والنسج أفضل من أن توجه همهـا إلى الغزل والغواية . وطلب منهـا الا تبارح بيتها إلا إلى القبر .

ورأى أن خير ما تستعين به هو زوج يكفل لها قضاء حوائجها المادية والروحية ويدفع عنها غوائل الزمن . إلا أن جناية النسل على البشرية أرهقت فكره كثيرا وجعلته يحارب فكرة الزواج حينـا ، ويحبذ العقم حينـا آخر ، ولا يريد لمزيد من البشر أن ينضموا إلى أرض المعذبين .

وإذا أعتبرنا قضية المرأة عند المعرى جزءا من قضية العصر بكامله لم نقف منه موقف الحيرة ، ولم نتهمه بالجناية على المرأة بمقيـاس عصرنا الحديث ولـكن هكذا كانت حال المرأة وهكذا كانت أفكار شاعر مفكر ينقـد المجتمع ويرجو له الصلاح والرشاد .

ب ـ الأغنياء :

كانت الحالة الاقتصادية ـ كما مر فى الكتاب الأول ـ تسوء سنة بعد سنة والمجاعات تهدد العالم الإسلامى من مشرقه إلى مغربه ، والأغنيـــاء يستأثرون بالقوت ويتركون الفقراء يتضورون جوعا .

وكان شعر المعرى يعكس هذه الصورة البشعة للاوبئـة التى اجتـاحت مصر وغيرها ، وماتبع ذلك من توقف مظاهر الحياة الاقتصادية[1] :

ما خص مصرا وبأ وحدها   بل كائن فى كل أرض وبأ
أنبأنا اللب بلقيـــا الردى   فالغوث من صحة ذاك النبأ
هل فارس والروم والترك أو   ربيعة أو مضر أو سبأ
ناجية فى عـــز أملاكها   أن يظهر الدهر لها ما خبأ

وتبع ذلك فساد فى أخلاقيات الأمة الإسلامية ، وانتشرت العادات الذميمة البعيدة كل البعد عن الأخلاق العربية الأصيلة الموروثة ، وتنكب الناس طريق الحق بصورة شكا منها أبو العلاء بمرارة كمرارة العلقم ، فقال :

« أفلا يرى إلى هذه الأمة كيف افتتنت فى الضلالة ، كافتنان الربيع فى إخراج الأكلاء ، والوحش الراتعة فى تربيب الأطلاء (٢) ! والـــكذب سوق ليست

---

(١) اللزومية الثامنـــة والعشرون ط دار المعارف جـ ١ ص ١٨٩ ، ١٨٠ يقول الشارحان (طه حسين وابراهيم الابيارى) وظاهر أنه أراد بهـذا الوبأ الذى نزل مصر ما كان أيام المستنصر بالله أبى تميم معد الفـاطمى ، الذى بقى فى الخـلافة نحوا من ستين سنة وخمسة أشهر فى الهزاهز والشدائد والوباء والغلاء » وقبل أبى العلاء تعرضت مصر غير مرة لالوان من الوباء . وعاصر أبو العلاء جزءا من هذه الحقبة ، حقبة المستنصر ، الا أنه مات قبل أن تبلغ الايام شدتها فى اخر عهد المستنصر ولعله يشير فى عجز البيت الى الطاعون الذى حل بشيراز ، ثم واسط وبغداد والبصرة والاهواز وغيرها سنة ٤٢٦ .

(٢) الأطلاء : جمع طلا وطلو وهو ولد الظبية ساعة يولد

الصدق . تجعل الأسد من أبناء الفرق » (١) ، (٢) .

وعزت الارزاق على الناس نتيجة فساد الخلق ، وفساد الحيـاة الاقتصادية، وتبع ذلك تأصيل اليأس فى النفوس حتى أن أبا العلاء يضطر إلى مخاطبة الناس ليتذرعوا بالصبر ويؤمنوا بالله تعالى وبحكمته فى الرزق :

« لاتقنطن أيها الإنسان فان بانتك عند الله الكريم ، والرزق يطلبك وأنت تبصر الأحلام. لو أن للرزق لسانا هتف بمن رقد ، أو يدا لجذب المضطجع باليد أو قدما لوطىء على الجسد ، لايزال الرزق مرنقا على الهامة ترنيق الطير الظماء على الماء المطمع (٣) .

غير أن « الجبرية » فى التفكير لم تمنعه من توجه النقد إلى سوء توزيع الثروة فى عهده ، واستئثار نفر من الناس بكل خيرات البلاد ، وحرمان الباقين من حق الحياة الإنسانية . وهو يزجى اصلاحه فى صورة نصيحة رقيقة :

« من ذخر جميلا وجده عند الله ، ما هبطت بطن تبالة (٤) لتحرم الاضياف ولا أريح الدثر (٥) عليك لبيت بزيلك وهو عيمان (٦) ولا جمعت لك العروج لينصرف المكال عنك رجلان (٧) ولا عصبت السلم إلا لتشبع الضـان (٨) ، (٩)

(١) الفرق : القطيع من الغنم ونحوها

(٢) رسالة الغفران بتحقيق بنت الشاطىء ص ٤٩٠

(٣) الفصول والغايات : ص ١٢

(٤) ماهبطت بطن .. الخ : مثل يضرب لمن عود الناس احسانه ثم يريد أن يقطعه عنهم . تبالة : بلد بتهامة فى طريق اليمن عرفت بالخصب .

(٥) الدثر : المال الكثير

(٦) العيمة : شهوة اللبن والعطش

(٧) العروج : القطيع من الابل كالأعراج .

(٨) عصبت الشجرة : شددتها اليك ثم نفضت ورقها . والسلم ثمرة صفراء فيها حبة خضراء طيبة الريح وفيها شيء من المرارة ، وتحبها الظباء شديدا .

(٩) الفصول والغايات ص ٧

ويرسم حدود الملكية وهى التى تكفى الإنسان مؤنته :

يكفيك من الابل ذود أو ذودان[1] ناقة للحلب ، وأخرى للركب ، وثالثة لحل الاعباء ([2]) .

وقد عمق الاحساس الاجتماعى فى نفس أبى العلاء أنه يقرأ ويدرس أحوال الأمم والجماعات ، ويرى مايقاسيه العامة من الحرمان والفقر والجوع : وأخلاق متهاوية فى الدرك الأسفل ، وكان بطبيعته يرسم مثلا أعلى للأمور ، ويود لوكان العالم يشبه هذا النموذج الخلاق الذى وضعه أمامه :

« فهذا العالم الذى يرسمه خير لاشك فيه ، ولذة لا ألم فيها ، وعلم لا جهل معه وعقل لاتشوبه خرافة ، وصلاح ليس فيه شيء من فساد ، وعدل صرف وحكمة بالغة وتعاون على الخير ، وسير على الجادة . فلما فرغ من رسم هذا المثل نظر إلى الواقع فصدمه صدمة عنيفة لبعد مابينهما، فأخذ يلعن هذا العالم الواقعى بالنسبة إلى العالم المثالى ، ويصب عليه جام غضبه جمله وتفصيلا[3] .

وما أشقى أن ينظر أبو العلاء فيرى الناس غرباء فى أوطانهم ، هذه الغربة القاتلة تحمل معنى الحرمان من الحنان والعطف والحظ فى الحياة الكريمة أيضا[4]

أولو الفضل فى أوطانهم غرباء — تشذ وتنأى عنهم القرباء
وحسب الفتى من ذلة العيش أنه — يروح بأدنى القوت وهو حباء

فالوطن الذى لايعطى الإنسان إلا أدنى القوت ويعتبره عطاء ومنة لا يمكن أن يشعر فيه الفتى إلا بالغربة .

---

(١) الذود : جمعة أذواد — لا يكون الا من اناث الابل وهو هنا الناقة الواحدة

(٢) الفصول والغايات ص ٧ .

(٣) أحمد أمين : نظرة أبي العلاء الي العالم (الهلال ١٩٣٨) ص ٥٨٧

وقد أدرك أبو العلاء سبب البلاء الكامن فى أمته ، وهى أنها مقسمة بين أغنياء وفقراء ، ولذلك انتشر الشقاء فى البلاد ، وقام الواعظون فى كل مكان ولكنهم لم يصلحوا ما أفسده الاختلال الاجتماعى فانصرفوا وبقيت البلاد كما هى، ويعزو ذلك فى النهاية إلى غباء الأمة وجهلها وقدر الله المكتوب عليها(١) :

ويا بلاداً مشى عليها	أولو افتقار وأغنياء
إذا قضى الله بالمخازى	فكل أهليك أشقياء
كم وعظ الواعظون منا	وقام فى الأرض أنبياء
فانصرفوا والبلاء باق	ولم يزل داؤك العياء
حكم جرى المليك فينا	ونحن فى الأصل أغبياء

وتغلب عليه نزعته الدينية الزاهدة ، فيحتقر الأغنياء ، ويرى أن الناس جميعا فقراء ، وأن هذا الغنى الزائل ليس دليلا على ثراء الإنسان . وأننا إنما نحب العيش بغضا الموت ولا لحلاوة العيش ذاته .وأن الناس قد أصبحوا فى عزلة تامة بعضهم عن بعض ، فيموت الفرد وليس له صديق (٢) .

وجدت الناس كلهم فقير	ويعدم فى الأنام الأغنياء
نحب العيش بغضاً للمنايا	ونحن بما هوينا الأشقياء
يموت المرء ليس له صفى	وقبل اليوم عز الأصفياء

ويرى أن الغنى كل الغنى هو ذاك الإنسان الذى يبيع العالم وملذاته وآماله ومطامحه ، ويذهب هناك فى قمة الجبل أو فى كهف من الكهوف البعيدة النائية وينادى بالعودة إلى الطبيعة ، يأخذ منها الانسان مايكفيه من غذائه ويعطيها مايكفى أيضا لغذاء الطيور من حمائم وغربان :

---

(١) اللزومية العاشرة ط المعارف ج ١ ص ٩٣

(٢) اللزومية الحادية عشرة ط المعارف ص ٩٧

« من عند الله قسمت الجدود(١) ، الغنى كل الغنى رجل فى شمفة جبل يحسب فقيراً وعنده فقير ، وقد شحط عن العالم فهو مستريح والنفس كثيرة الآراب . له تحت المسكن براح يطلب منه رزق ربه كل عام ويودع الأرض ودائع تأكل بعضها الطير الهاتفة(٢) وعوير(٣) فلا يذعر أحدهما ولا يراب(٤)

وهذه النظرة الزاهدة تكشف عن أمر هام هو ضجر أبى العلاء من توزيع الثروة ودعوته الحارة إلى الاكتفاء بالقليل منها ما دام يسد الرمق ، ويكفى الحاجة الضرورية . كما يقول فى الفصول والغايات (٥) .

« بلغة من المأكل ، وحاجب من السترات ، ومذهب للظمأ من الأمواه خير من مال غمر ، ونهى وأمر ، وعسل وخمر .

والدنيا فاحشة العيوب ، وعيوبى أفحش إذ كنت لها من المحبين ، وينبغى للعاقل ألا يرغب فى المعيب » .

وإذا كان أبو العلاء يرى أن الأغنياء فى هذه الدنيا تعبون وأن الفقراء ينعمون بالراحة ، فإن هذا النوع من الاستخفاف بالدنيا ينبىء أيضا عن نظرة نافذة لسوء توزيع الثروة ، فلو لم يكن هناك فقراء وأغنياء لما استدعى الأمر القول بأن الدنيا(٦) :

هويت ولم تسف وراح غنيها ... تعبا وفاز براحة فقراؤها
وتجادلت فقهاؤها من حبها ... وتقرأت لتنالها قراؤها

---

(١) الجدود : الحظوظ
(٢) الهاتفة : الحامة
(٣) عوير : الغراب
(٤) الفصول والغايات ص ٨٤ .
(٥) الفصول والغايات ص ٢٩١ .
(٦) اللزومية الرابعة عشرة ص ١١٣ دار المعارف ط

وهو يستخلص من ذلك فلسفة لنفسه بأن الناس كلهم سواء — الفقراء والأغنياء — وأنهم متساوون حتى وإن اختلفت أقدارهم . فليس الفارق كبيرا بينهم :

« الناس كبنانك إن كان غير متساو ، فإنه ليس بمتباعد الشاو، كلنا ذو عيب، رجل يظهر ما لديه ، ورجل يتر ربه عليه(١) . »

ولذلك فان الانسان العاقل هو الذى يتصف بالكرم ، ويعطى سائله أفضل ما عنده ، ويكسو العارى أفضل ثيابه ، وأن يقوم بالتخفيف عن المتألمين ويمسح دموعهم :

« أطعم سائلك اطيب طعاميك ، واكس العارى اجد ثوبيك ، وامسح دمع الباكية بأرفق كفيك ولا ترم فى الطاعة بمنجاب (٢) » (٣)

ويرى ان اطيب الطعام ما كان آتيا من الكسب الشريف ، وهو يقسم الطعام بحسب حاجة الانسان إليه إلى اربعة اصناف .

« والأطعمة اربعة ، مذهب السغب وذلك طعام الصحيح ومقيم الجسد وذلك قوت المريض ، وقاضى الواجب وهو ما دعا اليه الأولون ، ورابع لا يراد للسغب ولكن للتشريف وذلك طعام الملوك . فاطعمنى اللهم من حل فان بقاء الآكل قصير (٤) .

ولكنه ينظر إلى الصراع الاجتماعى الضارى ، فيرى الناس وكأنهم كلاب تتنازع جيفة ، ويرى نفسه وسط هؤلاء الكلاب يتصارع معهم على هذه الجيفة

---

(١) الفصول والغايات ص ١٤٤

(٢) المنجاب : السهم الضعيف ويقال هو الذى لاريش له

(٣) الفصول والغايات ص ٤٩ .

(٤) الفصول والغايات ص ٤٠٠

المنتنة فاسودت قلوبهم من كثرة التناحر ، وعدم فيهم من يستحق الحمد(١):

وقد غلب الاحياء فى كل وجهه   هوامٍ وإن كانوا غطارفة غلبا
كلاب تغاوت أو تعاوت لجيفة   وأحسبنى أصبحت الأمها كلبا
أبينا سوى غش الصدور وإنما   ينال ثواب الله أسلمنا قلبا
وأى بنى الايام يحمد قائل   ومن جرب الاقوام أوسعهم ثلبا

وكيف لا يوسع الدنيا ثلبا وها هو ذا يرى الشتاء قد أتى وإذا الناس بين فقير وعار جسده ، وأمير يكتسى بأمنع الملابس ضد البرد ، ولا يرى فى الامة إلا أناس يستحوذون على الرزق كله بينما يحرم المحتاجون من القوت الضرورى (٢) .

لقد جاءنا هذا الشتاء وتحته   فقير معرى أو أمير مدوج (٣)
وقد يرزق المجدود أقوات أمة   ويحرم قوتا واحد وهو أحوج
فلا تشهرن سيفا لتطلب دولة   فأفضل ما نلت اليسير المروج

وهو يقلب النظر فى البلاد ليختار أفضلها ، فيجد أن أفضل الأرض ما توفر فيه القوت وقل فيه الناس، وهذا الرأى ينتج عن خبرته الطويلة — كما يقول — ، ولكنه يرى كل بلاد المسلمين تعانى من القحط والخراب مثلما يعانى ساكن القفر (٤) .

خبرت السرايا والتصعلك والغنى   وخفض الحشايا والوجيف مع السفر

---

(١) لزوم مالا يلزم (ط الجمالية) ج ١ ص ٧٩
(٢) لزوم مالا يلزم (ط الجمالية) ج ١ ص ١٦٢
(٣) المدوج : لابس الدواج ، وهو نوع من الثياب تشبه اللحاف من حيث الكثافة وكونها محشوة قطنا أو صوفا ولذلك أطلقوا عليها اسم اللحاف الذى يلبس .
(٤) لزوم مالا يلزم (ط الجمالية) ج ١ ص ٣٠٧

فأطيب أرض الله ماقل أهـــله ولم ينأفيه القوت عن يدك الصفر
يمانى مقيم بالعـــراق وفـــارس وبالشام ما لم يلقه ساكن الثغر

وهذه الأبيات تعكس سوء الأحوال الاقتصادية فى كل البلاد ، تتساوى فى ذلك مصر والشام والعراق وفارس .

ويدعوه هذه أحيانا الى الكفر بقيمة الكلمة وأثرها فى الحياة ، فهو يرى أنها عاجزة عن أن تفعل شيئا وسط هذه التيارات المتلاطمة (١) .

أف لما نحن فيه من عنت فكلنا فى تحيل ودلس
ما النحو والشعر والكلام وما مرقش والمسيب بن علس
طالت على ساهـــر دجنتـــه والصبح ناء فمن لنا بغلس

وما تفعل الكلمة الشاعرة إزاء عصر نفق فيه الردىء وأصبحت الأقوات المرة التى كانت ترمى فيها قبل تقدم الصحاف (٢) :

لقد نفق الردىء ورب مر من الأقوات يجعل فى الصحاف

وماذا يمكن للشاعر أن يفعل تجاه تاجر جشع يسرق الناس ويغش بضاعته فاذا رزقه الله بمن يقطع عليه الطريق ويستولى على قافلته فإنه طالما قطع الطريق على الناس بغشه وخداعه (٣) :

يا تاجر المصر ما أنصفت سائمة كذبتها فى حديث منك منسوق
إن تشك قطع طريق بالفلاة فكم قطعت من قبل طرق الناس بالسوق

وماذا يمكن الكلمة الشاعرة أن تفعل وسط عـــالم ساد فيه البخل والشح

---

(١) لزوم مالا يلزم (الجالية) جـ ٢ ص ٤٨ .
(٢) المصدر السابق ص ٩٩
(٣) المصدر السابق ص ١٢١

والحرص على المال ، وأصبح المثـــل الأعلى هو الأنانية وإيثار النفس وسادت الفردية بأقسى وأبشع صورها [1] :

عش بخيلا كأهل عصرك هذا وتباله فان دهرك أبله
قوم سوء فالشبل منهم يغول الليث والليث يأكل شبله
إن ترد أن تخص حرا من النا س فخص نفسك قبله

ومـاذا تفعل الكلمة الشاعرة إزاء انتشار السرقات فى كل مكان ، حتى إذا عجز الأمير عن معاقبة اللصوص ، والتى بالتهمة على الأبرياء ، وقد كان الأمراء يقتسمون الغنائم مع أولئك اللصوص مثل « ابن حمدى » فى بغداد .

وهكذا أضحت الأوطان أشبه بالسجون للناس حتى ضاقت بهم وضاقوا بها ووصفها المعرى بأنه [2] :

إذا عدت الأوطان فى كل بلدة لقوم سجونا فالقبور حصون

يجيب أبو العلاء عن وظيفة الـكلمة الشاعرة فى مثل هذه الظروف الحالكة بأنها تلتزم الصدق والتوجيه ، ويرى أبو العـــلاء — كما بينا — احتقار الدنيا واعتزالها ، والنظر إلى ملاذها كعرض زائل وحينئذ تستريح النفس وتهدأ وترضى بما كتب لها وقدر من رزق وحظ [3] :

إذا ما تبينا الأمور تكشفت لنا وأمير القوم للقوم خادم
أقل بنى الدنيا هموما وحسرة فقيد غنى المال والرشد عادم
سيسليك أن القابض الرزق باسط وأن الذى شاد البنية هادم

---

(١) المصدر السابق ص ١٨٠
(٢) لزوم ملا يلزم (ط الجاليه ج ٢) ص ٢٨٢
(٣) المصدر السابق ص ٢٢٦

ويدعوا الى الإخاء والمساواة والتعاون بين كافة الناس ، أميرهم وحقيرهم غنيهم وفقيرهم ، لأن المجتمع نسيج واحد متشابك ومتلاحم (١) :

والناس بالناس من حضر وبادية بعض لبعض وإن لم يشعروا خدم
وكل عضو لأمر ما يمارسه لامشى للكف بل تمشى بك القدم

ويكشف ذلك الرياء الذى يمنه الناس تجاه الغنى ، فعل الثروة فى نفوس الناس بصورة تدعو الى ترك هذا السلوك المعيب ، وألا تكون رنة الذهب هى المقياس الذى يحكم علاقات الناس الاجتماعية (٢) :

قد ينصف القوم فى الأشياء سيدهم ولو أطاقوا له ريبا لرابوه
لم يقدروا أن يلاقوه بسيئة من الكلام فلما غاب عابوه
تحدثوا بمخـازيه مكتمـة وقابلوه بإجلال وهابوه
وكم أرادوا له كيدا بيوم ردى من الزمان ولكن ما أصابوه
أكدى فلاموه لما قل نائله ولو حبا الوفر زاروه ونابوه
لبى الغنى بنو حواء من طمع ولو دعاهم فقير ما أجابوه

هذا الشاعر العظيم الذى يأبى أن يعيش فى الخلد بمفرده ، وإنما يريد أن يشاركه الناس فى نعيم الخلود ، ويدعو الله ألا يعطيه الوفرة والثروة بمفرده أيضا ولكن يشترك معه الناس ، فاذا هطلت سحابة الماء على أرضه فقط حاملة الخير فانه يدعوها أن تشمل بالخير كل البلاد (٣) :

ولو أنى حبيت الخلد فردا لما أحببت بالخلد انفرادا
فلا هطلت على ولا بأرضى سحائب ليس تنتظم البلادا

---

(١) المصدر السابق ص ٢٣١
(٢) المصدر السابق ص ٢٣٨
(٣) سقط الزند (٢ : ٢) ص ٥٦٤

فكان شيخ المعرة انسانى النزعة ، يرغب فى الاصلاح الاجتماعى بحيث ينال كل انسان حاجته التى لا تزيد عن رزق يكفل له الأمان من الجوع :

« فالحمد لله الذى ستر بخفه من قوام العيش ، ورزق شعبة من القناعة أوفت على جزيل الوفر (١) .

وشاعر يرى هذا الرأى لا يرضى للانسان أن يتعرى وغيره كاس ، أو أن يجوع وغيره يموت بالتخمة ، فلابد من المساواة بين الناس الى الحد الذى يسمح بالحياة الكريمة لجميع المسلمين ، وقاطنى بلاد الاسلام .

ولا شك أنه لم يستطع أن يقول أكثر مما قال فى هذه الناحية الاصلاحية تمشيا مع طبيعته فى الاحتراس مما يقول (٢) :

لا تقيد على لفظى فإنى — مثل غيرى تكلمى بالمجاز

حتى يتجنب الدخول فى صراع مع حكام كانوا يتربصون به ، ويدركون أنه يمثل رجل الفكر الذى يعيش بين الناس رغم عزلته الظاهرة ويعبر عن آمالهم فى الحياة الكريمة .

---

(١) خطبة سقط الزند لأبى العلاء ص ١٠ .

(٢) لزوم ما لا يلزم (الجمالية ج ٢) ص ١١ .

الفصل الرابع

النقد الديني

أولا : نفي تهمة الزندقة عنه :

وقف أبو العلاء من رجال الدين المدعين للعلم ، موقفا ظنه الباحثون القدماء والمحدثون موقفه من الدين نفسه . فلقد أعطى أبو العلاء لنفسه الحرية فى مناقشة اجتهادات الفقهاء وتفسيراتهم الشريعة ، وكان فى نقده اللاذع لهم الكثير مما يثير ضده الزوابع ، التى تكاد تعصف بوجوده ، ولولا ما كان يتمتع به من شهرة فى زهده وورعه عند الكافة ، لفتك به الحكام الحانقون عليه بتهمة الالحاد والزندقة .

ولا يكاد كتاب قديم يخلو من رميه بالالحاد والزندقة إما لآرائه الجديدة والجريئة ، وأما لتأليفه كتاب « الفصول والغايات » الذى زعموا أنه صنفه لمحاذاة سور القرآن الكريم ، والواقع أن الذين هاجموا هذا الكتاب ، انما هاجموه لما يحتوى من مضمون يهدم الكثير من أصنام ذلك الزمن ، ويهدد المتجرين باسم الدين ، ويضع للناس مبادىء عظيمة يسترشدون بها فى حياتهم .

فالفصول والغايات دعوة إلى العمل :

« العمل وأن قل يستكثر إذا اتصل ودام ، لو نطقت كل يوم لفظة سوء لاسودت صحيفتك فى رأس العام ، ولو كسبت كل يوم حسنة عددت بعد زمن من الابرار . أن اليوم ائتلف من الساع ، والشهر اجتمع من الايام والسنة من الشهور ، والعمل يستكمل بالسنين ، الرجل مع الرجل عصبة والشعرة من الشعر ذؤابة والحجر فوق الحجر جدار ... » [1]

---

(١) الفصول الغايات : ص ٥ .

أنها دعوة إلى العمل المستمر المتواصل الذى يؤدى إلى النتائج الباهرة ونهى عن نطق السوء الذى يؤدى إلى أوخم العواقب بعد فترة من الاصرار عليه وحث على كسب الحسنات كل يوم بالفعل الطيب السليم ، وبيان لاهمية المثابرة والصبر لأن اليوم بجموعة ساعات ، وبيان لفائدة التضامن والأخوة بين الناس لأن الرجل مع الرجل عصبة والحجر فوق الحجر جدار . ولذلك أرتعش الجامدون من هذه الصرخات المدوية .

والفصول والغايات دعوة إلى التفاؤل والثقة بالغد والاقبال على الحياة :

« لا تقنطن أيها الانسان ، فان بلغتك عنـــد الله الـكريم ، والرزق يطلبك وأنت تبصر الاحلام ، لو أن للرزق لسانا هتف بن رقد ، أو يدا لجذب المضطجع باليد ، أو قدما لوطىء على الجسد ، لا يزال الرزق مرنقا على الهامة ترنيق الطير الظماء على الماء المطامع (١) ، (٢) .

ودعوة للانسان إلى الثقة بالخير الذى يزهر ويثمر :

« أحسبت الخير ليس بمثمر ، بلى أن للخير ثمرة لذات فى المطعم وتضوعت لمن تنسم ، وحسنت فى المنظر والمتوسم ، وجاوزت الحد فى العظم وبقيت بقاء السلم ، فما ظنك بثمرة هذه صفتها ، لا يمكن السارقة كفتها ولا تذوى فى الوقدة نضرتها ، قد أمنت أجيج القيظ وصنابر الشتاء (٣) »

فهذه الآراء كانت حرية بأن تحدث ضجة فى المجتمع ، وأن تضرب على رؤوس الجامدين بالمطارق . وهو لم يقلد القرآن الكريم فيها كما يدعى ناقدوه القدماء برغم أن القرآن الكريم كان مصدر كل ثقافة أصيلة واعية فى ذلك العصر وكانت

---

(١) نفس المصدر ص ١٣ .
(٢) مرنقا : رنق الطير خفق الطائر ولم يطر
(٣) الفصول والغايات : ص ٦ .

كل الدراسات النقدية والبلاغية تنهل من معينه المقدس الذى لا ينضب وقد أدرك الاستاذ محمد خلف الله احمد هذه الحقيقة بقوله :

« منذ بدء الحياة الاسلامية اذن ، أخذ القرآن مكان الصدارة بصفة كونه النص الأدبى الأول لهذه الأمة ، والكتاب المبين المعجز ، هذا إلى كونه وحى السماء وأساس التشريع والقانون المنظم للسلوك ، والمرشد الموجه إلى معالى الأمور وإذا اجتمعت هذه الظروف لكتاب فمن الطبيعى أن يصبح محورا لأهـداف الفكر والتأليف فى الأمة ، وينبوعا للكثير من جداول ثقافتها .. » (١)

والذى يستفاد من هذا النص أن أبا العلاء — شأنه فى ذلك شأن غيره من الأدباء والفلاسفة — نظر طويلا فى أسلوب القرآن الكريم ، وعندوضع كتاب الفصول والغايات فى تمجيد آيات الله والمواعظ ، أراد أن يهتدى بنوره الضالون، ويسير على هديه الخاطئون نحو الهدى والصلاح ، وهو يرى أن أساس الهدى الصحيح الايمان بالله تعالى :

ألا أدلك على أخلاق إذا فعلتها أطعت الله وأحبك الناس، وربنا أهتدى كل دليـل ، أسكت ما استطعت إلا عن ذكر الله ، فإذا نطقت فلا تصدق الكاذب ولا تكذب الصادقين (٢) .

فهذه الدعوة إلى ذكر الله تعالى هى الأساس فى الفصول والغايات ، وقدأدرك الدكتور شوقى ضيف هذا الخطأ الذى وقع فيه متهمو أبى العلاء بالالحاد بسببها فتساءل (٣) ، ومن أين يأتيها هذا وهى تنساق كلها فى التمجيد والتحميد والثناء

---

(١) محمد خلف الله أحمد : تقديم أثر القرآن فى تطور النقـد العربى للدكتور محمد زغلول سلام ص ١٠

(٢) الفصول والغايات : ص٧٦

(٣) د . شوقى ضيف : الفن ومذاهبه فى النثر العربى ص ٢٨٣ (ط ٣)

على الله . ولعله من أجل ذلك قال ابن سنان الخفاجي : أن العاقل إذا تأملها علم أنها بعيدةٌ عن المعارضة ، وقد يكون السبب فى أن الناس واجهوا أبا العلاء بهذه التهمة أنهم رأوه يسمى كتاب (الفصول والغايات فى محاذاة السور والآيات) فظنوا أنه يقصد بذلك إلى المعارضة فى الأسلوب وهو انما يقصد أن هذه الفصول محاذية للقرآن من حيث ما فيها من تسبيح وحمد وتمجيد وثناء على الله سبحانه وتعالى » .

وقد شن بعض الاقدمين حملات قاسية على المعرى بتهمة الالحاد . وكان محور هجومهم هذا الكتاب المعنون بالفصول والغايات . ويبلغ ابن الجوزى ذروة الهجوم على أبى العلاء متهما أياه باظهار الكفر وابطان الاسلام على عكس الشائع عند الملحدة الذين يظهرون الاسلام ويبطنون الكفر :

« من العجائب أن المعرى أظهر ما أظهر من الكفر البارد الذى لا يبلغ منه مبلغ شبهات الملحدين ، بل قصر فيه كل التقصير ، وسقط من عيون الكل . ثم اعتذر بأن لقوله باطنا ، وأنه مسلم فى الباطن . وهـــذا عكس قضايا المنافقين والزنادقة حيث تظاهروا بالاسلام وأبطنوا الكفر .. (١)

ثم ينعت الفصول والغايات بأنه كلام ركيك وبارد ، وقدرأيت المعرى كتابا سماه الفصول والغايات يعارض به السور والآيات . وهو كلام فى نهـــاية الركة والبرودة فسبحان من أعمى بصره وبصيرته (٢)

ويقصد ياقوت الحموى فى عرضه لهذه التهمة ، ويعرض لآراء فريق المؤيدين والمهاجمين ، ويتحرز هو فى الحكم لعله بخطورته ، فيقول.

« والناس فى أبى العلاء مختلفون ، فمنهم من يقول أنه كان زنديقا وينسبون

---

(١) ابن الجوزى : المنتظم ص ٢٠ (تعريف) .
(٢) نفس المصدر السابق ص ٢١ (تعريف)

اليه أشياء مما ذكرناها ، ومنهم من يقول : كان زاهدا عابدا متقللا يأخذ نفسه بالرياضة والخشونة والقناعة باليسير ، والاعراض عن أعراض الدنيا » (١)

ويدافع ابن حجر العسقلانى (٢) الشافعى (٧٧٣ — ٨٥٢ ﻫ) الذى انتهت اليه معرفة الحديث ورجاله فى عصره ، والذى ولى قضاء الشافعية فى مصر عن عقيدة المعرى دفاع عالم دينى يزن الأمور بميزان العدل الصحيح ، ويورد هذه الرواية التى يدل مغزاها على رأى ذلك المحدث الجليل :

« قال السلفى ...... دخلت على أبى العلاء بالمعرة ، فى وقت خلوة بغير علم منه ، فسمعته ينشد شيئا ثم تأوه مرات وتلا آيات ، ثم صاح وبكى ، وطرح وجهه على الأرض ، ثم رفع رأسه ومسح وجهه وقال : سبحان من تكلم بهذا فى القدم ! فصبرت ساعة . ثم سلمت عليه ، فرد وقال : متى أتيت : فقلت : الساعة فقلت : أرى فى وجهك أثر غيظ فقال : يا أبا الفتح ، تلوت شيئا من كلام الخالق ، وأنشدت شيئا من كلام المخلوق فلحقنى ما ترى. فتحققت صحة دينه وقوة يقينه »

كما يتفق ابن الوردى مع الصاحب كمال الدين بن العديم فى أن القادحين فى ابى العلاء لم يقابلوه ، وأن ذاميه يرمونه بسهامهم بالسماع فقط ، وأما من لقيه وصحبه فهو الذى يمدحه ، ويثنى على دينه وعقيدته :

وبالجملة فقد ألف الصاحب كمال الدين بن العديم ، رحمه الله تعالى ، فى مناقبه كتابا سماه « العدل والتحرى فى دفع الظلم والتجرى » عن أبى العلاء المعرى .

وقال فيه انه اعتبر من ذم أبا العلاء ومن مدحه. فوجد كل من ذمه لم يره ولا

---

(١) ياقوت الحموى : أرشاد الاريب الى معرفة الاديب ص ٩٠ (تعريف)

(٢) ابن حجر العسقلانى : لسان الميزان ص ٢١١ (تعريف)وقد اختصر فيه مؤلفه كتاب ميزان الاعتدال فى نقد الرجال للذهبي وزاد عليه من استدركه أبو الفضل بن الحسين فى تذييله الميزان .

صحبه ، ووجد من لقيه هو المادح له . وهذا دليل لمالقته (١)

ويضيف عبد العزيز الميمنى الراجكوتى (٢) إلى ابن الوردى ملاحظته بورود العلماء والفضلاء على أبى العلاء ويخص بالذكر منهم الاندلسيين المعروفين بالتشديد فى أمور العقيدة ، وبرغم ذلك فانهم لم يحكموا عليه بالالحاد .

« ولم أر فى معارفه وهم خلق لا يحصون أحد قرفه بما قرفه به الاجانب (٣)

وهذا لعمرى عجب عاجب . وهذا التبريزى وغيره من التلامذه وغيرهم من زواره بالمعرة ومنهم شيخ الاسلام الصابونى ، والقاضى عبد الوهاب المالكى ، ومن البغاددة ابو الطيب الطبرى ، وأبو حامد الاسفرائنى المجدد قبلوا هداياه أو نزلوا عليه أو رغبوا فى اصطفائه ووده . والاندلسيون معروفون بالصلابة فى أمر الدين ولم أر لهم كلمة فى القذف وماذاك الا ضنا منهم بدينهم أن يتهموا ريثما فظهر مصداق قول ابن العديم ان الذين لقوه وصفوه بكل جميل والذين لم يلقوه ولا عرفوه رموه بكل قبيح .

وكانت جرأة ابى العلاء فى السؤال ، واعمال الفكر فى المسائل الشرعية سببا فى اضطهاده وطرده من بعض المجالس ، وذلك مثل السؤال الذى طرحه يوما عن اليد وكيف تكون ديتها اذا قطعت خمسمائة دينار ، واذا سرقت ربع دينار فقط

(١) ابن الوردى : تتمة المختصر فى اخبار البشر ص ٢١٠ (تعريف)

(٢) عبد العزيز الميمنى الراجكوتى : أبو العلاء وما اليه ص ٢٠٤ ، ٢٩٥

(٣) قال ابن الوردى ١ : ٣٦ ونقل خبر مساجلة أبى الطيب الطبرى على ماسر فى أبواب بغداد وأبيات كليهما . ثم قال فشهادة أبى الطيب فى الشيخ مقدمه على شهادة الغير وحسن الظن وخصوصا بالعلماء قد دل عليه القرآن والحديث وهو لا يأتى الا بخير وكان شيخنا عبس حسن العقيدة فيه واعتراف الطبرى له ومدحه يكفيه .

شهادة الطبرى الحبر كافية ... أبا العلاء فقل ما شئت أو فذر
من أغمض السيف عنه كان فى دعة ... ومن نضا السيف قابلناه بالطبرى

أى القاضى الطبرى أو بالطبر وهى الفاس بالفارسيه .

فانها تقطع أيضا ، واليد هى اليد لم تتغير، وكان فكره يتساءل عن السبب فى ذلك . ولكن بمجرد السؤال كان جريمة كبرى يتهم الرجل بسببها انه مارق وخارج على الدين ، ويعزو ابن كثير سبب طرده من بغداد الى هذا السؤال المحير ولكننا نعلم أنه لم يطرد من بغداد وأنه خرج منها معززاً مكرما وكان الناس يأسفون لخروجه كل الاسف وكان يحن الى بغداد كثيرا وهو فى الشام .

ولذلك فان ابن كثير حين يقول :

« ودخل بغداد سنة تسع وتسعين وثلاثمائه . فأقام بها سنة وسبعة أشهر ثم خرج منها طريدا منهزما ، لانه سأل سؤالا بشعر ، يدل على قلة دينه وعقله فقال:

تناقض مالنا إلا السكوت له وأن نعوذ بمولانا من النار
يد بخمس مئين عسجد وديت مابالها قطعت فى ربع دينار

وهذا من افكه. يقول : اليد ديتها خمسمائة دينار ، فمالكم تقطعونها اذا سرقت ربع دينار . وهذا من قلة عقله وعلمه ، وعمى بصيرته . وذلك أنه اذا جنى عليها يناسب أن يكون ديتها كثيرة ، ليزجر الناس عن العدوان . واما اذا جنت هى بالسرقة فيتناسب أن تقل قيمتها وديتها ، ليزجر الناس عن اموال الناس وتصان أموالهم . ولهذا قال بعضهم : (١) كانت ثمينة لما كانت أمينة فلما خانت هانت (٢) .

غير أن الكثير مما يحكى عن أبى العلاء من ناحية العقيدة مبالغ فيه ، ولا استبعد ان الحاقدين عليه كانوا ينتهزون فرصة انزوائه بعيدا عن دائرة الحياة الاجتماعية ويضعون على لسانه الكثير من الاخبار والشعر والروايات تشوه سمعته وتنزل من قدره ، وتجعله فى متناول السلطان يفتك به فيخلو الجو لشويعر يريد ان يحتل مكانته وأو لناثر مغيظ محنق وهكذا شأن البشر دائما .

---

(١) هو القاضى عبد الوهاب المالكى . انظر تفسير ابن كثير (٣ : ١٥١) تعريف
(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ص ٢٠١ ، ٢٠٢ (تعريف) .

وكان أبو العلاء يدرك خطورة هذه الافتراءات ويحذر منها حين اجتمع به المنازى الشاعر فى رواية سبط ابن الجوزى :

« وقال المنازى الشاعر ، اجتمعت بأبى العلاء بمعرة النعمان فقلت له : ماهذا الذى يحكى عنك ؟ حسدنى قوم ، فكذبوا على . قلت : علام حسدك وقد تركت لهم الدنيا والآخرة . قال والاخرة : قلت : اى والله ! » (١)

ولقد استغرب ابو العلاء قول المنازى بأنه ترك للحاقدين الدنيا بخيراتها كما ترك أيضا لهم الآخرة بخيراتها أى أنه لا يؤمن بالبعث ولا بالحساب وغير ذلك من المسائل ، واستغراب المعرى يحمل معنى الاحتجاج على هذه الدعوى وقد انبرى يدافع عن نفسه فى كل المسائل التى ناقشها معه المنازى مثل أكل اللحوم ، ويدعى المنازى أنه افحمه فسكت عن الرد كما سكت عن داعى الدعاة أيضا حين ناقشه فى هذه المسائل ، ولكن الاقلاع عن اللحم ليس بزندقة .

وقد التمس الكثيرون بابا يدخلون منه لاتهامه بالكفر وتعطيل الشرائع مثلا حاول داعى الدعاة الفاطمى أن يوقع به فى رسالته إلى أبى العلاء الذى قال :

غدوت مريض الدين والعقل فالقنى لتعلم أنباء الأمـــور الصحائح

فبعث له ابن ابى عمران رسالة لا يريد أن يفهم من أبى العلاء فى رده عليه بقدر ما يريد أن ينتزع منه اعترافا قسريا بمخالفة الشرائع ، فيقول :

« شددت اليه راحلة العليل فى دينه وعقله ، إلى الصحيح الذى ينبئ انباء الامور الصحائح . وأنا أول ملب لدعوته ، معترف بخبرته . »

« وأول سؤال عن أمر خفيف . أسأله عن العلة فى تحريمه على نفسه اللحم واللبن . وكل ما يصدر الى الوجود من منافع الحيوان . »

---

(١) ياقوت الحموى : ارشاد الاريب الى معرفة الأديب ص ١٢٠ ، ١٢١ تعريف

« فتجافى الشيخ — وفقه الله — عن الانتفاع بما هو موضوع له ، مخلوق لأجله ابطال لتركيب الخلقة . ثم اقناعه من أكل الحيوان ليس يخلو القصد به من احد أمرين : اما أن تأخذه رأفة بها ، فلايرى تناولها بالمكروه ، وما ينبغى له أن يكون أرأف بها من خالقها .

والثانى : انه يرى سفك دماء الحيوان خارجا عن اوضاع الحكمة وذلك اعتراض منه على خالقه الذى أوجده (١)

وكان رد ابى العلاء بسيطا ومفحما فى نفس الوقت ، وبعيدا عن المناقشات التى تجره إلى معارضة داعى الدعاة الفاطمى ، ذى النفوذ القوى والبطش الواسع فرد السبب إلى عجزه عن الوفاء بالتزاماته المادية ، وأنه انما ترك اللحم لا لمخالفة الشرائع ولكن للاقتصاد فى المعايش :

« ومما حثنى على ترك أكل الحيوان ، أن الذى لى فى السنة نيف وعشرون دينارا ، فاذا اخذ خادمى بعض مايجب ، بقى لى مالا يعجب .

فاقتصرت على فول وبلسن ، ومالا يعذب على الألسن . فاما الآن فإذا صار إلى من يخدمنى كبير عندى وعنده هين (٢) ، فما حظى إلا اليسر المتمين ولست أزيد فى رزقى زيادة ، ولا أوثر لسقمى عيادة ، والسلام . » (٣)

ولا يقنع داعى الدعاة بهذه الحجة وانما يزيد عليه بأنه قد كتب إلى الأمير بأن يزيح عن ابى العلاء هذا العبء المادى الذى يتعلل به لتركه اكل اللحم .

ثم يطلب منه أن يكون صريحا فى كلامه ، والا يتكلف الأسجاع ولزوم مالايلزم لأن هدف الداعى هو الوصول إلى الأفكار والمعانى التى يغلفها ابو العلاء بالالفاظ.

(١) ياقوت الحموى : ارشاد الاريب الى معرفة الاديب ص ١٢٠ ، ١٢١ تعريف
(٢) أى اذا صار الى خادمي شيء اعده أنا كبيرا ويعده هو هينا .
(٣) ياقوت الحموى : ارشاد الاريب ص ١٢١ — تعريف .

ويرى الدكتور شوقي ضيف أيضا أن اسلوب ابى العلاء بعامة مغلف بالتعقيد والرمز الذى أضنى داعي الدعاة فى الرسائل المتبادلة بينهما لدرجة أنه يطلب منه البعد عن هذا الاسلوب الرمزى الغامض حتى يستطيع فهم معانيه . ويرى الدكتور شوقى نفس الرأى بالنسبة لاسلوب أبى العلاء فى غير هذا الموضع أى فى الفصول والغايات التى إذا نظرنا فى أسلوبها « وجدنا ابا العلاء يختار لنفسه فيه أسلوبا معقدا تعقيدا شديدا وهو تعقيد يقوم على استخدام اللفظ الغريب وما يعاوى فيه من أمثال وكلمات رمزية ، وأن ذلك ليباعد الكتاب جملة عن أسلوب الذكر الحكيم ، ويجعله أسلوبا من طراز آخر هو طراز مذهب التصنع ، وما انتهى اليه هذا المذهب عند أبى العلاء من عقد وكلف كثيرة » (١)

وقد عانى داعي الدعاة من هذه العقد والكلف الكثيرة فى أسلوب المعرى حتى أنه يطلب منه إذا راسله أن يقصد قصداً مباشراً الى المعانى :

« ثم إن قام من الشيخ نشطة لجواب ، أعفانى فيه عن قصد الاسجاع ، ولزوم ما لا يلزم ، فإنى ملتمس فيه المعانى لا الالفاظ » (٢)

نشعر من الحوار الدائم بينهما أن داعى الدعاه الفاطمى كان يسعى سعياً حثيثا إلى الايقاع بأبى العلاء فى خطأ ما يتخذ حجة عليه تستدعى معاقبته على النحو الذى وهمه بعض مترجمى أبى العلاء فزعموا أنه مات مسموما خوفا من اغتيال دعاة الفاطميين له ، وكان جرى ذكره فى مجلس الناظر الذى ينظر فى ذلك الوقت فخطب عليه الحاضرون ، وأغروا بدمه ، وقالوا : أن الغيرة على الدين تبيح قتله (٣)

(١) الدكتور شوقى ضيف : الفن ومذاهبه فى النثر العربى ص ٢٨٥

(٢) ياقوت الحموى : ارشاد الاريب الى معرفة الاديب ص ١٢٨ (تعريف .

(٣) حاتم بن ابراهيم الحيدى : المجالس المؤيدية هى مجالس للمؤيد فى الدين أبى نصر هبة الله بن موسى بن أبى عمران الشيرازى الملقب « داعى الدعاة » كان يحاضر بها فى دار العلم بالقاهرة . وهى ثمانمائة مجلس يتناول الشيرازى فيها موضوعات اسماعيلية حقى ، دينية وأدبية ، وسياسية وتأويلية ومما هو جدير بالنظر أن هذه المحاضرات كان ينشئها داعى الدعاة على لسان الخليفة وينوب هو عنه فى القائها .

ولكن بعض الحاضرين كانوا أكثر ذكاء ورأوا انه اذا قتل فسيعتبره التاريخ شهيدا للفكر والعقل، وسيعلي الناس ذكره، ففضلوا مناظرته لعلهم يفلحون فى تكفيره.

«فقال أحد الحاضرين: إن كلامكم على غير موضوع، وإن كان الرجل من العجز والضعف والاشراف على القبر بالغاية القصوى، وأنه متى بسطت له اليد على هذا السبيل أكتسب من الذكر الجميل، والثناء بعد الموت ما لا حاجة بنا اليه بل الواجب أن يجرد له من يهتك بالمناظرة والمحاجة ستره. ويكشف للناس عواره لينقص فى عيونهم، وينحط من درجته مابين ظهرانيهم» (١)

فلقد كانت مكانة أبى العلاء فى قلوب الناس تؤرق مضاجع دعاة الباطنية وتجعلهم يبحثون عن سبيل لهدم هذه المكانة، وليس هناك سبيل إلا اظهاره بمظهر الخارج على الدين الذى يسعى الى افساد عقائد الناس ووحدانيتهم.

ولعل هذا النص الذى ورد فى المجالس المؤيدية يدحض فكرة «بندلى جوزى» الذى أدعى أن الاسماعيلية هى التى فتحت آفاق الفكر أمام أبى العلاء وغيره من دعاة الحرية والآراء (الهدامة). ولولاها لما استطاع أبو العلاء المجاهرة بآرائه لإنها حرثت التربة، وتركها صالحة لبذر بذور الأفكار الغريبة بينما ظهر لنا أن الاسماعيلية كانت تحارب كل فكر يخالف فكرها مهما كان مصدره ومهما كانت أهدافه. وكان ابو العلاء هدفا لحملاتهم وحديثا لمجالسهم فكيف يستقيم هذا مع إدعاء «جوزى» ان الحركة الاسماعيلية مهدت السبيل لنشر الأفكار الحرة فى

= وقد جمعها ورتبها حسب موضوعاتها الداعى اليمنى حاتم بن ابراهيم الحيدى وسماها «جامع الحقائق فى التأويل»

وقد نشرها الدكتور محمد كامل حسين «المجالس المؤيدية» ...

وترجمتها المجلة الاسيوية. The journal of The Roycl Asiatic للداعى اليمنى حاتم ابن ابراهيم الحيدى سنة ٢٩٢٢ مز ١٣٣ • ص ٢٨٧ تعريف

(١) نفس المصدر السابق ص ٢٨٧، ٢٨٨ تعريف.

العالم الاسلامي ، وجرأت الناس على المهاجرة بها بعد ان كانوا يخافون من البحث فيما هو اقل منها خطرا . ولولاها لما رأينا عشرات من الكتبة والشعراء يحملون حملاتهم الشعواء على الأوهام والخرافات الدينية والعداوات القومية وأصحابها ، ويحتجون بلا خوف ولا حذر على الضغط على الحرية الشخصية من قبل أصحاب السلطة الدينية والمدنية (١) .

ويدعي جوزى أن أبا العلاء خرج على الناس بالدعوة الى الكفر بالدين علانية بعد أن مهدت لهم الاسماعيلية السبيل الى ذلك ولا شك أن هذا القول يصدر عن غير دراسة لآراء وحياة ونفسية ابى العلاء فكيف يحكم « جوزى » بهذا الحكم .

« أو هل كان فى وسع أبى العلاء وغيره أن ينشروا أفكارهم الهدامة علانية ويدعو الناس الى الكفر بالدين والخروج على أهـــل السلطة الظالمين الفاسقين لو لم تمهد الاسماعيلية أمامهم الطريق وتعود الناس الإصغاء الى مثل هذه الأقوال والإقبال عليها (٢) .

وأبو العـــلاء لم يقف موقف الداعى للناس بالخروج عن الدين الحنيف أو الكفر ، ولكنه وقف موقف الناقد لأفعال رجال الدين الفاسدين .

وهو الذى شغل نفسه بقضايا العصر ، ولم يكن راضيا عن سلوك الكثيرين من الذين يتزيون بزى الدين وهو منهم براء ، أو يدعون التصوف والزهد خـــداعا وكذبا وقد جر عليه موقفه هذا الكثير من الصعاب ، ولو أنه أخذ نفسه بالرضا والتسليم فاقتنع بحظه وحظ الناس من حوله . وما فى دنيانا من نصب وعذاب لاستراح وأوى الى ظل ظليل ، ولكنه لم يرض ولم يسلم ولم يقتنع ، فسعر نفسه وأودى بها فى هذا الجحيم المظلم من الاحساس بالشقاء والتعاسة ، وما ينطوى فيها

(١) بندلى جوزى : من تاريخ الحركات الفكرية فى الاسلام ج ١ ص ١١٤

(٢) نفس المصدر السابق ص ١١٦

من تشاؤم شديد ، وظل فى هذا الجحيم يصارع الناس ويصارع الحيـــاة حتى صرعته »[1] .

وهكذا رماه الناس بأنه « حمار » لايفقه شيئا [2] وبأنه مجنون معتوه [3] .

ولـكنه ظل يسير فى طريقه الصحيح لا يعبأ بانتقادات المعاصرين له كما لم تضره انتقادات اللاحقين .

وأغلب الظن أن الكثير من أشعار أبى العلاء التى كانت تتخذ ضده ذريعة لإتهامه بالـكفر كانت موضوعة عليه . وكان الدكتور شوقى ضيف فضـل التنبيه إلى هذه القضية . إذ لايعقل أن يعطى الإنسان بنفسه وثيقة اتهـامه لأعدائه ومهما كان الإنسان غبيا فانه لا يفعـل ذلك ، فما بالنا بأبى العلاء وهو العبقرى المفـكر .

ولقد أدرك العباسى ([4]) ذلك فقال:

« وعن أبى اليسرى المعرى ، أن أبا العلاء كان يرمى من أهل الحسد له بالتعطيل ، ويعمل تلامذته وغيرهم على لسانه الأشعار ، يضمنونها أقاويل الملحدة ، قصدا لهلاكه ، وإيثارا لإتلاف نفسه ، وفى ذلك يقول ([5]) .

حاول إهوانى قوم فما — واجهتهم إلا بإهوانى
يحرشـــونى بسعاياتهم — فغيروا نـــية إخوانى
لو استطاعوا لو شوابى إلى — المريخ والشهب وكيوان

(١) د . شوقى ضيف : الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ص ٣٧٥
(٢) ياقوت الحموى : ارشاد الاريب ص ١١٥ (تعريف) .
(٣) نفس المصدر السابق ص ٥٦٣ (تعريف) .
(٤) العباسى : معاهد التنصيص ص ٣٤٠ تعريف
(٥) نفس المصدر السابق ص ٣٤١ تعريف ، والصفدى فى الوافى بالوفيات ص ٢٧٥ تعريف

كما أن المنصفين له أكدوا له هذه الحقيقة ، وحاولوا أن يلتمسوا له العذر فيما جاء على لسانه فى « لزوم ما لا يلزم » وفى « استغفر واستغفرى » كما قال الصلاح الصفدى .

« أما الموضوع على لسانه ، فلعله لا يخفى على ذى لب وأما الأشياء التى دونها وقالها فى لزم ما لا يلزم وفى استغفر واستغفرى ، فما فيه حيلة . وهو كثير فيه ما فيه من القول بالتعطيل واستخفافه بالنبوات ، ويحتمل أنه أرعوى وتاب بعد ذلك كله .

وفى ظنى أن الكثير مما أتى من أشعار الشك والحيرة والتردد والقلق فى اللزوميات إنما كانت نتاجا لنفس حائرة لا لنفس ملحدة ، والفرق واضح بين الحيرة والالحاد لأن الحائر إنما يبحث ويفكر ويوازن ، أما الملحد فلقد بنى نتيجته على أساس من الاستقرار العقـــلى الذى أدى به الى نتيجته الخاسرة تلك .

« فقد كان يضيق بما أصابه من الشر فى بدء حياته ، ولم يستطع له تفسيرا فرجع يشك فى كل الحقائق حتى ليشك فى الشك نفسه ، وهذا مصدر ما نجده عنده من تناقض يعترى آراءه . ومن المحقق أن اللزوميات ترينا أبا العلاء حائراً حيرة شديدة فالدنيا كلها وما وراءها ظلام وسواد ولجج واسعة من الحيرة (١) .

وقد تفضلت اللجنة التى وضعت كتاب تعريف القدماء بأبى العلاء (٢) بالنص على الكثير من أشعار ابى العلاء التى لم ترد فى ديواليه « سقط الزند » أو لزوم ما لا يلزم . وقد لاحظت أن معظم هذه الأشعار فيه تجرأ على العقيدة وزراية بها مما يوحى الينا بأن واضعيها حاولوا النيل من مكانة المعرى بالنيل من دينه وتقواه .

---

(١) د . شوقى ضيف : الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ص ٣٩٠ ، ٣٩١

(٢) الاساتذة مصطفى السقا وعبد الرحيم محمود وعبد السلام هارون وابراهيم الابيارى وحامد عبد المجيد باشراف الدكتور طه حسين .

وأن وجود مثل تلك الأشعار بعيدا عن ديوانيه يؤيد قوله وقول مؤيديه بأن فكرة وضع الشعر المهاجم للعقيدة على لسانه لم تكن مجرد فرض . فهذان بيتان يظهر فيهما الوضع والانتحال :(١)

فلا تحسب مقال الرسل حقا ولكن قول زور سطروه
وكان الناس فى عيش رغيد فجاءوا بالمحال فكدروه

وينفرد القفطى برواية هذه الأبيات التى أنزه المعرى كل التنزيه عن قولها .(٢)

شهدت بأن الكلب ليس بنابح يقينا وأن الليث فى الغاب ما زأر
وان قريشاً ليس منها خليفة وأن أبا بكر شكا الحيف من عمر
وان عليا لم يصل بصحبه وما هو والله العظيم من البشر

ويحتمل أن تكون هذه الأبيات قد وضعت بواسطة أحد غلاة الاسماعيلية يريد بها إعلاء شأن الدعوة وتنزيه على عن كونه بشرا كما يدعى غلاتهم ، والطعن فى الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم .

وينفرد القفطى مرة أخرى برواية أبيات يدعو فيها المعرى إلى عدم ذبح الحيوان رفقا به . ويضعه أبو العلاء فى كفة متساوية مع الانسان ويسأل من يريق دم الحيوان عن الذنب الذى جناه ويعتبر الذبح جريمة تستحق القصاص وأن الله تعالى هو الذى سيقتص لهذه الحيوانات من ذابحيها :(٣)

---

(١) القفطى أنباه الرواة على أنباه النحاة ص ٦٢ تعريف (البيتان مما لم يرد فى الديوانين) .

(٢) نفس المصدر السابق ص ١٦١ (ولم ترد هذه الابيات فى الديوانين وانفرد القفطى بروايتها

(٣) نفس المصدر السابق ص ٦٠ (الابيات مما لم يرد فى الديوانين . وقد انفرد القفطى بروايتها . وفيها خطأ الروى ، اذ لا ترد هاء الضمير رويا لا بعد ساكن)

ما بال ذا الحيوان يؤكل لحمه ... ويقد جلدته ويهشم عظمه
إن كان ذا أكل فأكلك أكلـه ... أو كان ذا شرب فشربك شربه
قل للبريق نجيعه من نحره ... ما شأنه ما ذنبه ما جـــرمه
الله يقتص الجرائم كلهـــا ... ويعيدها فى نحر من ذا دأبه

والغريب أن تأتى هذه الأبيات على لسان أبى العلاء وفيها خطأ فى الروى وهو أستاذ التصنع الذى كان يلهو بهذه البضاعة فى لزوم مالا يلزم ! وهذا مما يرجح أن قائلها شويعر صغير أراد الطعن فى دين أبى العلاء .

وكأن أبا العلاء يحس بأخطائه الكثيرة فى العقيدة فيطلب من الله الكريم المغفرة لأنه لم يذهب للحج ، ويحتج لقعوده بأنه هرم ضعيف ، وأن اسرته لم يذهب للحج منها أحد وإنما كان يذهب من يؤدى الفريضة عنهم . وأنه ينوى تقليدهم فى ذلك بعد ترحاله ، فان فازوا بنعيم فسيكون معهم وأن تعذبوا بالجحيم فهم رهطه وأشياعه وهو لا يبغى نعيما لا يكون لهم فيه نصيب.(١)

أستغفر الله فى أمنى وأوجالى ... من غفلتى وتوالى سوء أفعالى
قالوا هرمت ولم تطرق تهامة فى ... مشاة وفد ولا ركبان أجمال
فقلت إنى ضرير والذين لهم ... رأى رأوا غير فرض حج أمثالى
ماحج جدى ولم يحجج أبى وأخى ... ولا ابن عمى ولم يعرف منى خالى
وحج عنهم قضاء بعد ما ارتحلوا ... قوم سيقضون عنى بعد ترحالى
فإن يفوزوا بغفران أفز معهـــم ... أولا فانى بنار مثلهم صالى
ولا أروم نعيما لا يكون لهـم ... فيه نصيب وهم رهطى وأشكالى

وانتهز الحاقدون فرصة فقر أبى العلاء ، ووضعوا على لسانه حديثا شاكيا من زنديق الى الله سبحانه وتعالى . يرى فيـــه ذلك الكافر الأحمـــق أن الله

---

(١) نفس المصدر السابق ص ٩٥ .
والأبيات مما لم يرو فى الديوانين) .

يعطى الرزق للمجنون والأحمق ولا يحظى بالرزق عاقل حصيف ، ويتخذ من ذلك ذريعة لأن يتزندق لأنه يلقى من ربه مالا يشتهى. ولا شك أن هذه الأبيات موضوعة أيضا :(١)

إذا كان لا يحظى برزقك عاقل ... وترزق مجنونا وترزق أحمقا
فلا ذنب يارب السماء على امرىء ... يرى منك ما لا يشتهى فتزندقا

وكان لهذه الآراء المتطرفة المنسوبة إلى أبى العلاء — ظلما وعدوانا عليه سببا فى شيوع الفكرة القائلة بالحادة بين الدارسين المحدثين أيضا ، فآدم متز يرى فيه ممثلا للجانب الذى يقابل أولئك الذين ينزعون نزعة دينية قوية :

« وكان يقابل النزعة الدينية القوية من الجانب الآخر نزعة أخرى عند فريق يحتقرون كل ما هو دينى ، ويجرؤون على الجهر بذلك على نحو لم يسبق له نظير فى عصر من العصور ، فكان أبو العلاء المعرى الشاعر بالشام يهاجم كل ما هو دينى مستندا فى ذلك إلى وجهة نظر عقلية. وهو يحارب الخرافات والتنجيم، ويحارب كل ما هو دينى بنوع خاص.(٢)

والملاحظة الجديرة بالاهتمام هنا أن متز يستشهد على صحة رأيه هذا بمجموعة من شعر أبى العلاء الذى نعرض له هنا بأنه مدسوس عليه، ولا شك أن هذه السيوف ما كان أبو العلاء يضعها ليقتل بها — حتى لو صدق إتهام أعدائه له ... ولكن الواضح أنها سيوف من صنع أعدائه لا من صنع يديه هو .

وكان نيكلسون(٣) أكثر تحرزا من متز حين أبدى عجزه عن فهم كثير من النصوص التى يقال أن أبا العلاء سخر بها من الدين، ويقدر له موقفه فى مهاجمة ابن الراوندى

(١) القفطى : انباه الرواة على انباه النحاة ص ٨٥ تعريف
(٢) آدم متز : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى جـ ٢ ص ٩٥ ، ٩٦
(٣) نيكلسون : مادة « أبو العلاء » بدائرة المعارف الاسلامية جـ ١ ص ٣٧٢

في رسالة الغفران للزندقة ، وغاية مايصل إليه نيكلسون هو ترجيح كون أبي العلاء شاكا ولكنه يشك أيضا في شكه ، وخلاصة موقف نيكلسون أنه يضع الكثير من الاحتمالات دون أن يصدر حكما .

« وقد حدث جدل طويل حول عقيدة أبي العلاء في حياته . وهو وإن لم يعدم من يدافع عنه . فقد عده الكثيرون من معاصريه زنديقا ، وشاعت عنه هذه الصفة منذ ذلك الوقت . ولكنه هاجم بشدة ابن الراوندي في رسالة الغفران لأنه قام بنفس هذا العمل . كما أنه أخذ بعقيدة المؤمنين في إعجاز القرآن .

وليس أمامنا إلا القول بأنه كان متشككا قوى الشك . وأن معظم أقواله تتجه هذا الاتجاه . ومن المحتمل أن تكون الفقرات التي تدل على إيمانه كان يقصد بها ذر الرماد في أعين النقاد ، أو ربما كان في بعض الأحيان يضع شكوكه موضع الشك ولم ير بأسا أن يكون لقوسه وتران » .

ولكنني ارجح ان نيكلسون ومتز كانا جديرين بالتحقق مما يعزى إلى ابي العلاء من هذا الشعر الموضوع ، وكانت القضية حينئذ تبدو اكثر سهولة وبعيدة عن التعقيد والتبرير . اذ كيف يعقل ان يقول ابو العلاء :(١)

خير المقابر في القبـور ومن لهم
بمبشر يأتي بصـدق المحشر
هيهات يرجى ميت في قبـره
لو صح ذاك لكان عين المتجر
خسرت تجارتهم فهـل من ميت
يرجو التجارة من ضريح المجفر

---

(١) القفطي : انباه الرواة ص ٥٨ تعريف
(والابيات لم ترد في ديوانه)

وقد اتخذ نيكلسون وغيره هذه الأبيات دليلا على انكار ابى العلاء للبعث

« ولم يقبل اية صورة من صور الحياة الأخرى ، وكان ينظر الى الفناء على أنه خلاص سعيد من الحياة »[١]

ووجد مهاجموه مادة خصبة فى الابيات التى نسبت اليه زوراً وبهتانا مثل[٢]:

صرف الزمان مفرق الالفين فاحكم الهى بين ذاك وبينى
أنهيت عن قتل النفوس تعمدا وبعثت أنت لقتلها ملكين
وزعمت أن لها معاداً ثانيـاً ما كان أغناها عن الحالين

ولا شك أن هذا الشعر المنسوب اليه قدجعل ياقوتا الحموى وأضرابه يصفون أبا العلاء بأنه مجنون معتوه أو بأنه حمار ، وقد شجع هذا الافتراء أعداءه على مزيد من وضع الشعر الذى نتره أبا العلاء عنه كل التنزيه ، وهل من المعقول أن يتكلم أبو العلاء الورع الزاهد عن البعث بهذه اللهجة النابية :[٣]

زعمـوا بأنى سأبعث حيا بعد طول المقام فى الأرماس
وأجوز الجنان أرتع فيهـا بين حور وولدة أكياس
أى شىء أصاب عقلك يامسكين حـتى رميت بالوسواس

وأن الربط بين هذا الإدعاء المنسوب اليه وبين إيمانه القوى بالجنـة والنـار وبالتالى عقيدة البعث ، يفند تهمة تسند اليه وهو برىء منها .

إذ أن الجنة التى رسمها فى « رسالة الغفران » تستمد أصولها من جنـة القرآن

---

(١) نيكلسون : دائرة المعارف الاسلامية جـ ١ ص ٣٨٣ مادة « أبو العلاء »

(٢) ياقوت الحموى : ارشـــاد الاريب الى معرفة الاديب ص ١١٦ (تعريف) الابيات لم ترد فى ديوانية .

(٣) أبو الفدا : المختصر فى تاريخ البشر ص ١٨٧ (تعريف) الابيـات لم ترد فى ديوانية .

الكريم . من هذه الجنة القرآنية . أخذ أبو العلاء أكثر المادة التي صاغ منها جنته بحيث يخيل للرائي المتعجل أن أبا العلاء قد نثر الصورة القرآنية ولم يزد على أن أضاف عنصرا هنا أو زاد لونا هناك . فقد تشابهت الصورتان في تلك الملاذ والنعم التي حشدت لأهل الجنة ، عرضها القرآن الكريم في دقة وتفصيل ، وجاء بها « أبو العلاء » بعد أن بالغ في إبرازها مبالغة تصل إلى الغلو في أكثر الأحيان ، مضيفا اليها من عنده كل ما مثله خياله أو رنا إليه حرمانه »[1] .

كما جعل أبو العلاء رسالة الغفران مجالا يدافع فيه عن نفسه ، والغريب أن الناس كانوا يعزون اليه العلم والدين معا وكان هو الذي ينفي عن نفسه هاتين الخلتين من باب التواضع والادب . إذ كان يرى أنه رغم زهده وورعه وتقواه ليس أهلا لان يقال عنه أنه متدين أو عالم ، وكان يشعر بألسنة الناس الحداد تثقب جدار بيته ويود لو كان كالوثن لايشعر بما يقال حوله من تبجيل أو إحتقار حتى يسكت لسانه عن محاجاة النافمين عليه .

« ويقال أنني من أهل الدين ، ولو ظهر ما وراء السدين[2] ما اقتنع لي الواصف بسب ، وود أن يستقيني جوذلان[3] بشب ... ولو أني لا أشعر بما يقال في لأرحت من انكاري وتلافي وكنت كالوثن . : سواء عليه إن وقر من الوقار وإن أوقر من الاوقار[4].

وموقف أبي العلاء من قصة النبوة التي ألصقها الناس بالمتنبي يكشف عن احتراز أبي العلاء مما يقوله الناس ، وتنبيهه إلى الوقوف موقف الفحص والتدقيق من حكمهم على الأشياء ، وان نطق المتنبي لاينبيء عن دخيلة نفسه إذ أن الإنسان

---

(١) د . عائشة عبد الرحمن : الغفران ص ١٠١

(٢) السدين : الستر والحجاب

(٣) جوذلان : سما

(٤) أبو العلاء المعرى : رسالة الغفران تحقيق بنت الشاطيء ص ٣٨٢

قد يقول مالا يعتقد وأن بعض الناس يظهرون الديانة تزيينا وتطلعا إلى المكاسب والحمد والثناء وهم فى الباطن ملحدون :

« وإذا رجع إلى الحقائق ، فنطق اللسان لاينبى عن اعتقاد الإنسان ، لأن العالم مجبول على الكذب والنفاق ، ويحتمل أن يظهر بالقول تدينا . وإنما يجعل ذلك تزينا يريد أن يصل به إلى ثناء أو غرض من اغراض الخالبة ام الفناء ولعله قد ذهب جماعة هم فى الظاهر متعبدون وفيما بطن ملحدون [1] :

بل ان ابا العلاء يحمد من يهاجم الزنادقة والملحدين ، ويعتبر هذا الهجوم منة وفضلا ، بل يراه واجبا وحسنة سيجزى الله عنها :

« وأما غيظه من الزنادقة والملحدين ، فأجره الله عليها كما أجره على الظمأ في طريق مكة . واصطلاء الشمس بعرفه ، ومبيته بالمزدلفة ولا ريب أنه ابتهل إلى الله - سبحانه - فى الأيام المعدودات والمعلومات ، أن يثبت هضاب الإسلام ويقيم لمن اتبعه النير من الاعلام [2] .

ويرى ابو العلاء ان الزندقه داء قديم فى الأمم وليست بدعة مستحدثة ويبسط رأى الفقهاء فى عدم جدوى توبة الزنديق إذا رجع إلى الايمان خشية القتل بخلاف المرتد فانه إذا رجع تقبل توبته [3] .

« ولكن الزندقة داء قديم ، طالما حل بها الآدم ، وقد رأى بعض الفقهاء ان الرجل إذا ظهرت زندقته ثم تاب فزعا من القتل ، لم تقبل توبته . وليس كذلك غيرهم من الكفار ، لان المرتد إذا رجع قبل منه الرجوع » .

ويبين حال طائفة من الناس يظهرون الايمان ويبطنون الكفر وهم بذلك

---

(١) أبو العلاء المعرى : رسالة الغفران تحقيق بنت الشاطىء ص ٤١٠

(٢) نفس المصدر السابق : ص ٤٢٠

(٣) نفس المصدر السابق ص ٤٢٠ .

يخدعون المحيطين بهم ، ولكن هذا الخداع لايدوم . إذ هذا القناع الزائف لابد وان يسقط بعد حين . ويبين كيف ان الفرس كانوا يقتلون المتهمين بالزندقة الذين تثبت عليهم هذه التهمة ، ويعرف الزنادقة بأنهم الدهرية الذين ينكرون النبوة والكتاب :

« ولا ملة إلا ولها قوم ملحدون ، يرون أصحاب شرعهم أنهم موالفون وهم فيا بطن مخالفون ، ولابد من أن يتهك مخادع ، وتبدو من الشر جنادع . وقد كانت ملوك الفرس تقتسل على الزندقة ، والزنادقة هم الذين يسمون الدهرية ، لايقولون بنبوة ولا كتاب(١) ويقرر الأستاذ أمين الخولى(٢) أن أبا العلاء تأثر فى منطقه الذى تحدث عنه فى رسالة الغفران بأنه إذا رجع إلى الحق فنطق اللسان لاينبي عن إعتقاد الإنسان (٣) » فقال ما ليس صحيحا فى نفسه ولا واقعا فى ذاته أو قال مالا يراه ولا يعتقده ، ثم خالفه بقول ما هو واقع صحيح ، أو ماهو رأى معتقد ، فخالف لاحقه سابقه ، وكلاهما ليس رأيا ولا اعتقادا مادام فيه المجال لتحسين الكلام كما يقول هو ، أو ما دام باباً توجد معانيه وألفاظه وهو عليه قادر كما يقول الجاحظ » .

وأغلب الظن أن الأستاذ الدكتور شوقى ضيف حين قرن بين أبى العلاء وابن القارح وجعلهما يتفقان فى السخرية بالمعتقدات الدينية الإسلامية ، وحين ناقش الذهبي فيما زعمه بأن أبا العلاء كان مزدكيا وصحح فكرة الذهبي بأنه إنما اراد الزندقة لما فى الرسالة من تهكم على بعض المعتقدات ، ولما فيها أيضا من دفاع واضح عن الشعراء الذين عرفوا بالزندقة إذ يزعم أبو العلاء دائما أن الله غفر لهم، وقد سميت الرسالة باسم رسالة الغفران من أجل ذلك(٤) .

---

(١) نفس المصدر السابق : ص ٤٢١
(٢) أمين الخولى : رأى فى أبى العلاء ص ١٢٨ ، ١٢٩ .
(٣) رسالة الغفران ص ٤١٠ .
(٤) د . شوقى ضيف : الفن ومذاهبه فى النثر العربى ص ١٣٢

كان يقف موقف العالم الذى يزن الأمور ، فالدكتور شوقى فى الطبعة الأخيرة لكتابه « الفن ومذاهبه فى النثر العربى » يبرىء أبا العلاء من تهمة الزندقة نهائيا وهذه صفة العالم الحق الذى يراجع أحكامه دائما .

ونلاحظ أيضا أن الدكتور شوقى ضيف فى حديثه عن أبى العلاء فى كتابه « الفن ومذاهبه فى الشعر العربى » يدافع عن حرية فكر أبى العلاء وينفى عنه أنه كان صاحب فكرة للزندقة والالحاد ، فيقول (١) :

ولكن هل نستطيع أن نخرج من كل ذلك بأن ابا العلاء كان زنديقا او ملحدا ، كما كان يقول القدماء ؟ الواقع انهم تطرفوا حينما اضافوا إلى ابى العلاء الزندقة والالحاد ، إنما هى خطرات شاعر حائر جاءت على لسانه فى اوقات قليلة جدا فى ازومياته إذ كثرتها تحميد وتقديس وتمجيد فى الله » .

وهذا الرأى يؤيد ماذهبت اليه من أن شعر الزندقة مبثوث على الشاعر كما ينبث السم فى العسل . وليس هناك دليل يثبت صحة نسبة هذا الشعر إلى شيخنا الجليل أبى العلاء ، وحتى موقفه من المتصوفين الذى كان يتسم بالنقد العنيف حاول المختقون والمغيظون تشويه صورة هذا النقد حين دسوا عليه بيتين هما(٢) ، (٣)

« قال ابن الهبارية : انشدنى ابو زكريا الخطيب التبريزى قال :

أنشدنى ابو العلاء احمد بن عبد الله بن سليمان المعرى لنفسه :

أرى جيل التصوف شر جيل ... فقل لهم وأهون بالحلول
أقال الله حين عبدتموه ... كلوا أكل البهائم وارقصوا لى

---

(١) د . شوقى ضيف : الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ص ٣٩٣

(٢) ياقوت الحموى : ارشاد الاريب ص ٨٣ (تعريف)

(٣) الحق أن البيتين ليسا من شعر ابى العلاء ، فقد ورد فى رسالة ابن القارح الى ابى العلاء « انشدنى الظاهر لنفسه » وذكر البيتين .
انظر رسائل البلغاء ص ٢٠٠ — تعريف القدماء ص ٨٣ .

ونستبعد أيضا أن يكون أبو العلاء هو القائل فى حق الرسل الكرام (١) :

ولا تحسب مقال الرسل حقا   ولكن قول زور سطروه
وكان الناس فى عيش رغيد   فجاءوا بالمحال فكدروه

ودس عليه الدساسون أيضا طعنه فى كسرى وأشياعه ، وفى النصارى ومعتقداتهم واليهود وخرافاتهم ، والمسلمين ومقدساتهم . فلم يترك صديقا واحداًله إذ يقول وفى رأيى أن القائل شخص يريد الشر بالشيخ (٢) :

عجبت لكسرى وأشياعه   وغسل الوجوه ببول البقر
وقول النصارى إله يضام   ويظلم حيا ولا ينتصر
وقول اليهود إله يحب   دسيس الدماء وريح القتر
وقوم أتوا من أقاصى البلاد   لرمى الجمار ولثم الحجر
فوا عجبا من مقالاتهم   ايعمى عن الحق كل البشر

فاذا كان القائل محقا فى نقده للفرس او النصارى او اليهود ببيان بعض عاداتهم الغريبة فليس محقا فى نقده للحج عند المسلمين وهذه دسيسة يراد بها الاساءة إلى المعرى عند كل الطوائف والملل .

ويبدو ان كل الشعر الذى وضع على لسان ابى العلاء لم يكن للايقاع به فهناك شعر ، وضعه المخلصون له بقصد نفى التهمة عنه (٣) .

سرت ثمانين طالبا اجلى   والحين اثرى كأنه حاد
ما أنا بالملحد الكفور ولا   اسأل مولاى غير إلحادى

(١) ياقوت الحوى : ارشاد الاريب ص ١١٧ تعريف
(٢) أبو الفدا : المختصر فى تاريخ البشر ص ١٨٧ تعريف
(٣) سبط بن الجوزى : مرآة الزمان ص ١٦١ ، ١٦٢ تعريف
(والابيات لم ترد فى الديوانين)

ناديت اين الذين كان بهم   يشرف هذا الفناء والنادى
مزادتى الآن لا بلال بهـا   ومزودى منفض من الزاد
والسفر الدائم المواصل يحتاج إلى عدة وعتاد

والخلاصة أن موقف أبى العلاء من الدين كان موقف المؤمن المخلص لمولاه وقد احترمه الناس والعلماء ورجال الدين والفقهاء وشيوخ الإسلام لهذا السبب ولو كان زنديقا أو ملحدا لإنفض الناس من حوله وهجره العلماء والفضلاء . ولكن الشبهات تحوم حوله بسبب جرأة آرائه وبسبب شعر كثير يتسم بالالحاد والاستخفاف وضع على لسانه ومن رأى أن يحذف هذا الشعر من صحيفة ابى العلاء ويضاف إلى زنادقة مجهولين .

ثانيا : موقفه من رجال الدين والمنافقين :

وقف أبو العلاء من رجال الدين موقف الناقد لانه كان يعتبرهم المثل الأعلى للأمة ، فإذا فسدوا انهارت المثل العليا وتهدم بناء الناس الروحى ، وكان أبو العلاء حريصا كل الحرص على أن يكون قادة الأمة الروحيين منزهين عن الأخطاء التى يقع فيها سائر البشر . وكان ممـــا تصوره أبو العلاء فى مثله الأعلى للمجتمع رجال دين التزموا أوامره واجتنبوا نواهيه ، وآمنوا بالله سرا وجهرا ...... وأخلصوا له حقا ، ودرسوا الدين وعرفوا أسراره ، وميزوا بين ما أتى به حقا وما الصق به خرافة ، وكانت أعمالهم الظاهره وفقا لعقائدهم الباطنة ، فلا رياء ولا غش ولا خداع ، أن قضوا بين الناس فحكم بما أنزل الله وتحر للعدل لا يشوبه ظلم ، وقوة فى تنفيـذ الحق لا يخالطها ضعف . وأن خطبوا أو وعظوا صدر قولهم من قلوبهم وعبر أصدق تعبير عمـا فى نفوسهم تتطابق أقوالهم وأعمالهم وقلوبهم ، هم صوت الله لشعبه لا يخافون عظيما ولا يعيرون أمام الحق كبيرا صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، وما بدلوا تبديلا (١)

(١) أحمد أمين : نظرة أبى العلاء الى العالم (الهلال يونيو ١٩٣٨) ص ٨٥٨

وكان أبو العلاء حريصا فى مقدمه لزومياته على بيان الهدف من نقده الدينى وكأنه بذلك يرسم منهجا عليا قبل أن يشرع فى عملية النقد فيقول (١).

« كان من سوالف الأقضية أنى انشأت أبنية أوراق (٢) توخيت فيها صدق الكلمة ، ونزهتها عن الكذب والميط (٣) ولا أزعمها كالسمط المتخذ ، وأرجو الا تحسب من السميط (٤) فنها ما هو تمجيد الله الذى شرف عن التمجيد ، ووضع المنن فى كل جيد ، وبعضها تذكير للناسين وتنبيه للرقدة الغافلين »

فهذا البرنامج الذى يرسمه أبو العلاء لنفسه يضع أمامه قضيه تنبيه الرقدة الغافلين فى المقام الأول ، ولذلك فهو ينتقد رجال الدين لأنهم غفلوا عن إداء واجباتهم وتناسوا حقوق مهمتهم على نحو ما يقول (٥)

رويدك قد غررت وأنت حر — بصاحب حيلة يعظ النساء
يحرم فيكم الصهباء صبحا — ويشربها على عمد مساء
تحساها فمن مزج وصرف — يعل كأنما ورد الحساء (٦)

فهذا الواعظ المنافق يصوره أبو العلاء بهذه الصورة الصادقة التى تنطق عن وعى بنفسية بعض الضعاف من الرجال الذين يتخذون من الدين بضاعتهم يتجرون بها ، وهذا الواعظ المنافق يدعى أنه أضحى بلا كساء ، مع أنه أنفق ثمن كسائه فى اللذات الدنيئة ، وأن الانسان حين يفعل ماينهى عنه يكون قد أساء مرتين لا مرة واحدة (٧).

---

(١) أبو العلاء المعرى : شرح لزوم مالا يلزم لطه حسين والابيارى ص ٠
(٢) « اوزان » كما يقول الدكتور شوقى ضيف ، وهو الارجح عندى ٠
(٣) الجود
(٤) تصغير سمط .
(٥) لزوم مالا يلزم جـ ١ ص ٦١
(٦) الحساء : مياه ابنى لغز ٠ ٠
(٧) لزوم مالا يلزم : م ١ ص ٦١

يقول لكم غدوت بلا كساء — وفى لذاتها رهن الكساء
إذا فعل الفتى ما عنه ينهى — فمن جهتين لا جهة أساء

وهو يكره الرياء فى الدين ، ويرى أن الناس يتظاهرون بالديانة ، وهو يرى أن الدين الصحيح هو الذى يقوم على الاقتناع الكامل السليم وإلا فانه برىء من قومه (١)

أراتيك فليغفر لى الله زلتى — بذاك ، ودين العالمين رياء
وقد يخلف الانسان ظن عشيرة — وإن راقه منه منظر ورواء
إذا قومنا لم يعبدوا الله وحده — بنصح فانا منهم برآء

وهو يشكو مر الشكوى من قلة العلماء فى زمنه والعلماء عنده رجال الدين الذين يقولون قولة الحق دون خوف ، حتى انتشر كلام الجهل فى كل مكان (٢)

فقدت فى أيامك العلماء — وادلهمت عليهم الظلماء
وتمشى دهماؤنا الغى لما — عطلت من وضوحها الدهماء (٣)

ويناقش أبو العلاء الخرافات والأوهام التى دخلت على الديانة ، ويرى أنه لا فائدة من علم العلماء أو حكمة الحكماء لأن الله قضى بما هو كائن (٤)

إذا كان علم الناس ليس بنافع — ولا دافع فالخسر للعلماء
قضى الله فينا بالذى هو كائن — فتم وضاعت حكمة الحكماء

---

(١) نفس المصدر السابق ص ٤٥ .
(٢) نفس المصدر ص ٥٧
(٣) الدهماء من الناس : عامتهم والدهماء من الدواب التى اشتدت خضرتها حتى قاربت السواد يريد غلب على عامتنا الجهل والضلال حين فقدت العلماء المرشدين لها الذين كانوا فيها بمنزلة الاوضاح فى الفرس الدهماء
(٤) لزوم مالا يلزم جـ ١ ص ٦٤

ثم يدعو الناس إلى أن يفيقوا من سكرتهم ومما أحاطهم به تجار الدين من دعاوى وخيالات يريدون بها السيطرة والجاه الدنيوى ، ويخيل لى أنه أراد بذلك التنبيه على طوائف الأسماعيلية وغيرها من فرق الغلاة إلى التخلص من ربقة سادتهم الذين أسروهم بدعاواتهم الغامضة ، وما كان يستطيع أن يقول ذلك صراحة ولذلك يبدو لفظه ومعناه غامضين (١)

أفيقوا أفيقوا ياغواة فانما ديانـاتـكم مـكر من القـدماء
أرادوا بها جمع الحطام فأدركوا وبادوا وماتت سنة اللؤماء
تقولون إن الدهر قد حان موته ولم يبق فى الأيام غير ذماء (٢)
وقد كذبوا ما تعرفون انقضاءه فلا تسمعوا من كاذب الزعماء
وكيف أقضى ساعة بمسرة وأعلم أن الموت من غرمائى

وحديثه عن الزعيم يشى بأنه يريد فرق الاسماعيلية ، ثم يدعو فى آخر بيت منها إلى الحذر كل الحذر من الاقربين والغرباء أيضا ، ولا شك أنه يرى بذلك إلى دعاة الاسماعيلية الذين ينتشرون فى أرجاء البلاد خفية للدعوة ، ويدعو الناس إلى الأخذ برأى العقلاء :

خذوا حذراً من أقربين وجانب ولا تذهلوا عن سيرة الحزماء

وهو يرى أن الديانه أصبحت متجرا للناس ، ويهاجم بشجاعة فكرة المهدى المنتظر دون أن يخاف عاقبة هذا الهجوم الذى قد يؤدى بحياته ، ولعل هذا هو السبب فى تحامل دعاة الفاطميين عليه ، وسعى داعى دعاتهم إلى النيل منه لأنه لم يكن يرى فى دعوتهم الغريبة إلا تجارة ينالون بها المكاسب فى الدنيا مثل القرامطه فى الاحساء والزنج فى البصرة : (٣)

---

(١) نفس المصدر السابق ص ٦٥
(٢) ذماء : بقية الروح .
(٣) لزوم مالا يلزم ج ١ ص ٦٦

يرتجى الناس أن يقوم إمام ناطق فى الكتيبة الخرساء
كذب الظن لا إمام سوى العقل مشيرا فى صبحه والمساء
إنما هذه المذاهب أسبا ب لجذب الدنيا إلى الرؤساء
غرض القوم متعة لا يرقو ن لدمع الشماء والخنساء
كالذى قام يجمع الزنج بالبصـ رة والقرمطى بالاحساء

ثم يدعو دعوته الجريئة إلى الانفراد لأنه ان قال صدقا فإن كلامه سيكون ثقيلا على جلسائه وربما أودى به إلى مهاوى الشر والتهلكه .

فانفرد ما استطعت فالقائل الصا دق يضحى ثقلا على الجلساء

ويصف أبو العـلاء المرائين فى الدين والنسك بأنهم كلاب تنبح ، وهم لا يخشون الاله واذا ذبحت الفرد منهم لم يزد عن كونه ماعزا ، ولا يغرنك منهم أيديهم التى تمسك بالسبح ، أو شيبتهم ووقارهم فى الصباح بينما يبيتون فى الخطايا والأرض لو تعقل لودت أن تطهر منهم ويدعو الناس إلى أن يفعلوا كل حسن وأن يتجنبوا كل قبيح (١).

دعوا وما فيهم زاك ولا أحد يخشى الاله فكانوا أكلبا نبحا(٢)
وهل أجل قتيل من رجالهم إذا تؤمل إلا ماعز ، ذبحا ؟
.. وليس عندهم دين ولا نسك فلا تغرك أيد تحمل السبحا
وكم شيوخ غدوا بيضا مفارقهم يسبحون وباتوا فى الخنى سبحا
لو تعقل الأرض ودت أنها صفرت منهم فلم ير فيها ناظر شبحا

والحق أن قضية نقد المعرى لرجال الدين كانت تختلط بقضايا الخلاف والنزاع الذى شب بين صفوف المسلمين (٣) من قبل :

(١) نفس المصدر السابق ص ٢٩٢
(٢) الزاكى : الصالح
(٣) لزوم مالا يلزم ج ١ ٣٣٧

أرى الأيام تفعــل كل نكر — فما أنا فى العجائب مستزيد
أليس قريشكم قتلت حسينــا — وصار على خــلافتكم يزيد

حتى أصبحت الأمة الاسلامية قطعا متناثرة ، وحتى أصبح الدين بالتالى مجالا للتنافس والتأويل والتجارة بين فرقة وأخرى من الفرق الدينية والسياسية وحتى أصم الناس آذانهم عن سماع النصح والرشاد (١) .

يستأسد النبت الغضيض فلا تلم — رجلا متى أبصرته مستأســدا
وإذا حسدت فإن شكر فضيلة — أن لا تؤاخذ فى الاساءة حاسدا
ومن الرزية أن تبيت مكافــا — إصلاح من صحب الغريزة فاسدا
والدين متجر ميت فلذاك لا — تلفيه فى الأحياء إلا كاسدا

ويرى أن الجاهل الورع خير وأبقى ، ويستشهد على ذلك بنفسه التى زهدت صداقة الزميل الغنى وآثرت البعد عن زخرف الحياة ومتعها وأمنت بقضــاء الله وقدره (٢)

الله يشهد أنى جاهــل ورع — فليحضر الناس إقرارى وإشهادى
هذا ورب صديق لى أفاد غنى — زهدت فيه على عدمى وإزهادى
أعمى البصيرة لا يهــديه ناظره — اذ كل أعمى لديه من عصا هاد
وقد علمت إذا سهدت من حذر — أن ليس ينفى خطوب الدهر تسهادى

وهذا اللون من الدعوة الى التمسك بالدين فيه منفعة جليلة للناس وهو ماسماه الأستاذ هنرى لاوست بأنه قول موجه الى العامة وأنه يخالف ما أبطنه أبو العلاء لنفسه وللخاصة ، وهو يحل بذلك مشكلة التناقض التى توجد فى بعض شعره .

« أن أبا العلاء المعرى كان مخلصا فى اظهاره لدينه وابدائه لتقواه كما أنه كان

---

(١) نفس المصدر السابق ص ٣٥٨
(٢) نفس المصدر ص ٣٧٩ .

مخلصاً فى حثه الناس على التمسك بدينهم لما كان فى ذلك لعامتهم من فائدة ومنفعة[١]

وهو يدعو الناس الى تعظيم الناسك الحقيقى التقى الذى يرعى حقوق دينه والى أن يبتعدوا عن قراءة الكتب المضللة وأن يذهبوا إلى طرق الهداية الواضحة[٢]

فعظم أخا النسك التقى لدينه ... ونفسك فاحقر نافع لك حقرها
ولا تقرأ الكتب المضلل درسها ... وقد وضحت طرق الهداية فاقرها[٣]

ويحذر فى نفس الوقت من دعاة التصوف الذين يفهمون الدين فهما خاطئا ويدعو السحابه ألا تهطل على أرض لا نفع منها ولا جدوى من روائها لان أولئك الناس الذين يدعون انهم وصلوا الى قمة الوجد الالهى فيتمايلون يمينا ويسارا كأنهم سكارى وما رقصهم حذارا من الله وانما هم مخادعون كاذبون[٤].

رويدك ياسحابة لا تجودى ... على السبخات من جهل هميت[٥]
طلبت ديانة بين البرايا ... لقد أشوت سهامك إذ رميت[٦]
تزيوا بالتصوف عن خداع ... فهل زرت الرجال أو أعتميت[٧]
وقاموا فى تواجدهم فداروا ... كأنهم ثمال من كميت
وما رقصوا حذارا من إله ... ولا يبنون إلا ما حميت
وجدت الناس ميتا مثل حى ... بحسن الذكر أو حيا كميت

---

(١) هنرى لاوست : اختلاف الاراء فى فلسفة ابى العلاء ص ٢٩٨ المهرجان الالفى .
(٢) لزوم مالا يلزم ج ١ ص ٤٢٥ .
(٣) اقرها : اقصدها .
(٤) لزوم مالا يلزم : ج ١ ص ٢٤٠
(٥) السبخات : واحدتها سبخة وهى أرض ذات نزوملح لا ينفعها المطر لانها لا تنبت شيئا . هميت : أمطرت
(٦) اشوى السهم : اخطأ الهدف
(٧) اعتميت : اخترت

وأغلب ظنى أن السحابة التى يريدها أن تتوقف عن الأرواء هو فكرة الذى ينبض بالاصلاح الذى لا يجدى فى أرض غير مستعدة مثلما تعجز المياه عن انبات الأرض الملحة التى لا يجدى فيها المطر .

وهو ينعى على طائفة القراء لكتاب الله الكريم ، لأنهم يطلقون محكم الآيات فى أناس أسودت ضمائرهم وأظلت عيونهم وأدلهمت حياتهم وهم إلى جانب ذلك يقامرون بما يحملون من الحكم والآيات البينات ولا يخلصون لما فى صدورهم منها(١)

فلا يغرنك من قرائنا زمر ... يتلون فى الظلم الفرقان والزمرا
يقامرون بما أوتوه من حكم ... وصاحب الظلم مقمور إذا قمرا
يبدى التدين محتالا ضمائره ... غير الجميل إذا ما جسمه ضمرا
يشدو مزامير داود ويفضله ... فى النسك نافخ مزمار لهزمرا

ثم ينعى على الواعظ الذى يتسم المنبر العالى يسدى حكمه ونصحه وارشاده وهو لو درى يوجه كلامه الى الآساد والنمور التى لا تتورع فى الانقضاض على فريستها حتى اذا مادعيت للخير تحولت إلى حمير لا تفقه ولا تتحرك :

يوفى على المنبر العالى خطيبهم ... وإنما يعظ الآساد والنمرا
هم السباع اذا عنت فرائسها ... وان دعوت لخير حولوا حمرا

وينعى على الناس أيضا أنهم يصدقون ما يخالف العقل أحيانا بحيث أنهم يصدقون المحال .

قد صدق الناس ما الألباب تبطله ... حتى لظنوا عجوزا تحلب القمرا
..وحدثتك رجال عن أوائلها ... فاسمع أحاديث مين تشبه السمرا

واللزوميات حافلة بالشعر الذى يقف فيه أبو العلاء موقف المؤمن الصادق

---

(١) لزوم مالا يلزم جـ ١ ص ٤٩٦

الذى يوجه النصح إلى الناس بألا يدعوا التدين ويخفوا فى بواطنهم غير ذلك(١)

غفر الله لعبد غافل ... هو فى اعظم جهل وخطر
ترك الآجل لم يحفل به ... ومن العاجل لم يقض الوطر
حكم الرب لبدر فاستوى ... وهلال مستجد فانأطر(٢)
تظهر الدين وتخفى غيره ... انما شأنك مكر وبطر

ثم يوجه الخطاب أيضا الى الملحد بأن يقلب وجهه فى عبر الزمان وعظاته ، وهو حرى بعد ذلك بان يصدق كل ما جاء به الدين الحنيف، وهو يلجأ فى اقناعه الى منهج عقلى ، لأن العقل عنده الطريق الصحيح الى الايمان : (٣)

أمر الخالق فاقبل ما أمر ... واشكر الله ان العذب أمر
أضمر الخيفة وأضمر قلبا ... أحرز الطرف المدى حتى ضمر
أيها الملحد لا تعص النهى ... فلقد صح قياس واستمر

وبعد أن يعدد البراهين الدالة على اعجاز المولى عز وجل يقول :

تلك أنباء أرتنا عبرا ... معجبات كأحاديث السمر

ويرى أبو العلاء ان الانسان يشرب دينه مع اللبن الذى يرضعه منذ طفولته، ولذلك فانه يعجب كل العجب لمن يتنكب طريق الصواب لأنه يخالف بذلك فطرته التى فطره الله عليها :

« والتأله موجود فى الغرائز ، يحسب من الألجاء الحرائز ويلقن الطفل الناشىء ما سمعه من الأكابر ، فيلبث معه فى الدهر الغابر »(٤)

---

(١) لزوم مالا يلزم جـ ١ ص ٦٠٨
(٢) انأطر : اعوج
(٣) نفس المصدر ص ٦٠٩ .
(٤) رسالة الغفران تحقيق . د . بنت الشاطىء ص ٤٥٦

ثم يعجب لاولئك العباد الذين يسكنون فى الصوامع ويأخذون مايسمعونه. قضية يسلمون بها دون مناقشة دون أن يميزوا بين الصدق والكذب ، أو الصواب والخطأ وينقلون هذه القضية برمتها الى من بعدهم فتستمر سلسلة الخطأ متواصلة الى مالا نهاية .

« والذين يسكنون فى الصوامع، والمتعبدون فى الجوامع ، يأخذون ماهم عليه كنقل الخبر عن المخبر ، لا يميزون الصدق من الكذب لدى المعبر »(١)

وهو يرى أن ذا العقل الذى يمحص الأمور ويدققها ويستطيع الفصل بين الكذب والصدق نادر فى الأحياء والأموات معا ، وإذا ظهر إنسان صاحب علم حقيقى فانه يستحق التقدير والاكرام ، ولعله يقصد نفسه — بهذا العلم الذى يفيض به على البشر .

« ولكن أين من يصبر على أحكام العقل ، ويصقل فهمه أبلغ صقل هيهات ! عدم ذلك فى من تطلع عليه الشمس ، ومن ضمنه فى الرمم رمس ، إلا أن يشذ رجل فى الأمم يخص من فضل بعمم »(٢)

وينتقد المعرى أولئك الحكماء الذين ينظرون فى كتب القدماء ، فلا يعرف منها الا قبيح الأمور فيستخلصه بعقله المظلم ، ويصيره نظرية يدعو لها ، وهو — أى هذا الحكيم — لا يتورع عن فعل الدنايا والكذب والظلم والنفاق. وهو لا يهدف من نصيحته الى موت أو دمار :

« ربما لقينا من نظر فى كتب الحكماء ويتبع بعض آثار القدماء ، فألفيناه ، يستحسن قبيح الأمور ، ويبتكر بلب مغمور، إن قدر على فظيع ركبه وأن عرف واجبا نكبه كأن العالم سموا له فى اقتاد ، فهو يعتقد شر اعتقاد، وأن أودع وديعه

---

(١) نفس المصدر السابق.
(٢) رسالة الغفران بتحقيق بنت الشاطىء. ص ٥٠٦ ؟

خان وأن سئل عن شهادة مان ، وأن وصف لعليل صفة فما يحفل أقتله . بما قال «أم ضاعف عليه الأثقال ، بل غرضه فيما يكتسب وهو الى الحكمة منتسب ، ورب زار بالجهالة على أهل ملة ، وعلته الباطنة أو هى علة »[1]

ويصف بخل عباد ذلك العصر ، وحرصهم على الدنيا لدرجة أن الواحد منهم لو عرضت عليه أن تاخذ منه لبنة من الحصى يعوض عنها فى الآخرة بلبنة من الفضة لرفض ، وإذا أغريته بأخذ جاريته العوراء ليعوض عنها فى الجنة بجارية حوراء لرفض أيضا . وهذا حال العباد المصدقين بالدين فكيف يكون حال المكذبين :

« ولو قيل لبعض عباد هذا العصر : أعط لبنة ذات قضة[2] لتعطى فى الآجلة لبنة من فضة . لما اجاب ولو سئل أمة عوراء يعوض منها فى الآخرة بحوراء ، لما فعل . على أنه من المصدقين ، فكيف من غذى بالتكذيب وجحد وقـوع التعذيب »[3]

ويلاحظ أبو العلاء ان اختلاف الفقهاء فى التفسير ، واجتهاداتهم بين المنع والاباحة للشىء الواحد أدت الى حيرة الشبان والشيوخ ، والفتاة والعجوز :

أجاز الشافعى فعال شىء ... وقال أبو حنيفة لا يجـوز
فضل الشيب والشبان منـا ... وما أهتدت الفتاة ولا العجوز
لقد نزل الفقيه بدار قـوم ... فكان لأمره فيهم نجـوز

فلقد كان يود اجتماع الأمة على مذهب واحد ، ولـكن ذلك تعنت شديد من المعرى إذ أنه ولا شك كان يدرك أن اختلافات الفقهاء ترجع الى اختـلاف كل بيئة عن الأخرى .

---

(١) نفس المصدر السابق
(٢) القضة : الحصى الصغار
(٣) رسالة الغفران ص ٥١٩ — ٥٢٠

ويحمل أبو العلاء على المتصوفة حملة شديدة لما يراه من أفعالهم التى لا تتفق مع الدين ، مثل الرقص واطالة الشعور وتضفيرها ، وينعتهم بأنهم خراف لا تعرف إلا النطح الضار ، وأما ما تدعيه من تواجد الصوفية فالله يشهد بكذبهم وأنهم انما يشوهون الدين بهذه الحركات الراقصة : (١)

صوفية شهدت للعقل نسبتهم ... بانهم ضأن صوف نطحها يقص(٢)
لا ترقصن مهـــريات مكرمة ... فالمهارى قديما يعرف الرقص(٣)
ولا يبين : أفى أعناقها غيـــد ... لمن تأمل أم أزرى بها الوقص(٤)
تواجد القوم من نسك بزعمهم ... والله يشهد ما زادوا كما نقصوا
لا نال خيراً فتى أمست أنامله ... مدارى السرح موصولا بها العقص(٥)

ويكرر هجومه كثيراً على الصوفيه ، وكذبهم وادعائهم (٦)

صوفيه مارضوا للصوف نسبتهم ... حتى ادعوا أنهم من طاعة صوفوا
تبارك الله ، دهر حشوه كذب ... فالمرء منا بغير الحق موصوف
إن أثمر الغصن فامتدت اليه يد ... تجنيه ظالما ، فليت الغصن مقصوف

ويكشف تدين البعض زلفى لخوفهم من أمير أو حاكم حتى إذا ما ذهب انقضى نسكهم : (٧)

---

(١) لزوم مالا يلزم : ج ٢ ص ٨٢
(٢) يقص : يدق العنق
(٣) المهريات : ارادبها الجرائر المهارى : الابل ، الرقص : سير للابل فيه اضطراب كالرقص .
(٤) الوقص : القصر
(٥) المدارى الامشاط الواحد مدرى ، السرح من سرح الشعر مشطه العقص ، الواحدة عقيصة : الضفيرة : من الشعر
(٦) لزوم مالا يلزم : ج ٢ ص ١٠٥
(٧) المصدر السابق ص ٢١٥

تدين غاويهم حذار أميرهم   فلما انقضت أيامه ذهب النسك
فأصبح من بعد التمسك بالتقى   لأردانه من طيب فاجرة مسك[1]

ويلاحظ تفتت الناس وتشتتهم بشأن الدين ما بين مؤمن وجاحد ومشرك[2]

تباين فى الدين المقال فجاحد   وصاحب توحيد واخر مشرك

ويأسى لدخول الأباطيل على الأديان ، ويرجو لو جاء يوم يسود الهدى فيه جيلا بأكمله[3].

دين وكفر وأنباء تقص وفر   قان ينص وتوراة وإنجيل
فى كل جيل اباطيل يدان بها   فهل تفرد يوما بالهدى جيل

والخلاصة ان أبا العلاء كان تقيا ورعا يغار على الاسلام كل الغيرة ، ولكنه كان مفكرا جريئا مقداما يتناول الامور الدينية دون خوف لأنه كان واثقا بايمانه وتقواه ولكنه كان ينعى على رجال الدين المنافقين والمتصوفة المدعين الذين احالوا الدين إلى تجارة يتكسبون بها ولذلك حاربه اولئك الأدعياء بوضع الكثير من شعر الزندقة على لسانه حتى يطيحوا به ولكن محاولتهم باءت بالخسران وظل ابو العلاء رجل الدين التقى الورع الزاهد .

---

(١) مسك : بالفتح الجلد
(٢) لزوم مالا يلزم : جـ ٢ ص ٢١٨
(٣) المصدر السابق ص ٢٦٨ .

الخـــاتمة

ان البحث فى صورة الحياة العامة ، اقتصادية وسياسية واجتماعية يلقى الضوء على شخصية أبى العلاء وآرائه فى نقده لكل الأشكال والنظم القائمة. ويبدأ البحث حول بيئة المعرة الصغيرة التى اختلف المؤرخون فى وصفها ما بين مبالغ فى خيراتها وجفافها وبين منكر عليها الثراء والوفرة .

ولكن الملاحظ أن المعرة كانت تعـــانى من ضيق اقتصادى عام ، ألم بالأمة الإسلامية جميعا ، كما أن الشام جميعه وقع تحت وطأة هذه الضائقة الاقتصادية التى غيرت معالم النفس العربية التواقة للكرم ، والانفاق ، والجود .

كما شهد القرنان الرابع والخامس الهجريان خللا واضحا ، يتمثل فى سوء توزيع الثروة بين عباد الله،واستئثار الخلفاء وأمراء الجيوش بالضياع والثروات الطائلة ينفقونها على امائهم وعبيدهم وخمورهم وزينتهم ، ويضنون بأقل القليل على المشروعات العمرانية ، أو تقوية الجيوش وتسليحها .

واضطربت الحياة السياسية اضطرابا شديداً أيضا . وإذا نظرنا إلى بغـداد قلب الأمة النابض نجد أن سياسة العباسيين فى الاعتماد على العناصر الأجنبية قد أضعفت العنصر العربى ، وجعلت منه عنصر المستضعفين الذين يتعرضون لبطش أمراء الأجناد، وحتى أن الخليفة العباسى عجز عن الاحتفاظ لنفسه بمظاهر السيادة الشكلية ، واستلبها منه الترك والديلم وكان عهـــد بنى بويه أسوأ تلك العهود على الخلافة العباسية ، إذ أصبحت دار الخلافة عرضة للسلب والنهب ، وعجز الرجل المريض أن يوقف مد السلطان البويهى ، أو المحافظة على الأمن داخل بغـداد ذاتها . أما فى الشام فقد كان نفوذ الحمدانيين قـويا ابان إزدهارها فى حياة سيف الدولة ، ولكنها أخذت تتفتت وتضعف وتتقهقر أمام زحف الروم من الشمال فى

عهد سعد الدولة وسعيد الدولة ، وبلغت حلب حداً من الضعف جعلها تطلب الأمان ، وتعقد الأحلاف مع دولة الروم المتنصرة. وتسلط على مقدرات الدولة العبيد والخدم ، وكانت أحوال الشام السياسية مثلا للضعف والتداعى ، بالقدر الذى جعل أبا العلاء يشعر بأن لا قوة لهذه الأمة وسط الأوضاع المتداعية .

وقد كانت إمارة صالح بن مرداس على حلب ، ونجاحه فى توطيد سلطة بنى كلاب انتفاضة مؤقتة للعنصر العربى ولكنها لم تدم طويلا .

وكانت مصر تمثل نقطة خطورة بالنسبة لأمراء الشام المستقلين ، إذ كانت القاهرة تمد سلطانها على دمشق ، وكان دعاتها وأعوانها فى قلب بغداد ، وكانت الدعوة الفاطمية الباطنية تلقى استجابة لدى العوام الذين يأملون فى قيام المهدى المنتظر الذى ينقذهم من عذاب الدنيا . غير أن مصر تعرضت لمحنة شديدة عندما استولى على مقاليد أمورها الحاكم بأمر الله الذى نشر الرعب والخوف فى قلوب الرعية ، وأصدر مجموعة من اللوائح والقوانين الشاذة التى ظلت علامة مميزة لعهد ذلك الحاكم الغريب . وكان دعاته يبالغون فى تعظيمه حتى أطلقوا عليه صفة الألوهية ، وبرز رجال من أمثال الدرزى والزوزنى الذين أسسوا الدعوة من أجل تأليه الحاكم ، وأقاموا صرح الدولة الدرزية بعد ذلك .

وقد تعددت الفرق والمذاهب الفلسفية والدينية فى الدول العربية ، وقام الصراع المرير بينها جميعا من أجل الوصول الى السيطرة الدنيوية ، ليتسنى لها فرض وجودها ، ولذلك فإن الحركات السياسية والجيوش المتحاربة كانت تقف خلفها فرقة دينية أو مذهب من المذاهب التى انتشرت وتعددت ، وتكاثرت بشكل ملحوظ .

وأول هذه الجماعات ، جماعة اخوان الصفا الذين كانوا يجتمعون للمدارسة والتعليم ، وتركوا مجموعة من رسائلهم المشهورة التى تعتبر مرآة عقلية للمجتمع الاسلامى فى القرن الرابع الهجرى ، واختلطت فيها الثقافات الهندية والفارسية

والعربية ، وقد عرف أبو العلاء الطريق الى هذه المجامع الفلسفية لاخوان الصفا فى بغـــداد أواخر القرن الرابع ، ولكنه لم يحتذ آراءهم الباطنية التى ترتبط بالآراء القرمطية .

والاسماعيلية من هذه الجماعات الباطنية الخطيرة التى انتشرت فى مصر والشام وخراسان ، وكانوا — فى بداية الأمر — لا يختلفون مع الشيعة إلا فى شخص الأمام، ولكنهم أغرقوا بعد ذلك فى بث الألغاز والمعميات ليسيطروا على عقول العـــامة ، فكان دعاتهم يبثون بين الناس أن أئمتهم يعرفون الغيب ، ويكشفون أسرار المستقبل القريب والبعيد ، وأن عندهم كتابا يسمى « الجفر » ورثه أئمتهم عن الأمام جعفر الصادق يستطيعون به كشف الغيب وقد هاجم أبو العلاء دعاة الاسماعيلية فى حذر شديد لأنه لم يكن يؤمن إلا بسلطان العقل .

وتعتبر الدرزية نتاجا للمذهب الاسماعيلى إذ انشأها محمد بن اسماعيل الدرزى وكان يدعو إلى التناسخ والحلول ، ويزعم أن روح آدم قد انتقلت إلى على بن أبى طالب ثم إلى الحاكم بأمر الله صفوة سلالته . وقد انتشرت هذه الدعوى الغريبة فى الشام وأصبح لها دعاتها وفدائيوها

وكانت فرق الصوفية تمثل طفحا اجتماعيا خطيرا فى القرنين الرابع والخامس. إذ انتشرت بينهم العادات الضارة والخبيثة مثل صحبة الأحـــداث ، ومعاشرة الغلمان إلى الدرجة التى أثارت عليهم المخلصين من الصوفية الذين استهجنوا خروج رفاق الطريق على سبيل الزهد فى الدنيا إلى التكالب على متاعها الرخيص، وتنكبهم طريق الجهاد والعمل ، وسلوكهم طريق التطفل والكدية حتى لقد شوهت صورة الصوفى تشويها شديدا حتى اضطر « القشيرى » إلى تأليف رسالته ليهدى الصوفية إلى سواء السبيل ، ولذلك فان ابا العلاء وقف منهم موقف المعارض المهاجم لأنهم كانوا يظنون العبادة عبارة عن الرقص واطلاق شعورهم وتصفيفها مثل النساء ، ولبس العباءات القذرة المهلهلة . وبذلك كانت هذه الطوائف المنحرفة تمثل خطرا مرضيا على جسم الأمة أيضا .

كانت هذه صورة المجتمع الاسلامى الذى عاصره أبو العلاء وكان نقده له يخضع لعدة عوامل ذاتيه لها أثرها فى تلوين نظرة المعرى للحياة والناس .

وأول هذه العوامل ما اصابه من جراء كارثة العمى التى لحقت به منذ كان طفلا يتفتح للحياة ، فقد واجه حياته بذلك الامتحان الصعب ، مضافا اليه اصابته بالجدرى مما جعل صورته تدعو للرثاء والشفقة . ولكنه رغم ذلك لم يستسلم لنوع ما من اليأس القاتل المدمر ، بل زاول الحياة كما يزاولها كافة البشر ، وعاش طفولته وصباه كما يعيشها من فى مثل سنة ، فكان يلهو بالشطرنج والنرد ، وكان إلى جانب هذا خفيف الظل حاضر البديهة فى النادرة الحلوة أو الفكاهة العارضة .

وكانت رحمة الله به واسعة إذ حبته قوة خارقة فى الذاكرة ، اذ ما يكاد الشىء يذكر امامه حتى يلصق بذهنه ، وينقش بعقله حتى ولو طال الأمد ، وقد ساعدته هذه الملكة النادرة فى استيعاب ثروة لغوية واسعة ، وحفظ التراث الشعرى والنثرى الذى يقرأ عليه ، واستيعاب كاف لدروس التاريخ وعظاته وعبره مما أعطى له نظرة واعية وعميقة لأبعاد المجتمع ومشاكله . ومفارقاته الغريبة .

ولم تفد هذه الذاكرة الواعية أبا العلاء فقط وانما افادت أولئك العلماء الذين كانوا يبحثون عن صحائف فقدت من كتبهم ، ولا يدرون شيئا عما فقد ، فكانو يذهبون إلى أبى العلاء ليجدوا عنده المفقود والمجهول والمظنون به من علوم الأوائل والأواخر . وقد رويت روايات كثيرة تشهد على هذه الملكة النادرة ومهما يكون من أمـــــر هذه الروايات فانها تحمل قسطا كبيرا من حقيقة ذلك الشاعر الفريد . وتحمل صفة من صفات النبوغ التى يعوضه بها الله ــ سبحانه وتعالى ــ عن فقده لبصره وعدم امكانه مداومة القراءة حين يشاء أو حين تعوزه الحاجة .

وكانت للرحلات العملية أثرها فى اضافة الكثير من المعارف إلى حصيلة المعرى فلقد طاف مدن الشام كما ذهب إلى العراق ، وكان يتم خلال هذة الرحلات بالكتب والعلماء وكان يحتك بالمدارس والاتجاهات الفكرية المختلفة .

أما الجانب الثانى من الجوانب الذاتية فهو مايتمتع به الشاعر من الحساسية المفرطة ، وقد جعله هذا يرى مالا يراه الناس ، ويحس مالا يحسه غيره ، وقد كان هذا سلاحا ذا حدين، أفاده بقدر ما أضره . أفاده بأن جعله قادرا على النفاذ فى نفس محدثه ، ومعرفة دخائله وأسراره إلى حد يشبه المعجزة ، وأضره بأن جعله يتمعن أفعال الناس تجاهه ، ويتلقى نقدهم المر بالام نفسية ، عنيفة ، ويذود عن نفسه بعنف وضراوة فى بعض الأحيان . وكان مرجع هذا الالم يعود إلى ابائه الشديد ، ورفضه الحجر على حرية رأيه وخاصة اعجابه المتنبى ولقد بالغت الروايات فى تصوير قوة ادراك أبى العلاء للمحسوسات كدليل على شفافية روحه وأثيريتها ، وكانت هذه الشفافية سببا يدعوة إلى النفور من هذه الحياة ومن اهل ذلك ذلك الزمان الذين لم يرحموا حساسيته المفرطة فأخذوا يوجهون اليه سهام نقدهم ، تارة يتهمونه بالالحاد والكفر ، وتارة يشتمونه بأقذع اللفظ رغم أنه لم يكن يزاحم أحدا فى أغراض الدنيا وملاذها .

وكانت رحلته إلى بغداد تمثل حلقة جديدة فى حياة شاعرنا الذى أراد أن يعرض عمله وفضله على محـــلة الفقهاء ، بغداد ، وأن يستزيد من زيارتها وهو على أبواب الأربعين زاداً فكريا ومعنويا يعمق تجاربه ويزيدها خصبا . ولكنه لم ينل بغيته حيث أراد . اذ لم تكن اقامته فى بغداد مريحة هانئة . فقد قابله كثير من علمائها بالحذر ، وكان بعضهم يضمر الضغينة ويظهر الترحاب، كما لم تلق آراؤه استحسانا فى أوساط الحنابلة ، بينما أحاطه العامه من أهل بغداد بكل صنوف المودة والعطف . ولم يكن غرضه من هذه الرحلة التعلم أو المال . وانما كانت هجرة روحية أراد بها الشاعر أن يتخلص من حالة القلق والحزن التى ساورته فى الشام ولكن أنباء موت والدته ، ويأسه من خيرة رجال العروبة فى بغداد جعلته يقفل إلى الشام راجعا وفى نفسه يأس مرير ، وعزم قوى على هجرة الدنيا ليقعد فى صومعته يفكر ويكتب .

وتمثل مرحلة العزلة أكثر سنى المعرى خصبا بالانتاج العميق ، فلقد نظم

اللزوميات وكتب رسالة الغفران ، وأملى كثيرا من كتب المواعظ واللغة ودواوين الشعر التى لم يصلنا منها إلا القليل ، غير أن الملاحظ أن شعر هذه الفترة ونثرها يختلف كثيراً عن شعر النصف الأول من حياته المتمثل فى سقط الزند . وكانت فترة العزلة غنية بالاتصالات الانسانية بين المعرى وبين تلاميذه ، الذين وفدوا عليه من كافة أرجاء الأرض ، فكانوا يتعلمون وينزلون فى ضيافته ايضا ، وكان الشيخ كريما بكل ما يملك ، بالعلم والمال . ولذلك فان فترة العزلة الجسدية لم تمنعه عن الناس ولم تمنع الناس عنه . وكان أبو العـــلاء — وهو فى منعزله الاجتماعى — يغلى بالثورة الاجتماعية ويقلب النظر فى أحوال البشر، ويرى ما حل بدولة المسلمين من ضعف شديد ، فيأسى ، ويعبر عن هذا الأسى بسلسلة من الأفكار الواضحة حيناً والغامضة حينا ، وكان مظهره الساكن الصامت يخالف مضمونه الثائر الغاضب .

ويشكل النظام السياسى فى أى عصر فلسفة معينة يقوم عليها . وبالقدر الذى تكون عليه عدالة هذه الفلسفة أو جورها بالنسبة للشعب يكون موقف المفكر أو الأديب المخلص الذى يأخذ جانبا بجوار الشعب أو العامة . وكان النظام الاقطاعى حجر الزاوية فى النظام السياسى القائم فى القرنين اللذين عاصرهما أبو العلاء . وكانت الأرض مقسمه بين الحاكم والأمراء وقادة الجند ، بينما كان للعامة الفتات من القطع الصغيرة المزروعة ، وبعض الأعمال الشاقة الأخرى ومزاولة الحرف اليدوية . وكان علماء الدين والفقهاء والقضاة يتمتعون بمركز سام رفيع وكان هذا الطريق لا يسلكه إلا النابهون فى تلقى العلم ، كما كان الكثيرون يقومون بجانب التأليف والدرس بمزاولة الحرف اليدوية ليقتاتوا منها . فلم يكن العلم — فى أغلب الاحيان — بضاعة رائجة يكتسب بها . ولذلك كان هم الكثيرون من العلماء ينصرف إلى محاولة البحث عن الرزق وكان الشعراء يجدون فى باب المديح سبيلاً إلى استنزاف ثروات الأغنياء ، بينما ظل بعض الشعراء حريصا على نزاهة الكلمة يوجهها حيث يجب أن تكون ، فى خدمة قضايا المجتمع ومشكلاته . وكان أبو العلاء شيخ أولئك الذين يلتزمون بوظيفة الكلمة ، فوجهها الى نقد النظام

السياسى المنهار ، فلم يكن راضيا عن الأحوال السياسية للعصر ، وكان يدعو إلى اصلاحها بطريق التوجيه والارشاد لا بطريقة الثورة والسيف كما كان المتنبي يدعو سابقا. غير أن ذلك لا يعنى أنه كان ملما بالنظريات السياسية كالاشتراكية أو غيرها، إنما كان ينطق عن ايمان عميق بالمساواة بين البشر ، وبأن أحدا لا يملك شيئا من هذه الأرض التى نعيش عليها وهى مفاهيم دينية لا علاقة لها بالنظريات اليونانية. وقد كان شيخ المعرة يرى ما يعانيه الناس حوله من ظلم وفقر فى كل الأرجاء الاسلامية فقال ما قاله فى نقد الحكام والسياسيين ، وركز نظرته نحوهم ليزيلوا عن عيونهم غشاوة الجهل ، ويعيدوا سيرة أجدادهم العظام فى البطولة والتضحية والفداء ، ومن أجل هذا نظم درعياته ليقارن بين حالى الأمة الاسلامية فى قوتها وضعفها ، فى منعتها واستسلامها لضربات الروم . ويوجه نقده بعد ذلك الى إهمال الحكام للاصلاح الداخلى وتغاضيهم عن أمور رعيتهم ، وانصرافهم إلى ملذاتهم ، وإغراقهم فيها إغراقا يضر بهم كأفراد ، وبأممهم كجماعات . ويحث الناس حثا على أن يكفوا أيديهم عن معاونة الظالم ، ويعطى مفهوما للامير أو الحاكم بأنه أجير لدى الرعية ، من واجبه أن يسهر على رعايتها وحمايتها .

وتناول أبو العلاء عناصر المجتمع بالنقـــد والتحليل ، وأول هذه العناصر المرأة. إذ أن مكانتها فى حياة المجتمع قوية ، كما أنها تتأثر تأثراً مباشرا بالأوضاع السياسية والاقتصادية فيه ، وكلما سار النظام الاجتماعى نحو الانهيار والتحلل ساءت مكانة المرأة وقبعت فى بيتها ذليلة كسيرة وانحصرت مهمتها فى كونها متاعا للرجل لا شريكة وزميلة له فى الحياة . وقد جاء المعرى فى وقت اشتدت فيه المحنة بالأمة الإسلامية ، وشاعت فيها الأفكار الشاذة والعادات المستقبحة ، فكانت نظرته إلى المرأة مشوبة بكثير من سحابات ذلك العصر القائمة . ويمجد أبو العلاء العمل اليدوى النافع تزاوله المرأة فى بيتها شريفة محصنة ، ويحذر من اختلاطها بالرجال ، وإقبالها على تلقى العلم ، وخروجها إلى الاماكن العامة ، واستشارتها جارتها فى بعض الأمور ، لأن ذلك يعرض المجتمع لكثير من المفاسد

ويبدو أن فكرة اضطهاد المرأة كانت سائدة فى ذلك العصر ، إذ كان الحاكم بأمر الله يشدد القيود على المرأة المصرية أيضا ، وأغلب الظن أن هذه الفكرة العامة السائدة عن المرأة كانت نتاجا افساد الحياة العـامة ، وظهور كثير من الطفح الاجتماعى الذى أضر بالمرأة غير أن المعرى لم يكره المرأة كرها غريزيا ، إذ كان يحب أمه حباً شديدا وكان متيما فىشبابه بأمرأة يتغزل بها ولكن نقده تأثر بالواقع الإجتماعى العام .

وخص أبو العلاء الأغنياء بالكثرة من النقد ، إذ كان يرى الرقعة الاسلامية المريضة ، تستأثر بخيراتها فئة قليلة ، وكان الشاعر انسانى النزعة ، يأبى أن يعيش فى الخلد بمفرده ، أو أن تهطل السماء على أرضه دون غيره، وكان يرى الخير مقسما بين الناس أفضل من اكتنازه وحجبه والاستئثار به .

ويقف أبو العـلاء من بعض رجال الدين موقفاً يتسم بالنقـد الشديد لنفاقهم ولقد ظنه البعض حجة يستدلون بها علىموقفه منالدين أيضا فلقد أعطى أبو العلاء لنفسه الحرية فى مناقشة اجتهادات الفقهاء وتفسيراتهم للشعرية ، وكان فى نقـده اللاذع لهم الكثير مما يثير ضده الزوابع التى تكاد تعصف بوجوده ، ولولا ما كان يتمتع به من شهرة فى زهده وورعه عند الكافة ، لفتك به الحكام الحانقون عليه بتهمة الالحاد والزندقة ولا يكاد كتاب قديم يخلو من رميه بالالحاد والزندقة أما لآرائه الجديدة والجريئة ، وأما لتأليفه كتاب « الفصول والغايات » الذى زعموا أنه صنفه لمحاذاة سور القرآن الكريم والواقع أن الذين هاجموا هذا الكتاب ، إنما هاجموه لما يحتوى من مضمون يهدم الكثير من أصنام ذلك الزمن ، ويهدد المتجرين بإسم الدين، ويضع للناس مبادىء عظيمة يسترشدون بها فى حياتهم .

إذن فان أبا العلاء لم يقف موقف الداعى للناس بالخروج عن الدين الحنيف أو الكفر ، ولكنه وقف موقف الناقد لأفعال رجال الدين الفاسدين .

ولقد نبه الدكتور شوقى ضيف إلى نقطة هامة فى هذا الباب وهى ان كثيرا

من الأشعار التي تظهر فيها صفات أبي العلاء المتشكك أو الزنديق موضوعة على لسانه وهذا يؤيد براءة أبي العلاء من هذه التهمة إذ أن موقفه من الدين كان موقف المؤمن المخلص لمولاه ، وقد احترمه الناس والعلماء ورجال الدين والفقهاء وشيوخ الإسلام لهذا السبب . ولو كان زنديقا أو ملحدا لانفض الناس حوله ، وهجره العلماء والفضلاء . ولكن الشبهات تحوم حوله بسبب جرأة آرائه حينا ، وبسبب شعر كثير يتسم بالالحاد والاستخفاف وضع على لسانه ، وأرى أن تحذف هذا الشعر نهائيا من صحيفة أبي العلاء ويضاف إلى زنادقة مجهولين حفظا لشاعرنا العظيم ، وحفاظا على مكانته في هامة الآمه الإسلامية .

ثبت المراجع

ــ ابن الأثير :

الكامل فى التاريخ . القاهرة ، المطبعة المنيرية ، ١٣٥٣ هـ

ــ ابن سلام (الامام الحافظ أبو عبدالله القاسم بن سلام)

الأموال . مصر ، المكتبة التجارية ، ١٣٥٣ هـ

ــ ابن الشحنة :

الدر المنتخب فى تاريخ مملكة حلب . بيروت ، ١٩٠٩ م

ــ ابن العديم (تحقيق د. سامى الدهان)

زبدة الحلب من تاريخ حلب ، الجزء الأول . دمشق ، المعهد الفرنسى ١٩٥١ .

ــ ابن عساكر (تحقيق د . صلاح الدين المنجد) :

تاريخ مدينة دمشق . دمشق ، المجمع العلمى العربى .

ــ ابن القلانسى (أبو يعلى حمزة ابن القلانسى) :

ذيل تاريخ دمشق . بيروت ، مطبعة الآباء اليسوعيين ، ١٩٠٨

ــ ابو العلا عفيفى (دكتور) :

التصوف : الثورة الروحية فى الاسلام . الاسكندرية ، دارالمعارف، ١٩٦٣ (ط . أولى) .

ــ ابو العلاء المعرى :

ــ الفصول والغايات ــ نشر محمود زناتى . القاهرة ، ١٩٢٧ .

ــ سقط الزند (خمسة أجزاء) . القاهرة

الدار القومية ، مصورة عن ط دار الكتب ، ١٩٦٤

ــ لزوم ما لا يلزم . ط الجمالية ١٩١٥ (جزءان فى مجلد)

ط بيروت ١٩٦١ (جزءان فى مجلدين)

— رسالة الغفران ط هندية

ط كامل كيلانى

ط دار المعارف

ط بيروت

— رسالة الملائكة ، تحقيق محمد سليم الجندى ، دمشق ، المجمع العلمى العربى ، ١٩٤٤ .

— رسائل ابى العلاء المعرى ، مقدمة مرجوليوث ، أكسفورد ، ١٨٩٨

— عبث الوليد (شرح ديوان البحترى) تعليق محمد عبد الله المدنى دمشق ، مطبعة الترقى ، ١٩٣٦ .

— أحمد أمين :

ظهر الاسلام حـ ١ ، حـ ٢ . القاهرة ، النهضة المصرية ، ١٩٥٢ .

— اخوان الصفا :

رسائل اخوان الصفاء وخلان الوفاء ، تقديم د. طه حسين وأحمد زكى تصحيح خير الدين الزركلى . مصر ، المكتبة التجارية ، ١٩٢٧ .

— آدم متز (ترجمة د. محمد عبد الهادى أبو ريدة) :

الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى حـ١ ، حـ٢

القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٤٧

— البير نصرى نادر (دكتور) :

أهم الفرق الإسلامية السياسية والكلامية . بيروت ، المطبعة الكاثوليكية .

— أمين الخولى :

رأى فى أبى العلاء . القاهرة ، جماعة الكتاب ، ١٩٤٥

— بلاشير (ترجمة د. أحمد أحمد بدوى) :

ديوان المتنبى فى العالم العربى وعند المستشرقين . مصر ، طبعة أولى

— حسن حسين :
الولاء فى نقد ذكرى أبى العلاء . القاهرة ، ١٩١٧

— خالد حكمة الجراكى :
معرة النعمان فى غابرها وحاضرها ، القاهرة ، دار العرب ، ١٩٤٤

— دى بور (ترجمة د. محمد عبد الهادى أبو ريدة) :
تاريخ الفلسفة فى الاسلام . القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٥٤ (طبعة ثالثة)

— زكى مبارك (دكتور) :
التصوف الإسلامى فى الأدب والأخلاق . مصر ، دار الكتاب العربى ١٩٥٤ (جزءان)

— سامى الكيالى :
أبو العلاء المعرى ، دفاع ابن العديم عنه . القاهرة ، ١٩٤٥ .

— الشهرستانى (الامام أبو الفتح محمد بن عبد الكريم) .
تصحيح وتعليق أحمد فهمى محمد
الملل والنحل ، القاهرة ، مكتبة الحسينية التجارية ، ١٩٤٨ .

— شوقى ضيف (دكتور) :
- الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ، القاهرة ، دار المعارف
- الفن ومذاهبه فى النثر العربى . القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٩
- العصر العباسى الأول . القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٩
- تقويم تراثنا الشعرى . مجلة المجلة العدد (٩٧) يناير ١٩٦٩

— طه حسين (دكتور) :
- تجديد ذكرى أبى العلاء . القاهرة ، دار المعارف
- صوت أبى العلاء . القاهرة ، دار المعارف

ـــ طه حسين (دكتور) (وابراهيم الأبيارى) :
شرح لزوم مالا يلزم . القاهرة، دار المعارف(ج ١)

ـــ طه حسين (دكتور) وآخرون : تعريف القدماء بأبى العلاء .
الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٥

ـــ طه الراوى :
أبو العلاء فى بغداد . بغداد . مطبعة النفيض ، ١٩٤٤

ـــ ظهير الدين البيهقى (تحقيق محمد كرد على) :
تاريخ حكماء الأسلام . دمشق ، مطبعة الترقى ، ١٩٤٦

ـــ عبد المحسن الحسينى (دكتور) :
النزاع بين الصوفية والفقهاء فى القرنين الثالث والرابع الهجريين .
رسالة ماجستير مخطوطة بمكتبة جامعة القاهرة تحت رقم ٢٧٨٩٨
باشراف الأستاذ أحمد أمين ، ١٩٤١ .

ـــ عبد العزيز الميمنى الراجكوتى :
أبو العلاء وما اليه . القاهرة ، المطبعة السلفية .

ـــ عبد القاهر البغدادى :
الفرق بين الفرق . القاهرة ، مطبعة الهلال ، ١٩٢٤

ـــ عائشة عبد الرحمن (دكتور) :
الحياة الأنسانية عند أبى العلاء . مصر ، المعارف ، ١٩٤٤

ـــ عائشة عبد الرحمن (دكتورة) :
الغفران . القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٨

ـــ عائشة عبد الرحمن (دكتورة) :
رسالة الغفران (تحقيق) . القاهرة ، دار المعارف (ط ثالثة)

ـ علي سامي النشار (دكتور) :
نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام . القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٥
(جـ ٢) ط ثالثة .

ـ علي سامي النشـار (محقق) :
اعتقادات فرق المسلمين والمشركين لفخــر الدين الرازي . القاهرة
النهضة المصريـة ، ١٣٨ .

ـ فخر الدين الرازي :
اعتقادات فرق المسلمين والمشركين . القاهره، النهضة المصرية، ١٩٣٨

ـ القشـيري :
الرسالة القشيرية . القاهرة ، مكتبة الحلبي ، ١٩٥٩ (ط ثالثة)

ـ كراتشكوفسكي :
المتنبي وأبو العلاء . بطرسبورج ، ١٩٠٩

ـ ماسينيون :
دائرة المعارف الاسلامية . جـ ٥ ص ٢٦٨ (مادة تصوف)

ـ المجمع العلمي العربي :
المهرجان الألفي لأبي العلاء المعري . دمشق ، ١٩٤٥

ـ محمد الحسيني آل كاشف الغطاء (الامام) :
كتاب أصل الشيعة وأصولها . القاهرة ، مطبعة الاعتماد ، ١٩٤٤

ـ محمد خلف الله أحمد :
مقدمة أثر القرآن في تطور النقد العربي للدكتور محمد زغلول سلام .
القاهرة دار المعارف ، ١٩٦١

ـ محمد الخضري :
محاضرات تاريخ الأمم الأسلامية (الدولة العباسية)
القاهرة . دار أحياء الكتب العربية ، ١٩٣٠

— محمد راغب بن محمود بن هاشم الطباخ الحلبي :
أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء . حلب ، ١٩٢٥

— محمد زغلول سلام (دكتور) :
أثر القران فى تطور النقد العربى . القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦١

— محمد عبد الله عنان :
الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية . القاهرة ، دار النشر الحديث ١٩٣٧ .

— محمد مصطفى حلمى (دكتور) :
الحياة الروحية فى الأسلام . القاهرة ، دار أحياء الكتب العربية ١٩٤٥ .

— محمد كامل حسين (دكتور) :
طائفة الأسماعيلية . القاهرة ، النهضة المصرية ، ١٩٥٩

— محمد كامل حسين (دكتور) :
المجالس المستنصرية . القاهرة ، دار الفكر العربى
(سلسلة المخطوطات الفاطمية)

— محمود الشبيشى :
الفرق الأسلامية . القاهرة ، المكتبة التجارية ، ١٩٣٢

— مهيار الديلمى :
ديوان مهيار الديلمى . القاهرة ، دار الكتب ، ١٩٢٥

— نيكلسون (ترجمة د . أبو العلا عفيفى) :
فى التصوف الإسلامى وتاريخه . القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٧ .

المراجع الاجنبية

- Asin Palacios – (M.) Dante et 1' Islam. 2 Vol', Paris 1928

- Berlein – (H.) – The Diwan of Abu' 1–Ala – London, 1909
  (Wisdom of East)

- Berlein – (H.) Abu' 1–Ala, the Syrian–London, 1910

— Brackenbury (G) Abul' 1 Ala Al Maarri. Rissalar Al Ghufran
  London 1943

— Margoliouth (D. S.) – MUKATARAT Abi – Ala, with English
  translation – Oxford : 1898

— Nargoliouth (D. S.) – Corresdondance on Vegetrianism, in
  JRAS 1902; b. 299–312

– Nassignon (L.) – Abou' 1 Ala – Al – Naurri dans REM. T. XL
  III – XLV (1927)

– Nicholson: Studies in Islamic Poetry. Cambridge Univers.
  Press, 1921

— Nicholson : Risselat Al Ghufran: Description & Traduction
  Journal of the Royal As. Soc. 1900 :
  637 – 720
  1902 , 175

– Nicholson : Abul Ala Al Maarri – Encyclopédie de 1'Islam
  I. p. 77

– Salmon (G.) – Abou' 1 Alu Maarri. Le Poéte Aveugle, Exrraits
  des Poemes et des lettres – Paris, 1904

— Schefer (Charles) – Sefer Nameh, Relation du voyage de Nassari Khosran en Syrie, Palestine, Egypte, Arabie – Perse– 1035 – 1042 – Paris, E. Le roux In – 8; 1883– Tomme I (2e Serie des Publications de l'Ecole des Langues Orientales Vivantes).

بسم الله الرحمن الرحيم

النقد الاجتماعى فى آثار أبى العلاء المعرى

صفحة

الفصل الثانى

الفصل الثالث

الفصل الرابع

تم طبع الكتاب

بحمد الله وعونه

٣ جنيــه ١٠٧١٧٩ / ٢

دار المعارف ـ ١١١٩ كورنيش النيل ـ القاهرة
الناشر : منطقة الاسكندرية ٤٢ ش سعد زغلول ـ ٢ ميدان التحرير (المنشية)